مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

منتديات قلعة طرابلس

من القصص الإسلامى

الجزء الثانى

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

٩٣

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع الأمير سلطان بالعباسية - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

منتديات قلعة طرابلس
ابو النور
www.tripolicastle.com

منتديات قلعة طرابلس
ابو النور
www.tripolicastle.com

المؤلف
د. محمد رجب البيومى

هـذا الكتاب

يَحْذُو هذا الجزء الثانى حذو الجزء الأوّل فى عرض الأحداث التاريخيّة فى معرض الحوار القصصى، وقد انتظم سيرًا حافلة لأفذاذٍ من عظماء التاريخ منهم القائد الملهم، والبطل الفدائى، والفاتح الظافر، والعالم الفاضل، والخطيب المؤثر متحدثًا عن كلّ عظيم بما يوضح أهدافه الإنسانية، أو يكشف معدنه الخلقى، أو يجلو مواهبه العلميّة، وإذا كانت هذه القصص ترضى حاجة المتطلّع إلى التاريخ فإنها من ناحية ثانية تصوّر المثل النبيلة للناشئة من الأبناء إذ يجدون أمامهم مثلًا عليا ترسم لهم الطريق كما أنها من ناحية ثالثة تمدّهم بنماذج من الأسلوب الأدبى الرفيع تُبعدهم عن منزلقات الركاكة، وتدفعهم إلى استحسان الأنماط البيانية ذات الإيحاء الملهم، والإحساس النابض، هذا غير ما تبعثه القصة الأدبية فى نفس قارئها من ارتياح وهزة، يَدْفعان عنه السأم، ويدعوانه إلى معاودة القراءة فى بهجة واستمتاع.

منشورات قلعة طرابلس

مراجعة كبار علماء

الجمعية الشرعية الرئيسية
لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية

سلسلة
مكتبة المسلم العصرية
إسلاميات

سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه
○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر
بأسلوب ميسر يفهمه العامة،
ويسعد به الخاصة

مراجعة هيئة كبار علماء
الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

هذا هو الجزء الثانى من هذه القصص الهادفة التى تعيد التاريخ حياً بأبطاله ووقائعه وملابساته .

وقد حرصت فى ما أكتب على الواقع التاريخى . إذ أجد فيه مجالا للتأمل الفكرى ، وحافزاً على التقدم الإنسانى ، وعامل ثبات على طريق النضال ، إذ أن هذه الأحداث تؤكد صبر الإنسان وجلده ، كما تبشر بالنصر لمن كافح وناضل ، وتنذر بالعاقبة لمن فرط وتهاون .

وقد قلت فى مقدمة الجزء الأول إن التاريخ يقدم التجربة والقدوة معاً ، فالتجربة وقاية من الخطأ لمن اعتبر ، والقدوة مثال يحتذيه من آمن برسالة الخير فى الحياة .

وما مضيت فى كتابة الجزء الثانى إلا تأكيداً لهذه المعانى ، وترسيخاً لما أومن به من مثل أخلاقية هتف بها الإسلام ، فتمسك بها أتباعه المخلصون .

وعسى أن أجد من القارئ الكريم إقبالا يشجعنى على أن أسير على الدرب لأسطر الجديد الطريف .

وما توفيقى إلا بالله .

د . محمد رجب البيومى

عاشقة السلام

نظرت الزهراء بنت أوس إلى أمها نظرة حائرة ، ثم سألتها فى أسف : (إلى متى تستمر هذه الحرب الطاحنة بين عبس وذبيان ؟ .. لقد قضيت من حياتى عشرين عاماً يا أماه ، وأنا أسمع كل يوم عن فظائعها الرهيبة ما يعصر القلب ويشوى الضلوع) .

فأطرقت الأم ساهمة ، ثم رفعت رأسها ، واتجهت إلى ابنتها تقول :

عشرون عاماً يا زهراء !! تسمعين عنها أفجع الأنباء !.. لى الله من بائسة حزينة ، فقد مر علىّ أربعون من السنين ، وأنا أسمع كل يوم خبراً كارثاً عن فقد أخ أو ابن عم أو قريب أو حبيب ، ثم لا أجد غير الدموع أبثها شكواى ؟ ! أنسيت يا زهراء أنى امرأة من عبس ، أحس بما يحسون من أرزاء .. ولكن الله لطف بى فتزوجت فى طيئ بعيدة عن مسرح الحوادث ومسبح الدماء !.

ثم ترقرقت دمعتان ساخنتان على خد الأم ، فاضطربت الزهراء قليلا لما أثارته فى نفس والدتها من شجون .. واستمسكت بهدوئها الحازم ، فابتسمت فى لطف مهذب ، ودنت من أمها فى حنان تقول : (هونى عليك يا أماه .. فلكل شىء نهاية ، وإن طال ..) . ولكن الأم لم تنطق بشىء ، فاندفعت تسألها فى رفق : (ألا يوجد بين سادات العرب من له همة عالية من الرجال ، فيتقدم إلى سراة عبس وذبيان، فيحسم الخلاف بما له من سيطرة وجاه .. وإذ ذاك تعود السيوف إلى أغمادها ، وتلتئم الجراح ..!) .

فتأوهت الأم آهة حارة ، وقالت فى حزن مرير : هيهات أن يستمع هؤلاء وأولئك إلى عقل حصيف .. إنهم أثاروا هذه الحرب الطاحنة فى شىء تافه لايقام

---

(١) وقعت هذه القصة قبيل البعثة المحمدية ، ولكنها تتضمن معانى رائعة يدعو إليها الإسلام ، فهى تصور البيئة التى ترعرع فيها هذا الدين الحنيف .

منتديات قلعة طرابلس
ابو النيل
www.tripolicastle.com

له حساب ، ولو كانت لديهم إثارة من تفكير متزن ما اشتعلت هذه النار الجامحة أربعين عاماً بسبب فرسين يتسابقان !

فضربت الزهراء بيدها على صدرها ، وقالت فى تعجب : (واحر قلباه !.. أتشتعل الحرب أربعين عاماً بين عبس وذبيان بسبب فرسين يتسابقان ! وضحى الأمر قليلا يا أماه !؟)

فعضت الأم على شفتيها كالمتألمة ، وقالت فى اكتئاب : تسابق فرسان هما داحس والغبراء فى مضمار .. فجاء أحدهما سابقاً ، فادعى القوم أنه سبق عن مكيدة مدبرة ، وتعصب له ذووه .. فاشتد الخلاف الجدلى حتى أفضى إلى معركة دموية ، فسقطت جسوم ، وهوت رقاب !! والتمس كل موتور ثأره ، فامتد القتال هكذا سنوات وراء سنوات !.

فقلبت الزهراء كفيها كالمتعجبة ، ثم قالت : ولماذا لا يذهب والدى أوس ابن حارثة إلى أصهاره فى عبس ، ثم يلتقى بأصدقائه فى ذبيان ، أو يدعو رءوس الفريقين إلى دياره ، فيعيد الأمن ويحسم الخلاف !! أما يعرف العرب جميعاً أن أوساً سيد العرب ، وصديق النعمان ؟ !

فقالت الأم : لقد جال بخاطرى كثيراً أن أشير على أبيك بالسفارة بين القبيلتين ، ولكنى خشيت أن يظن بى الظنون ، فيعتقد أنى جازعة حزينة لما أصاب قومى فى عبس ، وأنى أدفع بطيئ جميعها إلى حرب تعود عليها بالنكبات !.

فصاحت الزهراء : أبعدى عنك هذا الوهم يا أماه ، وسأصارح أبى الليلة بالأمر ، ولم أعلمه شيئاً مما دار بيننا الآن .. وسأدفعه إلى السفارة بين القوم دفعاً لا هوادة فيه ، فيعود الأمن ويرفرف السلام .

رجع أوس بن حارثة الطائى مع المساء إلى منزله ، فتصدر الملأ من طيئ .. وجلس بين معشره يفض الخصومات ويشير بالرأى ، ثم ذبح الذبائح وقدم الطعام لمن نزل بساحته من المتخاصمين والأضياف .. وجعل الحديث يتنقل بين القوم من شجن إلى شجن حتى انتصف الليل ، وتفرق الجمع عن أوس ، شاكرين له كرمه الغامر ، ورأيه الحصيف ، فأوى إلى خيمته حيث اعتاد أن يهجع ، ولكنه فوجئ بالزهراء تنتظره على فراشه فى غير ميعاد ، فتقدم إليها فى رفق ، وسألها فى بشر وارتياح : ألك من حاجة يا زهراء ؟

فابتسمت الزهراء فى حياء ، ثم قالت فى هدوء : أنا أنتظرك من أول الليل يا أبتاه ، فلم تأخرت هذا الأمد الطويل ؟

فنظر إليها أوس نظرة حانية ، وقال : إنها تكاليف السيادة يا زهراء .. لابد أن أطعم الناس ، وأفصل فى الخصومات ، وأشير بالرأى ، فأجمع حولى الملأ من الأعمام والإخوان .

فرمقته الفتاة فى حزم ، وصاحت فى جرأة ثابتة : ليست هذه أبواب السيادة يا أبتاه !! هناك باب فخم مرتفع ، لايلجه غير الأبطال .

ودهش الأب بما سمع دهشة آخذة .. فلم يعهد فتاته الحبيبة تتقدم إليه باعتراض فسكت ملياً ، ثم نظر نظرة عاتبة ، وهمس يقول : أى باب تعنين يا زهراء ؟

فبرقت عينها الساحرة بوميض نفاذ ، وقالت فى حرارة صادقة : أبتاه .. أنت تعلم ما بين عبس وذبيان من حرب أكلت الأخضر واليابس ، وحصدت الجسوم والأرواح ، وما زالت من أربعين عاماً متقدة اللهيب ، مندلعة الأوار ، ولن يطفئ سعيرها المشتعل فى العرب سواك ؟!

فشخص إليها أوس متعجباً ، وسأل فى حيرة : نحن من طيئ ، فما لنا وغطفان ، ولماذا نتدخل فى شئون عبس وذبيان !!

فصاحت الزهراء منفعلة : أنت يا أبتاه سيد العرب جميعاً ، كما وصفك النعمان ، ولك الصوت المسموع بين القبائل ، والصيت الممتد فى البطون والأفخاذ .. فلماذا لا تشير بالصلح بين القوم فترجع بمجد الدنيا وعزة الأجيال !

فتحير أوس ، وكأنه لم يدر بما يجيب ، ثم أسلم نفسه إلى التفكير لحظات ، حتى إذا اهتدى إلى بعض الرأى قال — وفتاته شاخصة إليه ترمق وجهه الجاد — : بنيتى العزيزة ، أنا كما تعلمين صهر بنى عبس ، وقلبى يميل إليهم دون بنى عمومتهم من ذبيان ، ولئن سعيت فى هذا الأمر الشائك ، ليقولن الناس أن أوساً لا يبغى خير الجميع ، ولكنه يميل مع عبس على ذبيان !

فقاطعته الزهراء تقول : أنا أعرف أن لك مكانة عالية فى ذبيان .. وأن أصدقاءك منهم ينهضون إلى زيارتك بين الحين والحين ، ويمكثون لدينا أياماً بعد أيام ، فلماذا لا يجتمع لديك الأصهار والأصدقاء على كلمة سواء ؟

فحرك أوس رأسه كالمتردد ، وقال فى همس ، وكأنه يحادث نفسه : ذلك مأرب عسير المنال .

فصاحت الزهراء كالمحتدة : أى عسير يقف فى وجهك يا أبتاه ، سر إلى المجد من طريقه الفسيح ، فقد اتسعت أمامك الأبواب .

فأدرك الأب أن الحديث سيمتد دون روية وتفكير ، فربت على كتف الزهراء وابتسم فى هدوء ودعة ، ثم قال فى عطف حنون : سأنهض بما تريدين يافتاتى .. فهلمى إلى مخدعك الآمن ، وسترين منى عن قريب ما تودين من السعى فى نشر الأمن وبعث السلام !

فأكبت الفتاة على يديه مقبلة .. ثم نهضت إلى خيمتها الملاصقة ، وتركت أباها وحده فى خضم ثائر من الأفكار ، فلم يذق النوم لحظة واحدة حتى أسلمه الليل إلى الصباح ، ولا يزال فى سبحاته التائهة دون أن يرسو سفينة على شاطئ أمين .

أشرقت الشمس .. ونهض أوس ، فاجتمع بالملأ من طيئ ، وقدم لهم صحاف التمر وأكواب اللبن ، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً . ثم تفرق كل طائى إلى سبيله ، وهم الرجل بالنهوض من حيث اعتاد ، ولكن خادمه يستأذن عليه ، ويقول فى أدب : بالباب سيد ذبيان .

فيسأل أوس متعجباً : أتعنى الحارث بن عوف ؟

فيقول الخادم : ومن يكون سواه ؟

فيخف أوس إليه مرحباً .. ويتصافح الرجلان فى مودة ، ثم يجلسان فى وقار واتزان . وأخذ أوس يفكر متئداً رزيناً فيما قدم من أجله الحارث ، فتمنى أن يكون مسعاه إليه ليتعاونا معاً على حسم الخلاف بين القبيلتين ، فيحقق بذلك أمنية الزهراء .. وجعل يقول فى نفسه : هذا سيد ذبيان ، وصاحب أمرها المطاع ، وإنى لذو كلمة مسموعة فى عبس .. ولئن وفقنى الله وإياه إلى أمرنا فنحسم الحرب لتكونن عزة الأبد ، ومفخرة الحياة .. وقد توقع أوس أن يبدأ الحارث بالقول فى هذا المجال ، ولكنه فاجأه بقوله دون تمهيد : لقد جئتك خاطباً ابنتك الزهراء يا أوس !

ففغر أوس فاه دهشاً !! ونظر إليه كمن أنكر ما سمع من الأنباء ، ففطن

الحارث إلى شعور صاحبه وأسرع يقول فى احتشام : أغضبت من أمرى معك يا أوس فتبدل بك الحال ؟

فملك أوس هدوءه قليلا ثم قال : لم أغضب من أمرك يا حارث .. ولكنك فاجأتنى بما ليس فى الحسبان !

فأطرق الحارث ملياً ، ثم قال : وهل فاجأتك بأمر شاذ يستنكره الملأ ، أو واجهتك برغبة محمودة ، تقوى الأواصر ، وتدنى الوداد ؟!

فسكت أوس كمن يتأمل ، ثم رفع رأسه إلى صاحبه ، وجعل يقول : علم الله أنى أعرف مكانتك فى العرب ، وجاهك الأصيل فى ذبيان ، ولكن الزهراء بعيدة المطامع ، واسعة الآمال .

فابتسم الحارث وقال : لدى جميع ما يرضى مطامعها البعيدة .. فلها أن تختار ما تشاء !

فهز أوس رأسه قليلا ، ثم قال : أتدرى يا حارث أنها اشترطت على من يأتى لخطبتها أن يقوم بالصلح الدائم بين عبس وذبيان ؟

فرفع الحارث رأسه ، وقال فى حيرة : ما للزهراء والصلح بين عبس وذبيان؟ متى كانت أمور الحرب من خواص الفتيات والسيدات ؟!

فأشرق وجه أوس كالمتفائل ، وقال فى حنان : إن الزهراء يا حارث من معدن خاص ، وهى تريد أن تكون زوجة لسيد العرب وأمير الناس ، ولن تكون السيادة فى رأيها بغير حسم الخلاف ، ورأب الصدع ، ونشر السلام !

فسأل الحارث فى تخابث :

بربك يا أوس .. أهذا رأيك الخاص أم رأى الزهراء ؟

فقال أوس : أقسم لك يا حارث بكل عزيز وغال ، أن الزهراء كانت معى طيلة الليلة الماضية ، تتحدث فى الحرب بين عبس وذبيان ، وتسألنى أن أجمع الشمل ، وأضمد الجراح ، ثم لم تنصرف إلى مخدعها حتى وعدتها وعد الصريح الصادق أن أقوم بنشر السلام ، وكأن الله قد هون الأمر .. فجاءنى فى الصباح سيد ذبيان .

فسطع البشر فى وجه الحارث ، وصاح : إن الزهراء فيما يبدو من الرأى عاقلة حازمة ذات همة وثابة وطموح مشرئب ، وإنى لأرجو أن تنجب لى خير الأبناء ، وأشجع الولدان .. وهأنذا أعاهدك أن أبذل ما لدى من مال وعتاد وجاه فى السعى الحريص بين الفريقين لأكون سيد العرب كما تود الزهراء ..

فصاح أوس فى فرحة ظافرة : وقد قبلت خطبتك ، وسأعلنها للناس .

فتراجع الحارث يقول : أفلا تنتظر يا أوس حتى أسير إلى بنى قومى فى ذبيان ، فأحقق السلام المنشود كما ترغب الزهراء ؟!

فتدارك أوس يقول : وعد الحر دين يا حارث .. وقد وثقت بقولك الصادق مطمئناً إلى شرفك ومروءتك ، وإنك صهرى من الآن ، وستسير معك زوجتك من طيئ إلى نجد حيث تحل فى ذوى دملك من ذبيان ، بعد أن نفرغ من ولائم العرس ودعوة الشيوخ ، فى أمد قريب لا يتجاوز الأسبوع إن تيسر الحال .

سار العروسان عن مضارب طيئ إلى منازل غطفان ، وقد سعد الحارث بما لمسه فى زوجته الأبية من همة عالية ، ونخوة شماء يقل نظيرها فى الرجال .. وكانت تبادله الرأى فى أفانين الأمور ، فتسفر عن بديهة صائبة ، وبصر نفاذ . وكان الحديث لا ينقطع عن الصلح المرتقب بين عبس وذبيان ، فجعلت تذلل العقبات ، وتسهل على الحارث ما يعترضه فى طريق السلام ، نافثة فيه من روحها المتوثبة ، وحميتها المتقدة ، ما شغل خاطره ، وملأ أقطار تفكيره ، فكان يخلو إلى نفسه ، فيقول فى تساؤل : ومن لى بالمال الكثير الذى يكفى ديات القتلى من الفريقين ، وقد دامت الحرب أربعين عاماً وهى لا تذر من شىء أتت عليه .. ثم يلتفت بتفكيره التفاتة أخرى ، فيتخيل أنه رزق المال الوافر ، فتحمل ديات القتلى بين الخصمين المتنازعين ، وسار له فى القبائل ذكر رنان .. إذ هتفت العقائل فى الخدور بمآثره ، وترنم الشعراء فى الأندية بأياديه ، وتناقل الشباب فى مطارح سمرهم آيات نبله ، وروائع أريحيته .. وإذ ذاك يصبح سيد العرب عن جدارة واستحقاق !

مهما يكن من شىء ، فقد فكر الحارث وقدر حتى هداه عقله إلى صديقه الماجد الثرى هرم بن سنان ، فعرض عليه أن يشترك معه فى تحمل الديات وبذل

المال ، فيسير لهما الذكر المحمود فى القبائل ، ويتناقل الناس خارقتهما النادرة كما يتناقلون أعذب الأساطير وأجمل الأحلام ، وكان فى هرم همة وشهامة ، ولديه مال وجاه ، فأجاب دعوة صديقه عن رغبة صادقة ، وشوق طماح .. ثم أصغى إلى هواتف نفسه ، وكوامن هواجسه ، فرأى المجد ينتظره عن قريب ، فهو يفتح ذراعيه أبد الدهر لكل أريحى مسماح !!

وكان الفريقان من ذبيان وعبس قد سئموا أهوال النزال ، وأكلتهم السنون بكوارثها المبيدة وقحطها الجديب ، وانتزاعها زهرات شبابهم الناضرة دون إمهال .. فما أن سمعوا داعى الصلح حتى أجابوه فى لهفة وحنين ، وقدرت الديات .. فكانت ثلاثة آلاف بعير تقدم على ثلاثة أقساط ، فتكفل بها السيدان الماجدان عن نفس راضية ، وقلب جذلان .. ودقت الطبول مؤذنة بانتهاء الحرب ، فعلت الزغاريد ، وهتفت البشائر ، وتوافد العرب على مجلسى الحارث وهرم يهنئونهما تهنئة المعجب الشكور .

وأطلت الزهراء من خدرها الممنع فرأت زوجها الحارث يجلس فى معشره مرتفع الهامة ، بسام الثغر ، مشرق الجبين ، وطوائف البدو تمر بين يديه مصافحة وعن يمينه صديقه هرم يتلقى وإياه تهنئات النصر فى بهجة شاملة وفرح صخاب ، ثم وقف الشاعر زهير بن أبى سلمى فألقى معلقته الرنانة ، واتجه بالحديث إلى السيدين الكريمين فقال :

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها عن عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

وما كاد يفرغ من إنشاده ، حتى تناول شعره الرواة وهتفت به الشفاه ، فتردد فى كل مكان ، وسارت به الركبان !

وانتقل الحارث تياهاً فخوراً إلى بيته ، فقابلته الزهراء بابتسامة خالبة ، فأخذها بين ذراعيه ، وسمعها تهمس فى رقة خلوب : « هنيئاً لك يا صاحب المجد العظيم !! » .

فرد الحارث فى لطف رقيق : « بل هنيئاً لى بك يا ملهمة المجد ، وباعثة الأمل ، وعاشقة السلام ! » .

أذان فى غير موعد

جلس المعتضد بالله الخليفة العباسى يتحدث مع رجال دولته بعد أن فرغ من صلاة العشاء ، ونظر فى ما ورد إليه من الرسائل ، وناقش ما رآه موضعاً للنقاش فيما جد من أحداث اليوم المنصرم ، ولكنه كان متجهم الأسارير ، لا يدل مرآه على هدوء نفسى ، بل يشى بطوارق هم تأخذ عليه أقطار نفسه ، وكان وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب يعرف ما يعتمل فى نفسه من الشجون ، فاتجه إليه يقول بمشهد من الحاضرين فى رفق : يا أمير المؤمنين ، إن كل دولة من الدول بالغة ما بلغت من الانتظام والجد ، لابد أن تتعرض إلى مشكلات تتطلب الحل ، وفى حزم أمير المؤمنين وعزمه ما يجبر الصدع ويرتق الفتق ، وكم برزت أمثال هذه المشكلات فى عهود المنصور والرشيد والمأمون ، فلم تلبث أن تزول .

قال المعتضد : إن ما أقابله من المعضلات يفوق ما تتحدث عنه ، وليس لدينا من العتاد والجند والمال ما كان لدى المنصور والرشيد والمأمون ، بل ليس لدينا من الرجال من رزقوا الحزم الصارم والكفاح الجاد .

تغيرت وجوه القوم حين لمسوا تعريضاً من الخليفة بعدم كفاءتهم الإدارية ، وحنكتهم السياسية ، وأدرك الخليفة أنه أحرجهم بما قال ، فأراد أن ينتقل إلى صميم المشكلات ، فقال :

فى كل يوم نلاقى خارجياً وقحاً ، يجمع الجموع ، ويقود الناس إلى العصيان ولا ينحصر الأمر فى مكان واحد ، بل يتعداه إلى شتى ربوع الخلافة ، ولئن اجتمع هؤلاء على رأى فماذا يصنع الخليفة ببغداد ؟ لقد ثارت الكوفة بقيادة اللعين حمدان بن قرمط ، وأيده فى البحرين أبو سعيد الجنابىّ ، وبهما انتشر أمر القرامطة واستفحل ، وثار نصر السامانى فى بلاد ما وراء النهر ، واحتشدت خلفه الجموع وأعلن الاستقلال ، كما برز ابن حوشب فى بلاد اليمن يدعو إلى الفاطميين فى المغرب ، وقد علمت أنهم يعدون العدة لاقتحام مصر ، والاستيلاء عليها ،

أما عمرو بن الليث الصفار فقد استولى على أكثر بلاد فارس وأصبح صاحب الأمر فيها ، فماذا بعد هذا كله ؟ كان أبو جعفر يجد من رجاله من يقود الجيش لهزيمة المناوئين ، بل كان يتقدم الجيش بنفسه فى مواقع كثيرة ، وأنا أنظر فإذا الأتراك يملكون أمر الجيش ، ولا يهمهم غير السلب والنهب ، ولكل فريق منهم أنصار لا يلتفون إلى غير منافسيهم من بنى جنسهم ، أما حماية الدولة خارج بغداد فما لا يفد إليهم على بال ! وقد دعوتهم إلى الجهاد فأظهروا الاستعداد ، وسرعان ما قابلنى قادتهم معتذرين بأن خصومهم متربصون بهم ، إذ أن بأسهم بينهم شديد شديد ، ولن يتركوا بغداد إلا إذا نفروا جميعاً ، فوافقت على ذلك ، فأظهروا الخلاف فى أمر القائد العام من يكون ؟ وكل يرى نفسه الأجدر الأحق ، أفيرجى النصر على يد هؤلاء ! إن ثورة الزنج بالبصرة قد أكلت الأخضر واليابس بها ، ولكنها وجدت جيشاً متحد الرأى ، استطاع أن ينقذ الناس من شرها ، فأين أجد هذا الجيش !

ثم اعتدل فى مجلسه ، واتجه بالحديث إلى وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب ليقول له فى جد حاسم :

أنت تعلم يا عبيد الله أنى قمت بالإصلاح الداخلى ، فحاربت الملاحدة والزنادقة ، وحرمت تداول كتبهم ، ومنعت المنجمين أن يجلسوا فى الطرقات ليخدعوا الناس بما يزورون ، وعلوت المنبر للخطابة ، وتقدمت إلى المحراب للصلاة لأعيد سنة الخلفاء الراشدين ، وعدلت نظام المواريث ليسير وفق ما شرع الله وسن الرسول ! كل ذلك قد قمت به لأن أمر الإصلاح الداخلى فى يدى ، أما أمر الأتراك وهم قادة الجيش فلم أقدر عليه بعد ! ولكنى أناضل .

وهنا سمع الأذان يجلجل فوق المئذنة ، فاضطرب الخليفة ، ودهش المجتمعون لأن ساعة الفجر لم تحن بعد ، فلم يمض بعد صلاة العشاء إلا وقت يسير ، لا يسمح بارتفاع الأذان قبل موعده ! هل جن المؤذن ؟

ولم ينتظر المعتضد ، بل استدعى من يأمره بإحضار المؤذن على وجه الاستعجال دون انتظار .

لم يكن المؤذن هو المؤذن الرسمى ، ولكنه إمام المسجد نفسه ، وهو رجل

ذو مكانة عالية فى بغداد ، وداعية مسموع المشورة ، والناس جميعاً يتحدثون بشجاعته الجريئة فى مواجهة الطغيان ، وما كان لمثله أن يزعج الناس بأذان فى غير موعده ، وقد أدرك المعتضد أن وراء الأذان أمراً خطيراً سيقف عليه ، فقال للشيخ الإمام (حين حضر إليه سريعاً) : لابد من حدث خطير يا شيخ !

قال الإمام : وأى حدث أشنع من هتك الأعراض ، واغتصاب المسلمات على أيدى الفجرة من الأتراك .

قال المعتضد فى اهتمام : الفجرة من الأتراك ! ما شأن هؤلاء ؟

فقال الإمام : قبل أن تسمع القصة أرسل حراسك لمنزل (بكباك) القائد التركى فوراً ليغيث مسكينة خطفها ساعة الأذان رغم أنفها ، ومع صراخها الهائج ! ! أرسل حراسك الآن يا مولاى ، فالأمر فضيحة لا يجب أن نسكت عليها حتى يتم المحظور .

ولما كان المعتضد يقدر فى الإمام شجاعته ، ويعرف صدقه وإخلاصه ، فقد بادر بإرسال كوكبة من الحرس لتقتحم منزل (باكباك) وتحضره مع الضحية دون إبطاء .

ورأى الخليفة أن الشيخ الإمام لا يزال واقفاً ينتظر الأمر بالجلوس ، فأشار عليه أن يجلس إلى جواره ، ثم التفت إلى جلسائه ، موجهاً الخطاب إلى وزيره عبيد الله بن سليمان :

كنا يا سليمان ، فى حديث الجيش التركى ، ومدى قدرته على النضال ؟ أسمعت الآن فى أى ميدان يحارب هؤلاء !

قال سليمان : إنها الفرصة السانحة لتأديب الفجرة ، وما عليك إلا أن تعلن هذه الحادثة ، ومعها عقابها الصارم ، لتنكشف الأمور فى بغداد .

فاستأذن الشيخ الإمام كى يتكلم . فقال له الخليفة : أفصح عما تريد .

قال الإمام : نحن الآن فى ليلة الجمعة ، أفيأذن لى أمير المؤمنين أن أجعل موضوع الخطبة فى الغد هذا الاعتداء الفاجر ؟ وسأنتظر ما يصنع أمير المؤمنين عند وصول هذا الوغد لأكمل القصة بدءاً وانتهاء .

فرد عبيد الله بن سليمان يقول : أما تخاف على نفسك أن يتعقبك الأتراك ؟

فصاح الإمام : الخوف ! الخوف ! الخوف هو الذى جعلنا نرى الباطل ، ونسكت عنه ، والساكت عن الحق شيطان ! على أنى لست وحدى .

قال المعتضد : ومن معك ؟

فصاح الإمام فى انفعال : من معى ؟ معى الفقهاء والعلماء والمحدثون وأئمة المساجد فى بغداد ، ولدى كل منهم ما يهول ويفزع من أنباء هذه الشرذمة التى تسيطر على الناس !

صاح المعتضد : كأن هناك أنباء من هذا الطراز ؟

فقال الإمام : لدى كل عالم من الزملاء ما يكفى لتأليف كتاب ؟

فقلب المعتضد كفاً على كف ، ونظر إلى من حوله متأففاً ، وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ! أتحدث هذه النوائب ، ولا أجد منكم من يقوم بتبليغى عنها ! حتى يحضر الشيخ عن طريق الأذان ! كنت أسأل نفسى : لماذا قامت الثورات فى الكوفة والبحرين واليمن وفارس وما وراء النهر على الخلافة العباسية ! والآن علمت أن هذه البلاد النائية تعرف مخازى بغداد ، وفظائع الأتراك ، ويجهلها أمير المؤمنين !

ثم دخل الحاجب يعلن قدوم المرأة المختطفة وبكباك ، فأمر أمير المؤمنين بإدخال المرأة أولا ، وسرعان ما قدمت وهى لا تكاد تتماسك من الذعر ، وقد سقطت مرتين على الأرض ، وكان منظراً فاجعاً ما رآه الحاضرون ، حين كشفت عن جسمها ، وظهرت آثار السياط ! وبعد برهة تمالكت نفسها وقالت بألفاظ متقطعة : رفضت يا أمير المؤمنين ، فأخذ السوط يلهب جسدى لأستسلم ، وكنت أحس أن الشيخ الإمام لن يتركنى ، فكنت أتشجع ، حتى سمعت أصوات الحرس فعلمت أن نصر الله قريب !

قال المعتضد : اهدئى يا بنيتى ، وسيعوضك الله أحسن الجزاء على يدى ، ثم أشار بانتقالها إلى حجرة مجاورة مع الشيخ الإمام ، فنهضا مذعنين ، وصفق أمير المؤمنين طالباً (بكباك) .

دخل الرجل متجهماً عابساً ، فسأله المعتضد غاضباً : ماذا صنعت يا وغد ؟

فقال فى استسلام : لقد جاءت إلى منزلى دون أن أعترضها ، وحين رأت الحراس خافت على نفسها وادعت أنى خطفتها ، وهى دعوى كاذبة لا شاهد عليها .

قال أمير المؤمنين موجهاً الحديث إلى وزيره عبيد الله بن سليمان : ناقشه أيها الوزير .

فقال سليمان فى هدوء : ألم تأخذها عنوة من الطريق ؟

فصاح فى إصرار : كلا ، كلا ، فهى التى حضرت باختيارها .

فرد سليمان : ألم تفر منك إلى المسجد الكبير ببغداد ؟

فعاجل يقول : هى كاذبة !

— ألم تتناقش مع الشيخ الإمام ، وقد حاول حمايتها ، فهددته بالسوط ، وحملت الأخيذة معك كرهاً واغتصاباً .

— لم يحدث ذلك ، وما رأيت الشيخ الإمام منذ زمن !

— وإذا جاء الإمام ، وأظهر كذبك الأفاك .

— هو الآن لا يعلم شيئاً ، وأخشى أن يذهب إليه من يوحى له بأن يقول غير الحق ، ليتفق مع المرأة فى دعوى الزور .

— هو الآن لا يعلم شيئاً .

— نعم ، وأخشى أن يوحى إليه بما يبدل الواقع ، طمعاً فى رضى الناس .

وهنا صفق المعتضد ، وأمر باستدعاء المرأة وحدها ، فأمرها أن تكشف عن مواضع السياط ، ثم قال لبكباك :

— بم تعلل هذه الجروح التى لا تزال تنزف بالدماء ؟

— لا أعلم ، ولعل أحد الحراس قد ضربها بسوطه فى الطريق .

— ألم تكن معها وهى قادمة ؟

— كنت أفكر فى نفسى ، ولم ألتفت إلى ما يدور حولى .

وصفق المعتضد ثانية ، وأمر باستدعاء الشيخ الإمام ، فذعر بكباك ، وصاح منفعلا : أهو موجود الآن ؟

قال المعتضد : ومن قبل أن تجىء ، لأنه أذن الفجر قبل موعده ، فعملت على إحضاره لأعلم ما يريد ، فهل تنكر دخولك المسجد ، وتهجمك عليه حين أراد إنقاذ من استجارت ببيت الله !

ودخل الشيخ ، فحدج بكباك بنظرة ملتهبة ، ثم قال : أخزاك الله ! كما أردت أن تخزى المحصنات الآمنات .

ولم يجد بكباك بداً من الاعتراف ، فأقر بما كان ، وأمر المتعضد بتأليف لجنة قضائية عاجلة لمحاكمته ، فى صباح الغد .

فصاح الإمام : النص صريح ، هذا ممن يحاربون الله ويسعون فى الأرض فساداً : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(١) .

قال عبيد الله : هذا ليس لك أيها الشيخ ، إنما هو لقاضى المسلمين ! وستعقد المحاكمة فى الصباح ، قبل صلاة الجمعة ، وسيأتيك الحكم لتعلنه على الناس فى خطبة الأسبوع كما قلت من قبل !

قال الشيخ : هو كما تريد ، ولكنى أستسمح أمير المؤمنين فى رجاء .

فرفع المعتضد رأسه ، مصوباً نظره إلى الشيخ ، وسأل : هل بقى لديك شىء ؟

قال الإمام : إن حالة المرأة من الفزع ، وقسوة السياط ، مما لا يطاق ، وأرى أن يتفضل أمير المؤمنين فيشملها بعطفه الكريم ، فهى مسلمة شريفة ، وقد قاومت فى سبيل طهارتها مقاومة الأبطال ، وجود الخليفة غامر وسيع .

قال الخليفة : أحسنت يا شيخ ، فقد تحدثت عما كان يجول بخاطرى ، وما كان لى أن أتركها دون ثواب ، ولكن لدى أنا رجاء خاص بك أيها الشيخ :

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣٣

قال الإمام : رجاء ! أستغفر الله ، بل أمر يا مولاى .

فرد المعتضد فى ابتسام : عليك أن تراقب هؤلاء الأوغاد ، وإذا بدا لك ما تنكر ، فسارع بالوصول إلى ، فإذا كان الوقت ليلا ، والمسألة عاجلة فاصعد إلى المئذنة ، وادعنى إليك عن طريق الأذان !

فبدا الارتياح على الوجوه ، ونهض المعتضد ، فنهض سماره من خلفه ، إذ علموا انتهاء الاجتماع ، وخرجوا مع الشيخ الإمام فرحين بما تم من نصر المظلوم وعقاب الظالم ، ومهنئين الشيخ على أذانه الحاسم ، وابتكاره السديد .

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

الجاسوس المتسول

مرض وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، مرضه الأخير ، فسعى الأمراء وكبار رجال الدولة إلى عيادته ، وسارع الأطباء بملازمته ، ولكن الأيام تمضى دون برء ، بل يزيد مضيها ألمه ، فيشتد المرض ، ويضعف الرجاء ، وقد غمضت عيناه ذات عشاء غمضة يسيرة ، فظن طبيباه أنه نام ، ووسوس أحدهما إلى صاحبه بأن الوزير ميئوس منه ، ولن يعيش : أكثر من يوم أو يومين ، ففتح عبيد الله عينه ، وقال : هذا ما أعتقده ، وكان عليكما أن تصارحانى لا أن تكتما على .

دهش الطبيبان ، وذهب الدم من وجهيهما خجلا وأسفاً ، ولم يستطيعا أن يجيبا على المريض إلا بعد وقت طويل ، إذ تجرأ أحدهما فقال : لا يأس من رحمة الله أيها الوزير ، وكم لاحت نذر الموت أمامنا ، وتأكدنا نزول الخطب ، ثم كانت رحمة الله أسرع وأعجل ، فذهب الداء وصح المريض ..

قال عبيد الله : لا حرج عليكما فيما قلتما ، ولكن ادعوا لى ولدى القاسم ، واتركانى معه لأوصيه !

خرج الطبيبان حائرين ، وأبلغا الولد برغبة أبيه ، فسارع إلى لقائه ، فأمره أن يبعد الحراس والخدم ، وأن يخلو به وحدهما ، فتيقن القاسم أن الأمر خطير ، وقال : جعلت فداءك يا أبى .

قال الوالد : كأس يشربها كل إنسان ، ولابد أن تدور على ، وقد دعوتك لأقول لك إن الخليفة المعتضد سيجعلك الوزير من بعدى ، لأنه يعرف أنك كنت تشركنى فى أكثر أمور الوزارة ، وسأروى لك قصة موجزة ، لتستفيد من مضمونها ، فأعرنى سمعك !

قال القاسم : أنا طوع أمرك يا أبى ، فقل ما تشاء .

فهم الوزير بالجاوس ، ولكن المرض غلبه ، فظل يتحدث نائماً بعد أن تأوه تأوهة نمت عما يكابد من تبريح الداء .

قال الوزير : كنت أعرف أن المعتضد محاط برجال السوء ممن يكرهوننى ، ويودون أن تخلص لهم الوزارة بإبعادى ، والخليفة يسمر معهم كل ليلة ، ولن أستطيع الحضور إذا لم يأمر باستدعائى فى مجالس لهوه ، وقد اشتقت أن أصطنع جاسوساً ينقل إلى ما يدور بمجلس الخليفة لأكون على حذر مما يدبر ، وظللت أحتال لذلك فما استطعت ، حتى هيأ الحظ ما أريد ، إذ عثر بعض عمالى على رجل يخرج خفية من قصر المعتضد ليلا ، وهو خائف يترقب ، فجعل يسير خلفه حتى رآه يهم بمبارحة المدينة متجهاً نحو مصر ، فأعد له من حاصره فى الطريق ، ودعا به إليه ، وحين فتش ، وجد بين طيات ثيابه رسالة كتبتها زوجة الخليفة (قطر الندى) إلى والدها (خمارويه) تشكو غربتها ولا تحمد زوجها ، بل تتألم لما تلمسه من خشونته ، والرسالة بما تحمل من سر ذات ضرر بالغ يمس الخليفة فى سمعته ، ولو وقف عليها المعتضد لأشعلت ناراً هيهات أن تطفأ ، فقلت فى نفسى : لا سبيل إلى مكاشفة المعتضد بها ، فإنه سيضيق كل الضيق حين يعلم أنى وقفت على سر من أسرار بيته ، فوق ضيقه المتأزم بكاتب الرسالة وحاملها ، وهما من المخلصين لزوجته دون نزاع .

فقلت : لابد أن أخفى الأمر عن الخليفة ، ولكن مع الاستفادة التامة بالفرصة السانحة ، فسألت حامل الرسالة : من الذى كلفك بالذهاب إلى مصر ، فدهشت حين علمت أنه (ميمون) حارس الخليفة فى مخدعه ورئيس خدم القصر ، فقلت فى هدوء : سأستر عليك ، على أن تقيم فى قصرى مع الخدم فلا تبرحه ، فبرقت عيناه حين علم أنه نجا ، وجعل يقبل الأرض أمامى شاكراً متملقاً .

وفى الصباح ذهبت إلى ديوان الوزارة ، فى الجانب الأيمن من القصر ، ودعوت ميموناً إلى لقائى ، وأعلمته بأن الرسالة قد وقعت فى يدى ، فارتجف ارتجافاً شديداً حتى كاد يسقط على الأرض .

فابتسمت ملاطفاً ، وقلت : سأجبر عثرتك بشرط واحد .

فقال ميمون عجلا : أنا رهن إشارتك يا سيدى .

فقلت : ستظل الرسالة معى طى الكتمان ، على أن تخبرنى كل يوم بمن يجالسون المعتضد ، وما يقال عنى فى مجلس الندماء ؟!

فقال ميمون دهشاً : كل يوم ، كل يوم ! ذلك أدعى إلى الافتضاح ياسيدى ، ولكن أعدك أن أخبرك بكل مايقال عنك حين يجرى الحديث بشأنك !

قلت : وهذا ما أبتغيه !

وهكذا ظل ميمون يطلعنى على ما يدبره جلساء المعتضد حولى ، فأعمل على إبطال كيدهم ، دون أن يشعر المعتضد بأنى أعلم شيئاً عما يحاك نحوى من الشر ، فيظن المكر بجلسائه ، ويصم أذنه عما يفترون !

ثم حاول المريض أن يعتدل فى نومته ، فأعياه الوجع المبرح ، ولكنه تحامل على نفسه ، وتعمد الجاوس ليشير بيده إلى صوان بالحجرة ، به رسالة (قطر الندى) إلى والدها ، مشيراً على القاسم أن يسر إلى ميمون بأن الرسالة تحت يده ، وأن الأمر سيجرى معه على نحو ما كان يجرى مع أبيه .

قال القاسم : وهل يتوقف على ذلك أمر ذو بال ؟

فصاح عبيد الله : لابد أن تكون لك عين فى القصر ، لتستعد للخطر قبل حلوله ، وميمون لن يعصيك ، وأمره فى يدك ! ما دمت تقبض على رسالة قطر الندى ، ولك بعد أن تجامله بالهدايا والألطاف .

تحقق قول الطبيبين ، وفارق عبيد الله الحياة فى غده المقبل ، وصدر الأمر بتولية القاسم مكان أبيه ، وقد رأى الوزير الجديد أن يحوز رضا المعتضد بظهوره مظهر المتقشف الزاهد ، فكان لا يشارك فى الشراب بمجلس الخليفة ، ويتعلل بشتى المعاذير كيلا يساء به الظن ، ثم كان يعتذر من سهرات الطرب فى القصر إذا دعى إليها ، محتجاً بأن أمور الدولة تشغل يومه الطويل ، فإذا حان الليل غلبه النوم بعد العشاء فما يستيقظ إلا ليؤدى صلاة الصبح ، وقد أشاع أنه لا يحفل بالطرب ومجالس الغناء وفقاً لعادة نشأ عليها فى عهد أبيه ، والمعتضد بالله يسمع ذلك منه ، فيتظاهر بالتصديق ، ويعلن له أنه معصوم من الموبقات بفضل الله ،

وأنه يتمنى أن يكون مثله ، فيقول القاسم للخليفة : ومن أنا يا أمير المؤمنين ؟ وأنت من بيت النبوة ، وابن عم رسول الله ، ليتنا نبلغ حذاءك فنبشر برضوان الله !

حسب القاسم أنه أمن جانب المعتضد بما تظاهر به من النسك ، كما أنه وضع ميموناً فى جيبه ، إذ يوقفه على كل ما يدور حوله ! لقد أصبح مجلس الخليفة مذاعاً مشتهراً بالنسبة إليه ، وتلك هدية ورثها عن أبيه ، وله بعد ذلك أن يأخذ حظه من اللهو فى منزله دون أن يعلم به أحد ! وماذا عليه إذا ابتسم فى الظلام وعبس فى النهار !

سارت الأيام على ما يحب القاسم ، فهو قائم بتكاليف منصبه خير قيام ، وهو محافظ كل المحافظة ، لا يدنو من شراب ، ولا يسمح بلهو ، فإن دعاه الخليفة أطرق برأسه إلى الأرض قائلا فى توسل : إذا أمرت فنعم ، وإذا خيرت ، فأنا وما يلائم طبعى .

على أن القاسم كان صاحب لهو وطرب فى حياته الخاصة ، فله فى منزله مجلسه الليلى الذى يحفل بما يحفل به مجلس الخليفة ، ولكنه يبالغ فى التخفى ، ويقيم على الأبواب من خاصة خاصته من ارتبط مصيرهم بمصيره ، فهو على منزلته فى الدولة أشد حرصاً ، وأعظم التزاماً ، وقد اختاروا له من المطربات والندماء أهل السر المصون ، وتواصوا بالكتمان ، ولكن كيف تملأ القنان ، وتعد الكئوس ، وتهيأ الأطايب من لذائذ المأكل والمشرب ، وتفد الجوارى ذوات الدل والنعم ثم لا يعلم خدم القصر شيئاً مما كان ، إذ لابد للعطر أن يفوح !

وفى ليلة من ليالى القاسم أعد نوعاً من الثياب الحريرية المصبغة بأزهى الألوان والمطرزة بخيوط الذهب ، لتلبسها الجوارى فيزددن فتنة على فتنة ، كما افتن فى أدوات اللهو ومائدة الطعام والشراب بما أعجز الوصف ، حتى إذا سطع نور الفجر ، أطفئت الأنوار وانفض السامر ، وكان القاسم ثقيل الرأس ، فلم يستطع النهوض إلى مجلسه بالقصر ، وأرسل يعتذر معتلا بمرض خفيف .

وجاء اليوم الثانى فنهض من الصباح إلى عمله ، وأرسل المعتضد يسأل عن وعكته بالأمس ، فنهض الوزير إلى لقائه شاكراً مبتهجاً ، ودار الحديث الملاطف

فأعلن الوزير إنه سهر الليلة قبل الماضية فى قراءة ما بقى من الرسائل ، ومراجعة ما لم يستطع مراجعته من أمور الخراج والحسبة ، حتى أذن الفجر ، ونام ، فثقل رأسه عليه وما استطاع النهوض ، ولكن المعتضد ابتسم فى دهاء وقال : لقد تعبت كثيراً يا قاسم ، وكنت أوثر ألا تجمع إلى رسائل الديوان وأمور الخراج بلايا الشراب ، وغناء الجوارى فى الحرير المذهب ، لأن الأمرين لا يتفقان فى مجلس واحد ، وكم كنت أتمنى أن أشاهد جواريك فى أجمل الثياب ، فلم بخلت على؟

فوجئ القاسم بصاعقة تنزل على رأسه ، ولكنه تماسك متجلداً ، وقال فى حيرة : إن مجلسى لا يرتفع حتى يكون مجلس أمير المؤمنين ، وإذا طلب ذلك فهذا تكرم منه على عبد يعرف مكانته الضئيلة من مقامه الأرفع ، ثم نهض فقبل يد الخليفة ، وبان الأسى فى وجهه ، واستأذن ليعود إلى منزله فى أسوأ منقلب .

خلا القاسم إلى صاحب سره ، والقائم على أمور قصره ، وهو فى حالة من الهياج بدت فى علو صوته وحدة انفعاله ، ثم قال : والله الذى لا إله إلا هو لئن لم أعلم من نقل مجلس البارحة إلى أمير المؤمنين لأنكلن بكل من حضر من كبير وصغير .

فأطرق صاحب أمره حائراً مضطرباً ، وقال فى مسكنة وذلة : الناقل مجرم واحد ، والباقون أبرياء ، فكيف نؤاخذهم جميعاً ؟

فصاح القاسم : لابد أن أعرف هذا المجرم ، وأمامك يوم واحد ، ولن يهدأ لى بال حتى أطمئن .

ذهب صاحب السر إلى مقره حزيناً كئيباً ، وجعل يفكر فيمن عسى أن يكون قد نقل السر إلى قصر أمير المؤمنين ، وهو يعلم أن الحاضرين من رجال ونساء لا صلة لهم بالقصر ، قريبة أو بعيدة ، وهم كلهم من الطاعة والإخلاص والولاء بحيث يفدون الوزير إن حاق مكروه ، وهجم الليل ، فما نعم الرجل بمرقد ، إذ لم يرد النوم على جفنه حتى مطلع الفجر ، فقام ليصلى ، ثم توجه إلى قصر الوزير مبكراً على غير عادته قبل أن تشرق الشمس ، فوجد الأبواب ما تزال مغلقة ، وأمامها رجل فى ثياب التسول المهلهلة ومعه غرارة صغيرة يجمع

فيها الفتات ، فألقى فى روعه أن للمتسول أمراً ، وأخذ نفسه بمراقبته مراقبة دقيقة فرآه قد دخل القصر عقب دخوله دون ريث ، فأولع به البوابون وجعلوا يمازحونه ويسبونه ، وهو يضحك ويتحمل ، ثم جلس فى الدهليز وتكلم ببعض المعابثات ، وسأل : هل الوزير سيركب اليوم ، قالوا : نعم الساعة يركب ، قال : وأى وقت نام البارحة ؟ قالوا : وقت كذا وكذا .

رأى قيم القصر سؤال المتسول عما لا يعنيه ، فعرف أنه جاسوس القصر ، ورأى من الحزم أن يوكل به من يتابعه على بعد ليرصد جميع أعماله ، دون أن يظهر له أنه مراقب محاصر ، ولم يشأ القيم أن يقوم بهذه المتابعة كيلا يفطن المتسول له ، فيدرك أنه تحت المراقبة ، وقام المراقب بما عهد إليه فى حذر ، فرأى المتسول يمر على الأبواب باباً باباً ليضاحك حراسها بادئاً بما لا علاقة له بالوزير ، كى يخلص إلى السؤال عن ليله ، ثم تجاوز البوابين إلى أصحاب الستور ، فأخذ معهم فى السؤال والجواب ، فلم يطق المراقب أن سأل أصحاب الستور : من هذا ؟ فقالوا : رجل فقير مسكين يدخل الدار متسولا ، فنعطف عليه بما يملأ المخلاة على كتفه ، فتابعه المراقب حتى دخل المطبخ ، فجعل يعابث الطباخين بالتندر والأفاكيه ، ثم سأل عن مأكل الوزير ، ومن كان معه من الندماء ، ومن قامت بالرقص والغناء من الجوارى .

ثم ترك الطباخين إلى حجرة الشراب ، مكرراً السؤال ، بادئاً بالتافه ليصل إلى الجليل ، فلم يزل هذا شأنه مع مجلس الكتاب فى الديوان ، والخدم والكناسين ، وهو يخلط الجد بالهزل ، ويأخذ قطع اللحم والخبز والفواكه يدسها جميعها فى المخلاة ، حتى هم بالرجوع واتجه إلى الباب الخارجى ، فتابعه مراقبه بعد خروجه فوجده يدخل منزلا حقيراً ، فانتظره ليرى ما شأنه فوجده يخرج بعد أمد قصير وقد لبس أفخر الثياب ، متوجهاً إلى دار ابن طاهر ، فدق الباب ، فخرج الخادم ليناوله المتسول ورقة مطوية ، وهنا تأكد متتبعه أنه عين للخليفة ، لأن ابن طاهر قيم القصر الخليفى ، وصاحب سر المعتضد ، فرجع بما رأى إلى قيم القصر الوزيرى .

جعل القيم ينتظر الصباح على أحر من الجمر ، فلما أشرقت الشمس ، تقدم إلى الباب الخارجى ليرى المتسول قد جاء فى ثيابه المهلهلة ، فسحبه فى غلظة إلى

الوزير القاسم ، فتلقاه عابس الوجه مكفهراً ، وقال له : لن ترى الدنيا إذا لم تصدقنى الحديث ، فبكى المتسول ثم قال : أنا فلان بن فلان الهاشمى ، وأنا عين المعتضد على أبيك من قبلك ، وعليك من بعده ، ويجرى على خمسين ديناراً كل شهر ، فأخرج من دارى بزى جميل لا ينكره جيرانى ، ثم أذهب إلى حجرة حقيرة استأجرتها ، فأخلع ثيابى ، وألبس هلاليل التسول وأحمل المخلاة لأوهم من يرانى أنى أجمع الطعام ، وألبس لحية فوق لحيتى مخالفة للونى ، كيلا يعرفنى من يرانى فى الطريق ، وأمشى زحفاً أدعى العرج إلى دارك ، فأقتفى أخبارك من جميع غلمانك ، وهم لا يعرفون مرماى ، فيتكلمون ببراءة عن كل ما كان ، ثم أرجع إلى الحجرة الحقيرة ، فأبدل ثيابى ، وألبس ما يعرفنى الناس به من كامل الزى ، وأسير إلى بيت ابن طاهر ، فأقدم له صحيفة بما كان ! وأجرى الشهرى متصل مضمون !

قال القاسم : لن تخرج من محبسى فى أسفل القصر حتى أنظر فى أمرك ، وساقه إلى مطبق فى الأرض أعد لمن يقترف ذنباً خطيراً ، وعليه سجان غليظ .

قال القيم للوزير : لم لم تنتقم منه بما يستحق فنرتاح من شره ؟

فعض القاسم على شفتيه وقال : أترى المعتضد سيسكت عن أمره ، إن ابن طاهر سيبلغه بانقطاعه فجأة ، فيدرك أنه أخبرنى عن ليلة الثياب الحريرية المذهبة ، فاستيقظت لنفسى ، وتتبعت الجاسوس حتى أهلكته ، وتلك كبرى الكبائر لديه ، لأنه من رجاله ، وهاشمى مثله !

قال القيم : وماذا سنصنع به ؟ فرد الوزير : لننتظر !!

بعد يومين اثنين بعث المعتضد إلى وزيره ، فتبادلا الحديث العام برهة من الزمن ، ثم قال له : بحياتى إلا أطلقت الهاشمى فهو يصدر عن أمرى .

فتماسك الوزير ليخفى شجونه ، ثم قال : أمرك مطاع يا سيدى ، وكنت أنزله فى قصرى أحسن منزل .

فتبسم المعتضد وقال : فى الدرك الأعلى أم الأسفل ؟

فسكت الوزير ليفاجئه المعتضد بقوله : ولى رجاء آخر !

فرفع الوزير رأسه ليقول : رجاؤك أمر يا مولاى .

فقال المعتضد : مزق الرسالة التى تحتفظ بها حين كتبتها قطر الندى إلى أبيها فقد عرفت أمرها حين أرسلت ، ومن حق قطر الندى أن تكتب لوالدها بما تشاء ولكن ليس من حقك أن تخفى شيئاً عنى !

فحار القاسم فيما يرد به ، وأطرق برأسه إلى الأرض ذاهلا ، فقال المعتضد: لم تكن أنت صاحب هذا التدبير ، إنما هو والدك عبيد الله ، وقد أطلعنى ميمون على ما كان من أمره معه ، فضحكت وأمرته أن يكتب له ببعض ملفقات ساخرة كالتى يكتبها إليك ، وأنا أقرأها قبل أن ترسل ، ولكن لا داعى لهذا العبث بعد الآن ! إن والدك هو الذى فتح الطريق لأرسل الهاشمى متسولا إلى قصرك ، وقلت : جاسوس مع جاسوس !

قال الوزير : لن ترانى بعد الآن فى غير ما يرضيك يا أمير المؤمنين ، فصفحاً وعذراً .

ثم نهض إلى منزله ليرقد فى مضجعه أسبوعاً لا يستطيع الحراك .

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

أبو المسك كافور

صلى الشريف العلوى فريضة العشاء فى مسجد أحمد بن طولون مساء عيد الأضحى ، وكان المسجد يأتلق بالأنوار ، وتفوح فيه رائحة الند ، إذ لا تزال بقية الأريج نافحة منذ الصباح حين أقيمت صلاة العيد ، ولكن جمهور المصلين لم يكن بالكثرة كما كان فى ليلة العيد ، حين ازدحم المسجد بالراكعين والساجدين ازدحاماً منقطع النظير ، وحين ضاق المسجد ليلا بزائريه ، فرشت البسط من حوله ، وأخذ الناس فى تلاوة الأذكار والأوراد منذ صلاة المغرب ، حتى أذنت العشاء فأقيمت صلاة الجماعة خارج المسجد وداخله ، وكان الذين يصلون وراء الإمام بالخارج أضعاف من أخذوا أمكنتهم بالداخل .

وقد لحظ الشريف العلوى ما كان من الفارق بين الليلة والليلة ، ثم مد بصره إلى جانب منبر المسجد فرأى الشيخ الوقور الزاهد أبا عبد الله بن جابار يجلس وحده ، ويتمتم بكلمات متصلة كأنه يقرأ سورة من سور الكتاب الكريم بينه وبين نفسه ، فلم يشأ أن يقطع عليه تلاوته ، وانتظر حتى أديت جماعة العشاء ، وتوجه إليه مهنئاً بالعيد ، فسلم أبو عبد الله فى هدوء مساكن ، كأنه كان مشغولا بشىء آخر ، فقال له الشريف العلوى : لن أتركك وحدك هكذا ساهماً ساكناً فى مساء العيد ، فلابد أن نقضى السهرة معاً ، إما فى منزلك أو منزلى ، وبيتى قريب فهيا .

قال أبو عبد الله : ومن الذى يخالف رغبة السيد الشريف ، والله لن تتم بهجة العيد إلا برؤية الأحباب من ذرية رسول الله وآل بيته الكريم ، وانطلق الرجلان يسيران فى صمت حتى إذا أخذا مكانهما فى منتدى الشريف ، وكان به من ينتظرونه من أتباع وشيعة ، أخذ الحديث يتشعب ، فقال أحد الحاضرين : لقد جرى الأستاذ أبو المسك كافور على عادته ليلة العيد ، إذ بسط من الموائد ، وقدم من الأطعمة ما يكفى جميع الساكنين بمصر لو اجتمعوا فى مكان واحد . فقال متحدث آخر : وهل يعقل أن يجتمع أهل البلد دون أن يتأخر أحد ، وأنا مثلا

لم أحضر وأعرف كثيرين من أهل الحى الذى أقطنه لم يحضروا ، ففيم هـذا الإسراف ؟ وأين يذهب هذا الركام الهائل من اللحم والخبز والفاكهة والحلوى !

قال الشريف : رويدك يا أخى ، إنى أعرف أن الخدم يدورون على المنازل بما يبقى ويخصون الفقراء بألذ ما يؤكل ، والأستاذ أبو المسك يشرف بنفسه على التوزيع ، ولا يذهب إلى مقره إلا فى الهزيع الأخير من الليل .

قال متحدث ثالث : هذا غير الهبات المالية ، فنحن جميعاً نعرف أن أبا بكر المحلى صاحب خزانة أبى المسك يقود كل ليلة عيد جملا محملا بالذهب فى صرر كثيرة لا حصر لها يعدها كافور بنفسه ثم يطوف من بعد العشاء الأخيرة حتى قبيل الفجر على المنازل ومعه صاحب الشرطة ، ونفر من خاصة الأستاذ أبى المسك ، فيطرق المنازل فى هدوء ، فإذا أتاه من طرق عليه الباب قال له : الأستاذ أبو المسك كافور يهنئك بالعيد ويقول لك : اصرف هذا فى منفعتك ، ويسلمه الصرة الذهبية ثم يمضى إلى سواه ، وهكذا حتى يؤذن الفجر ! نعرف ذلك كلنا ، فلا عجب أن يذهب بالطعام إلى منازل المحتاجين !

وكان أبو عبد الله بن جابار ، ساكتاً لا يتكلم ، فقال له الشريف : جئنا هنا لنتسامر يا أبا عبد الله ، وقد رأيتك بالمسجد مطرقاً كالعابس ، فجئنا هنا لنبدل جواً بجو ، ففيم عبوسك ، ولماذا لا تشارك فى الحديث ؟

تفرس أبو عبد الله فى وجوه الحاضرين ، وهم يعرفون مكانته من التقوى والزهد والعمل الصالح ، ثم ابتسم قائلا : لم أكن بعيداً عنكم فيما تتحدثون ، فقد كنت بالمسجد أفكر فى أمر كافور معى ومع الناس !

قال الشريف : أللأستاذ أمر معك !

قال : نعم ، فقد فاجأنى الليلة الماضية بما لم أكن أتوقع ، حيث نهضت فى منتصف الليل لأتوضأ ، فسمعت طرقاً على الباب ، ففتحت ، فإذا أمامى أبو بكر المحلى ، فسلم على ، فقلت له : ما حاجتك ؟ قال : الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام ، قلت : والى بلدنا ، قال : نعم ، قلت : حفظه الله ، الله يعلم أنى أدعو له فى الخلوات ، وأدبار الصلوات .

قال أبو بكر : قد أنفذ معى الأستاذ صرة إليك بها مائة دينار ، ويسألك قبولها لتصرف فى مئونة هذا العيد المبارك .

فتجهم وجهى ، وقلت للرجل : نحن رعية الأستاذ ، ونحيه فى الله تعالى ، وما نريد أن نفسد هذه المحبة لعلة من العلل ، وأنا غير محتاج ، والله هو المعطى ، فألح أبو بكر حتى ضايقنى ، فنهرته وانصرف ، ولم تمض ساعة حتى سمعت الطرق المتواصل ، فتقدمت لأفتح الباب ، فرأيت أبا بكر المحلى ، فسألته : ألم تكن عندنا ؟ فقال : ذهبت إلى الأستاذ فأخبرته ، فبعثنى ثانية لأقول لك : يابن جابار ، ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة ، فمن كافور ؟ من العبد الأسود ؟ أتدرى من الذى أعطاك ؟ وعلى من رددت ؟ أنت لا تفرق بين السبب والمسبب ، السبب هو أنا ، والمسبب هو الله ، أترفض عطية الله ؟

قال أبو عبد الله : فأخذتنى رعشة لعظيم ما سمعت ؟ وقبلت الصرة ، وما زلت أفكر مذهولا فى الأستاذ حين يقول إلى : من كافور ؟ من العبد الأسود ؟

قال الشريف : لو كنت يا أبا عبد الله تحضر مجلس كافور ، أو تسير فى ركبه ما استغربت ذلك منه ! لقد كان يسير فى طريق من طرق المدينة راكباً فرسه المطهم ، وحوله حراسه وجنوده ، ومن خلفه عماله وذوو المكانة من مستشاريه ، فترجل عن فرسه ، ووقف على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء ، ثم سجد سجدة الشاكر لله ، حتى إذا فرغ من سجدته ، التفت إلينا وقال فى صوت مرتفع سمعه كل من معه : لقد تذكرت شيئاً حصل لى حين قدمت هذه البلاد ! لقد كنت عبداً لطباخ يقيم فى هذا المكان ، وكان يضربنى ضرباً مبرحاً ، ويجيعنى إجاعة قاتلة ، رغم ما أبذل فى عملى من مشاق ، وقد ضربنى ذات صباح فى هذا المكان الذى سجدت به شكراً لله ، ضربنى بمغرفة ساخنة كانت فى يده ، ضربة شديدة لم احتمل قسوتها المفرطة ، ووقعت على الأرض مغشياً على فى هذا المكان والآن وقد مررت به فى هذا الموكب تراءت لعينى صورتى وأنا مغشى علىّ ، فحق لى أن أسجد !

قال الشريف : إن الذى يقص هذه القصة ، إنسان عظيم النفس ، يعرف أن

قيمة الرجل بأعماله لا بلونه ، فلا يتنكر لماضيه ؟ وهذا ما جهله المتنبي حين عير الأستاذ بلونه ومظهره الجسمى ، فلم يكن لهجائه صدى لدى الفاقهين .

وكان سيبويه المصرى يجلس مع القوم محدقاً بعينه دون أن ينطق ، فلما جاء ذكر المتنبي صاح على عادته : رويدك أيها الشريف ! من المتنبي حتى يكون له الحكم على كافور ؟

إن الغافلين يقرءون هجاء المتنبي لكافور فيفرحون ، ويعدونه ذا ألمعية بارعة ولكنهم ينسون أن المتنبي جاء إلى مصر هارباً من سيف الدولة ، فوجد الأمن والرفاهية ، ولاقى من إنعام كافور أضعاف ما كان يلقاه من سيف الدولة ، فقد أفردت له القصور ، وخص بالخدم والعبيد ، وجرى بيده الذهب والفضة ، وهذا منتهى ما يأمل شاعر متزن من ممدوحه ، ولكن الشاعر المغرور لم يرد الذهب والفضة والخدم والقصر ، إنه أراد أن يكون أميراً على دولة كبرى يمنحها له كافور ، أليس هو القائل :

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا

وهو القائل :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أنا له فإنى أغنى منذ حين وتشرب

فهو يريد أن ينازع كافوراً كأسه التى يشرب منها ، وكافور حاكم عاقل ، يعرف أن يضع كل إنسان موضعه المناسب ، لأن للولاية رجالها ، وللأدب رجاله وهبه جعل المتنبي حاكماً على اليمن ، أفيستطيع مثله أن يضبط الأمور ، ويمنع الثورات ، وهو رجل صناعته الكلام ، فكما لا يستطيع كافور أن ينظم قصيدة لا يستطيع المتنبي أن يحكم دولة ، ولو أعطاه كافور ما تمناه لما كان الرجل الحازم الذى عرفناه ، ثم من الذى يصدق الأهاجى ممن أكثر المدائح من قبل ! إن صدق فى الثانية فقد كذب فى الأولى ، ومن اعتاد الكذب محال أن ينطق بالصدق الصريح .

قال الشريف : أحسنت فيما ذكرت يا سيبويه ، وأنا أعرف مناقشاتك للمتنبي

ومجابهاتك إياه ، وقد أصبت موقع الصواب فى قضية كافور مع المتنبي ، ولكن غيرك لا يدرك غورك البعيد .

قال أبو عبد الله بن جايار : إن الذى يدهشنى من أمر كافور أنه دائماً يذكر الناس بأنه كان عبداً أسود ذليلا يضرب ويهان ، ولم يعبه المتنبي إلا من هذه الناحية ، فلم لا ينسى أبو المسك تاريخ حياته القديم ؟

فصاح سيبويه بعد ضحكة طويلة جذبت انتباه الحاضرين فتطلعوا إليه يستمعون قوله : يا قوم ما رأيت أزكى من أبى المسك ، إنه مثل دور الحطيئة أبدع تمثيل ففاز بما أراد .

قال الشريف العلوى : ما هذا الخلط العجيب يا سيبويه ، أكافور صاحب الأمر والنهى فى أكثر ما حولنا من الممالك يمثل دور الحطيئة أبدع تمثيل !

قال سيبويه : دونك فاسمع ...

لقد نشأ الحطيئة لقيطاً لا يعرف أباه على وجه أكيد ، وعلم أن الناس سيعيرونه بأمه وأبيه ، فبدأ بهجاء الاثنين ، ليقول لمن يحاول انتقاصه : أنا أهجو أبى وأمى وأتبرأ منهما ، فلن يضيرنى أن أعير بمن بدأت أنا بهجائهما ، إن هجاءك له من تحصيل الحاصل ولن ألتفت إليه ، وفوجئ خصوم الحطيئة بأنه قطع عليهم الطريق فسكتوا حائرين ، وكذلك كافور الداهية ، عرف أن الناس لن ينسوا أنه قدم من النوبة عبداً دميماً ، فاشتراه طباخ مهين ، وأخذ يسومه سوء العذاب ، وعلم أنهم فى مجتمعاتهم الخاصة يذكرون ذلك ، وكأنه نقيصة فادحة ، فرأى أن يسد هذا الباب ، فأخذ يردد ما كان من نشأته ليقول للقوم : ما ترونه موضع نقص أذكره أنا بنفسى شاكراً لله أن بوأنى أعظم مكان فى مصر ، فهل صنع أحراركم بعض ما صنعت !

قال الشريف العلوى : كفى ما تحدثنا به فى هذا المجال ، واسكت يا سيبويه ، فأنا أعرفك ثرثاراً لا تكف عن الكلام ، ولم يدر الشريف أنه بهذا القول فتح على نفسه باباً من اللهب المحرق ، إذ هاج سيبويه واحتد يقول : أعلم أيها الشريف أن قولى لم يصادف موضع ارتياحك ، لأنك تعتز بحسبك ونسبك ، وترى فى

أعماقك أن كافوراً دونك فى هذا المجال ، وأنا أعالنك بأن كافوراً ليس أفضل منك وحدك ! ولكنه أفضل من هارون الرشيد أعظم خلفاء بنى العباس ؟

فتدافع الحاضرون يحولون دون استطراد سيبويه ، ولكنه أقسم بالله أن يتم حديثه وإن اعترض الجميع ، وانبرى يقول : لقد تعجبتم من قولى إن كافوراً أفضل من هارون الرشيد أعظم خلفاء بنى العباس ، وأنا أذكر لكم دليلى الذى لا يقبل الرد ، إن هارون الرشيد ورث الملك عن أبيه وجده ، فلم يبذل أدنى جهد فى اقتطاف الثمرة حين أتته الخلافة عن طريق الميراث ، أما كافور فقد نشأ نشأة العبد الممتهن ، وكان قصارى شأنه أن يحترف ما يحترفه عبيد النوبة والسودان ممن تقتحمهم العيون ، ولكن عبقريته النادرة ذللت له الصعاب ، ومهدت له الأوعار ، فجالد الخصوم من السادة ، ونازل الأعداء من الأحرار ، حتى جمعهم فى قبضته ، وأخضعهم لرئاسته ، وحتى صار كما قال أبو الطيب المتنبى فى شأنه :

يدبر الملك من مصر إلى عدن ... إلى العراق فأرض الروم فالنوب
إذا أتتها الرياح النكب من بلد ... فما تهب بها إلا بترتيب
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت ... إلا ومنه لها إذن بتغريب

فما تقول فى ذلك أيها الشريف ؟

تميز الشريف من الغيظ ، ولكنه كتم مواجده كيلا يتسع الخرق على الراقع فينقل الحديث مشوهاً إلى كافور ، فابتسم على كره ، وقال ملاطفاً سيبويه : حنانك أيها النابغة ، لقد ظلمتنى وظلمت الحق حين قلت : إنى أرى أن كافوراً حرسه الله دونى ، وكيف ، وهو سيد البلاد عن كفاءة واقتدار ، ونحن جميعاً ندين له بالطاعة !

قال عبد الله بن جايار : ونحن نعرف منزلتك لديه أيها الشريف من يوم سقوط المقرعة ؟

قال سيبويه : أللمقرعة يوم حتى يكون لسقوطها أيضاً يوم ؟

فصاح عبد الله : لا تهزل يا سيبويه ، فالحادثة مشهورة متعالمة ، فقد كان الشريف العلوى حفظه الله يساير أبا المسك يوماً ، وخلفهما بغال تحمل الأمتعة

والمال ، فسقطت مقرعة أبى المسك ، ولم يرها أحد من خدامه وحاشيته ، فرأى الشريف أن يلتقطها ويسلمها لكافور ، ولكن أبا المسك استعظم ما فعل الشريف فصاح به أمام جميع الحاضرين : أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ هذه الغاية ، ما ظننت أن الزمن يبلغنى إلى أن تحمل مقرعتى إلى ، إن هذا ما لا يحتمل ، لابد أن أسير معك إلى قصرك لأودعك ، أنا وأكون فى ركبك ، فحلف الشريف ألا يفعل . فقال كافور : أما إذا أبيت فكل ما تحمل هذه البغال من متاع ومال فهو لك ، وقد قوم مقدار هذه المنحة فبلغت خمسة عشر ألف دينار .

قال الشريف : لعل سيبويه يستغفر الله مما قال .

وخاف الحاضرون أن يمتد القول إلى ما لا يليق ، فنهضوا مستأذنين ، وودعهم الشريف فى ملاطفة وابتسام .

منتديات قلعة طرابلس
ابو النور
www.tripolicastle.com

من حديث أبى حيان[1]

الجلسة الأولى

صلى أبو بكر القومسى صلاة الفجر خلف الإمام الراتب ، حتى إذا انقضت الصلاة ، وتفرق أكثر القوم رفع يده بالدعاء مبتهلا ، وفى صوته خشوع وحنين فقال : (اللهم إننا نسألك ما يسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائضُ ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، ونسألك ألا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، يا مولج الليل فى النهار .

حرام على قلب استنار بنورك أن يفكر فى غير عظمتك ، وحرام على لسان تعود ذكرك أن يذكر غيرك ، وحرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن تنظر فى أمرها لغير الله ، وحرام على من وقع فى فقه الله أن يعبد غير الله ، يا واهب الأعمار ، ويا مسبل الأستار ، ويا حافظ الأسرار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا لأنك أولى بنا منا ، وإذا خفنا منك فأبرح خوفنا برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا بأسنا منك ، فتلقه بأمل فيك ، يا أرحم الراحمين) .

ثم نهض من مكانه ، فوجد القاضى أبا سهل على بن محمد البغدادى يمسك بيده ، ويصيح به : يا أبا بكر ، أدهشتنى بابتهالك الحار ، والله لقد قرأت صحائف المبتهلين ، وأنصت إلى دعاء الخاشعين ، من ذوى اللسن والبيان ، والخشية والحرمان ، فما نقع غليلى ، كما سمعت منك الآن ! من أين حفظت هذه اللآلئ إن لم تكن أنشأتها من فيض خاطرك ، وغامر طوفانك ، إلىّ أيها الرجل ، إلى منزلى لأكتب ما سمعت وأدعو به ، فلن يخيب الله عبداً هتف صادقاً بهذه النفثات ! هيا يا رجل ، هيا !

(١) حديث أبى حيان ضافى الذيول ، لذلك جعلناه فى حلقتين .

وانطلق أبو بكر مع صاحبه ، وكان للقاضى منزلة فى بلده ، فما مر فى الطريق على إنسان أو جماعة إلا نهضوا يسألونه أن يلم بمنازلهم متفضلا ، ليسمع القرآن كالعادة عند البغداديين ، إذ كانوا يرجعون من صلاة الفجر إلى بيوتهم ليستمعوا كتاب الله من قارئ أعد لهذا الموقف ، ثم يأتى طعام الإفطار قبل أن تبزغ الشمس فيأكلون ، وإلى عملهم ينهضون .. ولكن القاضى لم يستجب إلى دعوة أحد ، حتى ذهب إلى منزله مع صديقه ، وتقدم قارئ الكتاب المبين فتلا ما تيسر من الذكر الحكيم .

ثم نظر القاضى إلى صاحبه وقال : لم تجب يا أبا بكر عن سؤالى ، من ألف هذا الابتهال ؟ وهل لديك سواه ؟

قال أبو بكر : لو فكرت أعزك الله لعرفت من ألف ! ولكنى أقول آسفاً : إن الذى ألف هذا الابتهال أكبر أديب فى عصره ، وقد أحرق جميع مؤلفاته منذ أيام ! إنه أبو حيان التوحيدى يا أبا سهل ، وهو منا قريب فى منزل كالقبر ؛ إن دخله الهواء ، فقد افتقر إلى الزاد والماء !

صاح أبو سهل ! حسرتاه على أبى حيان ، يكون بهذه الحالة من الضيق ، ثم لا أعلم شيئاً عن بلواه ، قم يا أبا سهل ، قم أنت بنفسك معى لنحضره الساعة إلى مجلسنا ، فاليوم يوم الجمعة ، وأنا مستريح فيه من مجالس القضاء ، ولكن شاء القدر أن أنظر فى قضية هذا المسكين .

ورأى أبو بكر القومسى دلائل الجد فى حديث القاضى ، وما كان يملك أن يخالف له أمراً ، فقال له : لو انتظر القاضى قريراً بمنزله ، وذهبت أنا إلى أبى حيان ! فصاح أبو سهل : لعلك تريد أن تحرمنى مثوبة أرجو أن أدخرها عند الله ! فأنا أغبر قدمى ساعياً للرجل ، عسى أن يقبل المجىء ، إذ أعرفه نكداً يظن الشر حتى لدى أصحاب الخير ، وقد ينزع حين يجدنى ، ولكنى أقترح أن تتقدم إليه فتوقظه إن كان نائماً ، وتجامله ببعض ما تحسن من الحديث ، حتى إذا اطمأن وهدأ ، ذكرت له شوقى إلى رؤيته وإلحاحى فى دعوته ، ثم إذا أبطأ معتلا ، أو تملص معتذراً ، فلا مناص من إخباره بأنى منتظر أمام الباب وسيسرع حينئذ دون إبطاء .

وكان ما أحرز أبو سهل أن يكون ، فقد تلكأ أبو حيان ، وكان فى مرأى من الفاقة والضيق ، ظهر أثره فى انحباس صوته ، وشحوب محياه ، وما زال به أبو بكر حتى أعلمه بانتظار أبى سهل من وراء الباب ، فقلب كفاً على كف ، وقال : لم يسع إلى منزلى أحد منذ أتيت بغداد ، وما كنت أطمع فى زيارة حجام أو كناس ، ثم أفاجأ بقاضى المدينة وشيخ الفقهاء ! قد تكون هذه ابتسامة وضيئة فى وجه كوجهى تعود العبوس الجاهم فلا طلاقة ولا استبشار .

وكأن القاضى كان يعلم تردد أبى حيان ويدرك مدى حيرته ، فأراد أن يؤنس وحشته ، فعانقه مشوقاً ، وسلم عليه سلام الخلّ الحميم ، وصاح به : تكون فى بغداد يا أبا حيان ولا تزورنى ، ها أنذا جئت لأصحبك ، وأسعدُ بحديثك ، فسر أبو حيان سروراً بدا على صفحة وجهه وقال : حيا الله القاضى ، أفتأذن لى أن أنشد بيتاً من الشعر !

فقال أبو سهل : وهل يحتاج أبو حيان إلى استئذان ؟ إننا نستأذنه أن يروى ، وأن يتحدث ، وأن يؤرخ ، وأن يناقش ، أنشد يا رجل ، فكلنا آذان .

نظر أبو حيان إلى صاحبه ثم قال :

أتت وحياض المـوت بينى وبينهـا وجادت بوصـل حين لا ينفع الوصل

فقال أبو بكر القومسى كمن يحتج : يقـول لك القاضى إنه لم يعلم بنزولك بغداد ! ثم يسعى إليك مرحباً ، فيسمع منك ما يدل على أن لقاءه لا يفيد .

ولكن القاضى قال لأبى بكر : ما هكذا يتجه القول يا أبا بكر ، الشعر لا يفهم بلفظه العام ، ولكن يفهم بجوه الخاص ، وأبو حيان يظن أن الوصل لا يجدى ، وسأعلمه أن الله يجعل بعد عسر يسراً ، وأن الله قد دبر هذا اللقاء ، لما نأمل أن يعقبه من الثقة والاطمئنان إن شاء الله ! ثم اتجه بالحديث إلى أبى حيان فقـال : كنت أصلى فجر اليوم ، وأتاح الله لى أن أسمع من أبى بكر دعاء حاراً ملأ شعاب نفسى ، دعاء رجوت الله أن يجزيك عليه فى آخرتك عوضاً كريماً عما فاتك فى دنياك ، ومثلك يدرى أن ذكاء المرء محسوب عليه ، محسوب عليه فى الدنيا فحسب ، ولله ميزان غير موازين الناس ، فقد يبتلى بشىء من الخوف والجوع ونقص من

الأموال والأنفس والثمرات ، لتعظم المثوبة لديه ، فى مقعد صدق عنده ، ليس لنا أن نأسف ، ولكن علينا أن نأمل !

ودنت الدار ، فدخل أبو سهل ومن خلفه صاحباه أبو بكر وأبو حيان !

كانت الشمس قد أخـذت ترسل بوارق من أشعتهـا ، فاستكثر أبو سهل أن تضىء الشمس دون أن يعد طعام الإفطار ، فأمر فتهيأ للقوم أنفس ما بالمنزل من غذاء ، وكان لا ينقطع عن التودد لأبى حيان تأثراً بما شاهده من فاقته ، وانحدار صحته إلى مستـوى يشفق منه عليه ، حتى إذا رفعت المـائدة ، وجلسوا للسمر الخالص ، قال أبو سهل :

يا أبا حيان ، لقد أجمع أهل الأدب ببغداد ، ولا أخال أدباء الحواضر العربية على غير ما يجمعون ، أجمع هؤلاء أنك الجاحظ الثانى ، وذلك فى عصر امتلأ بأفذاذ الأدباء ، كالخوارزمى والهمذانى وابن العميد وأبى إسحاق الصابى والصاحب ابن عباد ، وما تحقق هذا الإجماع إلا بمـا تركت من آثار رائعة سـارت مسير الشمس ، وقد بلغنى أنك أحرقت هذه الآثار ! فكيف اجترأت على هذا الأمر الشنيع ؟

فقال أبو بكر : وإذا كانت هذه الآثار سارت مسير الشمس ، فلابد أن كثيراً منها قد بعد عن يد أبى حيان ، ولم يصبح فى طوقه أن يقضى عليه بالحريق .

فقال أبو سهل : أعلم أن كثيراً من آثار أبى حيان أصبح ملكاً لأبناء العربيـة جميعاً ، وليس بمقدور أحد أن يسطو عليه ، والصاحب فى عظيم جاهه ، وكبير سلطانه ، قد حاول أن يطمس لألاء أبى حيان فما استطاع ، ولكنى أعلم أن كثيراً من آثار أبى حيان لم يخرج من منزله ، إذ كتمه الناس لحاجة فى نفسه ، وأسفى يعظم حين أتذكر أن النار قد أتت على هذه الذخائر ، ولابد أن نسمع من أبى حيان ما يصوّر الواقع كما كان .

قال أبو حيان : أعز الله القاضى ، أنا فوق الثمانين ، وكل شىء هالك إلا وجه الله ، فإذا هلكت آثارى فهذا هو المآل !

قال القاضى منكراً : سبحان الله يا أبا حيان ، إن العلم يبقى بعد صاحبه دهوراً خلف دهور ، حتى يأذن الله بفناء كل شىء فلم تجانب الصواب؟

فرد أبو حيان يقول : لقد فكرت كثيراً فرأيت وقد أصبحت على أعراف الحياة القادمة ، أنى سأحاسب على كل حرف كتبته ، وقد يكون فى هذه الصحائف ما يوجب المؤاخذة ، فآثرت السلامة ، والأمد قريب ، والقبر على خطوات .

فتأفف أبو سهل ، وظهر على وجهه أنه يسمع ما ينكر ، فقال فى تجهم : لو فكر كل كاتب تفكيرك هذا ما بقى بين أيدى الناس كتاب واحد ، فقل غير هذا القول يا أبا حيان .

فتدارك أبو بكر القومسى يقول : وماذا جنى أبو حيان من كتبه غير الشقاء ، لقد أججت نيران الحسد لدى الكبراء ، فأقلقوا مضجعه ، وطاردوا مراحه ومغداه ، فأخذ يفر من مكان إلى مكان ، حتى أدركه العجز ، فاستتر واستراح ، ولو شاهد الناصر المعين ، ورأى الاستقرار الهادئ ، لجاء الأمر على غير ما كان .

فنظر أبو حيان إلى صاحبيه ، وحرك شفتيه كمن يريد أن يتكلم ، فقال أبو سهل : قل ما لديك يا رجل ، وأفض فى القول ، فمثلك يقول فيفيد ، وكلنا إصغاء .

فرد أبو حيان : أما إذا طلبتم الإفاضة فإليكم بعض ما لدى .

فصاح أبو سهل : الدواة والقلم ، وصفق بيده ، فحضر كاتبه داود بن راشد فقال له : هيا سجل كل ما سيقول أبو حيان ، فإن الذاكرة تند ، والحديث يتبدد ، ومثل كلام أبى حيان مما يحرص عليه ، ولا تترك حرفاً واحداً مما يقال .

فسكت أبو حيان ملياً ثم قال : إن القاضى أعزه الله يعرف أن العلم يراد للعمل الصالح ، كما أن العمل الصالح سبيل النجاة ، وقد رأيت عملى قد قصر كثيراً عما أعلم ، فخفت أن آتى بين يدى الله يوم القيامة ويعرض ما ألفت من الكتب ذات العلم الواسع ، ثم أطالب مسئولا بين يدى الله عما قصرت فى عمل لم يبلغ مبلغ العلم ، فقلت تباً لهذه الكتب من شهود تضاف إلى أخوات لها يوم تشهد الألسنة والأيدى والأرجل بما نقول ونعمل .

قال أبو سهل : ثم ماذا يا أبا حيان ، دع هذه النقطة ، فليست موضع نقاش ، وانتقل إلى غيرها .

فقال أبو حيان : تريد يا سيدى أن أكون واقعياً لا ألف ولا أدور ، وما غاب عنى مقصدك ، ولكنى أعرض كل ما جال بذهنى حين أحرقت آثارى ، ومن بين ما جال به خوف الحساب على رءوس الأشهاد .

قال القومسى : نعم ، وقد بقيت أشياء أخرى ، فاستطرد .

قال أبو حيان : إنى جمعت هذه الكتب لطلب الحظوة بين الناس ، والتقدم على الأقران ، ورأيت من يكتب سطراً ، أو ينشد بيتاً ، يأخذ مكانه المطمئن بين الخاصة والعامة ، فطمعت أن يرتفع بى أدبى إلى حيث أنال الرزق الموفور ، والعيش الهادئ ، والإقامة المطمئنة ، فوجدت أن الحسد المحرق قد أكل الأكباد وأضرم القلوب ، وقعد لى الرؤساء من أئمة البيان كل مرصد ، ونحلونى ما لم أقل ، لأوسم بالكفر ، وأرمى بالحجارة ، وأنا برىء برىء ! .

قال أبو سهل : أعلم هذا ، وأدرى أسبابه الواقعية ، ولكن الحساد كثيرون لكل نابه ، ولم نجد بين النابهين من أحرق كتبه لأنه مرموق محسود !

فعجل أبو حيان يقول : وجد من أحرق كتبه ، للحسد أو لغيره ، فأنا أعرف طائفة من كبار القوم لم يرضوا فى نهايات حيواتهم عن آثارهم فعاجلوها بالفناء .

فرد أبو سهل : وهذه صفحة تاريخية جديدة لا أعلم عنها شيئاً ، وأشار إلى كاتبه داود صائحاً : سجل يا بنى ، فالمنهل عذب ، والماء كثير .

قال أبو حيان : إن لى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، هذا أبو عمرو بن العلاء ، كبير أهل اللغة والنحو والقراءات ، دفن كتبه فى الأرض فلم يعثر عليها أحد ، ولولا أن تلاميذه — وأظهرهم الخليل ابن أحمد — قد نشروا علمه وردّدوا أقواله ، ما سمع عنه سامع اليوم ، وهذا داود الطائى ، وكان من أعلام الزاهدين ورؤساء العلماء فقهاً وعبادة وتحرزاً ، قد طرح كتبه جميعها فى البحر ، وقال يناجيها : نعم الدليل كنت ، ولكن الوقوف عند الدليل بعد الوصول ، عناء وذهول .

قال أبو بكر : هذا كلام عميق بعيد الغور ، ولكنه بقوله هذا قد أضاع على الناس خيراً كثيراً بما رمى فى البحر من درر لوامع ، رحمه الله .

فقال أبو سهل : مهلا أبا بكر ، فالحديث لأبي حيان ، هيا يا صاحبي .

فاسترسل التوحيدى يقول : هذا يوسف بن أسباط ، حمل كتبه إلى غار فى جبل ، وطرحها فيه وسدّ بابه ، فلما عوتب ، قال : دلنا العلم فى الأول ، وكاد يضلنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه لأجل من أردناه . وهذا أبو سليمان الدارانى ، جمع كتبه فى تنور وسجرها بالنار ، ثم قال : والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك . وهذا سفيان الثورى ، مزق ألف جزء وطيرها فى الريح ، وقال : ليت يدى قطعت من هنا وهنا ولم أكتب حرفاً . وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى سيد العلماء ، قال لولده محمد : قد تركت هذه الكتب تكتسب بها خيراً ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار .

ثم أجهش أبو حيان بالبكاء ، فتأثر صاحباه ، وران صمت حزين قطعه أبو حيان بقوله : على أنى لو علمتم فى أىّ حال غلب على ما فعلته ، وعند أىّ مرض ، وعلى أىّ عسرة وفاقة لعرفتم من عذرى أضعاف ما أبديته ، واحتججتم لى بأكثر مما نشرته وطويته . فقد كلّ البصر ، وانعقد اللسان ، وجمد الخاطر ، وذهب البيان ، وإن زماناً أحوج مثلى إلى التكفف لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى ، لقد قدمت للأدباء والعلماء ما قدمت . ولم أقدر على سد جوعتى ، واضطررت إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، ثم إنى فقدت الأهل ، فلا ولد ولا زوج ، ولا صاحب ، أفأدع كتبى غير المشتهرة لقوم يتلاعبون بها بعد وفاتى ، ويدنسون عرضى بما يدسون علىّ ، ويشمتون بسهوى وغلطى ، وقد كابدت فى الحياة من هؤلاء ما لم أستطع دفعه ، فما الذى يدفع عنى بعد الممات ؟

قال أبو سهل متأثراً : يدفع عنك المخلصون من العلماء ، والفاقهون من الأدباء .

فحرك التوحيدى رأسه متحيراً وقال فى همس : يدفع عنى المخلصون من العلماء ، والفاقهون من الأدباء ؟! أين هؤلاء ؟ وقد كثرت الافتراءات علىّ فما تقدم أحدهم بدفاع ! إن أبا الحسين أحمد بن فارس العالم اللغوى المتبحر ، وذا العدد الجم من التلاميذ والأشياع ، أراد أن ينافق الصاحب بن عباد ، وأن يتقرب إلى حضرته بما يؤكد مكانته ويثبت قدمه ، فلم يجد طريقاً غير اتهامى بالكفر ، فسطر

فى بعض كتبه المشئومة قوله : (كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ، تعرض لأمور جسام من القدح فى الشريعة ، والقول بالتعطيل ، ولقد وقف سيدنا الصاحب كافى الكفاة على بعض ما كان يداخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقتله ، فهرب ، والتجأ إلى أعدائه ، ونفق عندهم بزخرفه وإفكه ، ثم عثروا منه على قبيح دخلته ، وسوء عقيدته ، وما يبطنه من الإلحاد ، ويرومه فى الإسلام من الفساد ، فطردوه ونبذوه) .

فهذا عالم جهير يظهر الورع والتقوى ، ولكنه يتهمنى بالإلحاد والكفر ليضمن رضا الصاحب عنه ، فهل قرأ سطراً واحداً فى مؤلفاتى الذائعة يشير إلى ما اتهمنى مفترياً علىّ به ، وإذا كان هذا شأن من اتصف بين القوم بالورع ، ورزق الحظوة والجاه لدى الخاصة والعامة ، فما شأن من لم يقرأ حرفاً ، وسمع ما تناقل الناس عن ابن فارس من الإفك المكذوب فصدق وآمن !!

قال أبو سهل : جزى الله ابن فارس على ما صنع ، وإخالك تعرضت له بالمذمة ذات مرة ، فحاول أن يأخذ بثأره ، إن عيبك يا أبا حيان هو أنك سلطت قلمك ولسانك على العلماء والأدباء ، فمنهم من تحاشى أن ينطق عنك بخير أو شر ، ومنهم من تحرش بك قبل أن تجرحه بمبضعك الحاد ، وكأنك لا تعرف أن من غربل الناس نخلوه !

صاح أبو حيان : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أو تصدق يا أبا سهل ما يقوله الموتورون عنى ، إنى أشهد الله لم أسلط لسانى أو قلمى على أحد ، كما أذاع عنى من يحاول أن يبغضنى إلى الملأ من الناس ، أنا لم أنتقص غير من حاول أن يقتلنى كالصاحب ، أو تعمد أن يحقرنى كأبى الفضل بن العميد ، أو من نالنى بالسوء فى مجلس فرددت عليه ، أما أصحاب القلم من ذوى الحيدة فقد حفظت لهم مكانتهم إلا ذروراً لا يسىء إلى سيرهم ، لأنه يتعلق بالنتاج الفكرى ، وهذا لا يشعل حفيظة ولا يوجب ضغينة ما ، وأعلام الفقه ورؤساء المتكلمين ، يتناقشون ويختلفون ، وقد يتباغضون إلى حد العداء ، ولا أعرف أن أحدهم قد سعى فى قطع معاش خصمه ، أو حاول أن يغتاله فألصق به فرية الكفر والإلحاد .

فرد أبو بكر القومسى يقول : الحق مع أبى حيان ، أعز الله القاضى ، فقد قرأت له كتاب الإمتاع والمؤانسة ، وهو مجالس أدبية تصور ما يسمر به فى مجلس الوزير ابن سعدان ، وأحاديث المجالس تتسع وتمتد ، وتشمل القريب والبعيد ، والصديق والعدو ، والملحد والمؤمن ، والفيلسوف والفقيه ، والشاعر والمؤرخ ، والكاتب والمصنف ، والنحوى والمحدث ، وكل من يمت إلى الوجاهة العلمية أو السياسية بسبب ، قرأت ما دوّنه التوحيدى عن هؤلاء ، فوجدت ثناء على الكثيرين ، ونقداً للقلة القليلة ، ولو كان أبو حيان ذا لسان عائب لانعكس الوضع على الأقل ، فأصبح جانب الذم فى كتاب الإمتاع أوسع من جانب المدح ، فماذا يقول مولانا أبو سهل !؟

قال القاضى : لقد فاجأتمانى بغير ما أتوقع ، فهل لأبى حيان أن يذكر بعض ما سطر من الأمداح لمن يستحق فى رأيه المديح .

قال أبو حيان : ما رأيك فى أبى إسحاق الصابى ، ليست لى به آصرة ، ولا تجمعنى به قربى ، من دين أو نسب ، ولكنى سئلت عنه ، فقلت ما أعتقد !

قال أبو سهل : ماذا قلت فى أبى إسحاق ؟

قال أبو حيان : قلت إنه أحب الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجة الوسطى ، معانيه فلسفية ، وطباعه عراقية ، وعادته محمودة ، لا يرسب ولا يثب ، ولا يلتفت وهو متوجه ، ولا يتوجه وهو ملتفت ، وقد كان يقول إنه يقتدى بابن عبد كان ولكن فنونه أكثر من فنونه ، ومأخذه أخفى ، وناظره أنفذ ، وروضه أنضر ، وسراجه أزهر ، هذا ونظمه منثوره ، ومنثوره منظومه ، إنما هو الذهب الإبريز كيفما سبك فهو واحد ، هذا مع الظرف الناصع ، والتواضع الحسن ، والخلق الدمث ، والمعرفة بالزمان ، والخبرة بالمكان ، وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، ولا نازعه إنسان !

فرد القاضى : أحسن الله إليك ، إن من أنصف الصابى على غير مودة عالقة ، أو رابطة شابكة ، لا جرم ينصف الناس جميعاً ؟ لقد قلت فى الرجل مثل ما قلته فى أستاذك ودليك أبى سليمان المنطقى ، لكن مديحك لأستاذك ليس بغريب ، فأنت منه وهو منك ، أما الغريب فإنصاف البعيد الجنيب .

فابتسم أبو بكر ، ولحظ القاضى ابتسامه ، فقال له : ماذا تريد أن تقول ؟

قال أبو بكر : إن الكلام يجر الكلام ، وأنا مولع دائماً بملاحاة أبى حيان ، لذلك أقول له بصدد حديثه عن أبى إسحاق الصابى ، إنه لا ينازعه فى مجال ولا عمل ، وهو مشرق ، والتوحيدى مغرب ، لذلك كان الإنصاف جائزاً ومعقولا !

فعاجل أبو سهل يقول : كيف تقول : إنه لا ينازعه فى مجال ، لئن ابتعد الرجلان فى محيط العمل الرسمى ، فقد تقاربا جداً فى محيط الموهبة الأدبية ، كلا الرجلين كاتب يصدر الرسائل ، ويدبج الصحف ، والناس يقرءون لهما معاً فيوازنون ويقارنون ، أهناك تلاحم وتشابك أقوى من تلاحم أديبين يتسابقان فى ميدان !

قال أبو حيان : هو ما قلت أعز الله القاضى ؟ على أنى سئلت عن جماعة من النصارى مثل ابن زرعة الفيلسوف ، وابن الخمار الطبيب ، ونظيف الرومى ، ويحيى ابن عدىّ ، وكلهم ذو فكر فلسفى ، ونظر حكمى ، فقلت ما أعتقد ، وكانت المحاسن أبرز فى رأيى من المآخذ ، فماذا بعد هذا ؟

قال أبو سهل : ما دمت قد سئلت عن الفلاسفة ، ألم تسأل عن أبى بكر القومسى صاحبك هذا ؟

قال أبو بكر : بالله خل عنك ، فقد سئل وأجاب ، ووصفنى بالحسد وحب الدنيا ، وأنا علم الله قد غفرت له كل ما قال .

فأطرق أبو حيان كمن استحيا من أبى بكر ، وقال : عفا الله عنك إذ عفوت عنى يا رجل ، ما كنت أعلم أن حديثى عنك قد اتصل بك ! اللهم غفراً .

وأراد أبو سهل أن ينتقل من هذا المأزق الذى برز فجأة على غير انتظار ، فقال : لدىّ سؤال يتلجلج فى صدرى ، لقد كنت يا أبا حيان سعيداً بمجلس الوزير ابن سعدان ، وكان يصطفيك ويجتبيك ، ولا شك أنه غمرك بنواله ، وبهرك بعطائه ، فأين ذهب ما وهب لك ، أسطا على بيتك سارق ، أو هاجمك قاطع فسلب ما ادخرت !

قال أبو حيان : كل الناس يرون صلتى بالوزير ، وحرصه على مجالستى ، فيظنون ما ظننت ، والله عليم بما كان ، فإليه وحده المشتكى !

فصاح القاضى : أفصح يا رجل ، فقد حيرتنى !

فقال التوحيدى فى لوعة مكتومة : لو كنت أخذت قليلا من نوال الوزير ، لكان لى بيت يزار ، وزىّ يتبدل ، وخادم يطيع ، وزوار يتسامرون ! إنه كان ينفحنى ما يكفى قوت اليوم والأسبوع ، وكنت أنتظر على غيظ ، وأقول فى نفسى : لعله يدخر لى ضيعة ، أو يثمر لى بستاناً ، أو يهيئ لى عملا من أعمال الديوان ، ومضت الأيام دون جدوى ، فلما أقلنى الانتظار ، وأزعجنى الترقب ، أرسلت له خطاباً كتبته بالدم لا بالمداد ، وبلغ من احتفالى بتسجيله ، واختيارى لمعانيه ، ودقتى فى ألفاظه ، أن راجعته أكثر من عشرين مرة حتى حفظته حفظاً ، ولا أزال أحفظه إلى اليوم ، ومضى الخطاب إلى دورته فما عاد علىّ بطائل ، وكأنى كنت أنفخ فى رماد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال أبو سهل : ذكرت أنك لا زلت تحفظ ما كتبت لابن سعدان ، فماذا قلت؟

فقال أبو حيان : والله لا أقدر على أن أنطق بما يخجلنى ويكشفنى حين ألحفت فبالغت ، وانحنيت حتى سففت التراب ذلا واتضاعاً ، وبليت حتى وقف الدمع وجف المعين ، على أنى أذكر رسالة مماثلة وجهتها إلى صديق الوزير ، وقلت لعله يقول عنى كلمة طيبة لديه ، وهى أهون من صاحبتها ، وإن اتفقتا فى ذل الضراعة ، ومرارة التوسل ، وبشاعة الاستجداء ، لقد قلت فى ألم وجيع :

(خلصنى أيها الرجل من التكفف ، اشترنى بالإحسان ، إلى متى الكسيرة ، اليابسة ، والبقيلة الذاوية ؟ والقميص المرقع ، إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ، قد أذلنى السفر من بلد إلى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب وباب ، ونكرنى العارف بى ، وتباعد عنى القريب منى ، والله ما يكفينى ما يصل إلىّ كل شهر ، حين أرجع بأربعين درهماً مع الوجوه المقطبة ، والأبواب المحجبة ، والنفوس الضيقة ، والأخلاق الدنيئة ، ذكر الوزير أمرى ، وكرّر على أذنه ذكرى ، فعهدى به يزرع الخير ، ويحصد الأجر ، وأنا الجار القديم ، والعبد الشاكر ، أجرنى فليس والله منك بد ، ولا عنك غنى) .

ثم احتبس اللفظ فى فم أبى حيان ، وأجهش بالبكاء .

فقال أبو سهل : صوابك يا رجل ، فأنت معنا منذ اليوم ، ولن تضيع .. إن مجلسك لمغدق مثمر ، وسنسمر جميعاً بعد العشاء ، إذ نزلت ضيفاً علىّ ، ولن تريم !

الجلسة الثانية

أدى أبو سهل صلاة العشاء مع صديقه وضيفه أبى حيان ، حتى إذا أتما دعاءهما الخاتم ، تلفت القاضى إلى صاحبه فقال : أبا حيان ، الليلة ليلة الإمتاع والمؤانسة ، وقد كان مجلس الصباح حزيناً كدراً ، بما تخلله من ذكريات أسالت الدمع ، فليكن مجلس المساء فرحاً بهيجاً بما تسوقه من نوادر وألطاف ، والدنيا لا تستقيم على حال واحد ، فبعد الغيم صفاء !

قال أبو حيان : إن غيمى لن ينقشع ، وأنا أعرف ذلك وأعتقده .

فعاجل أبو سهل يقول : سبحان الله يا رجل ، ستكون ضيفى ما امتد بى العمر ، وإذا كان منزلى يطرقه الخامل الجاهل فيعيش معى إلى ما شاء الله ، فيا لحظى السعيد إذا نعمت بجوار التوحيدى ، ومؤانسته ، وما بقيت من اللذات إلا أحاديث أبى حيان .

واستطرد القاضى يقول : سيأتى الآن صاحبنا أبو بكر القومسى ، وأبوزيد المروزى ، وابن مسكويه ، وكلهم ممن تعرف وتألف ، وسنتحدث فى أى مجال تستريح له .

فقال أبو حيان : لن أستريح إلا للحديث عن الصاحب ، فالناس يرموننى بسببه ظلماً وبغياً ، وعلم الله ما قلت ما قلت إلا بعد أن فاض الإناء وطم السيل ، واتسع الخرق على الواقع .

فضحك أبو سهل وقال : كلنا يعرف بدوات الصاحب ، ولكن أبا زيد المروزى هواه معه ، وسيحاول أن يرد عليك !

قال أبو حيان : أبو زيد يرد على فى أمر الصاحب ! كأنه لم يحضر مجلسه بالرى ، ولم يسمع منه أمامى قارض الهجاء ، ومؤلم التقريع ؟

فقال أبو سهل : سمع ما سمع ، ونسى ما سمع ، ففى النسيان شفاء ، والذكريات عذاب مرهق ، وهم موبق .

ثم دخل الخادم فاستأذن للقادمين ، ونهض أبو سهل يستقبل سماره ، فعانق المروزى وابن مسكويه ، وأبا بكر ، وقد أحاطوا جميعاً بأبى حيان مرحبين ، وصاح المروزى : هذه ليلة الليلات ، هذه ليلة أبى حيان !

فقال أبو حيان : ظننت يا أبا زيد أن اليوم كالأمس ، وأن اللسان بليل الريق ، وأن الخاطر جياش الموج كما كنت لدى ابن العميد والصاحب ، ولكن الشيخوخة قد ناءت بكلكلها ، فانعقد اللسان ، وارتعشت اليد ، وتشتت البال ، فماذا أقول ؟

فرد ابن مسكويه : كنت يا أبا حيان فى أوقات مرضك ، وقد غلبك الصداع وهاجت بك الأخلاط ، لا تدع تدفق الحديث ، ولا تترك قولا دون تعقيب ، وما أظن الشيخوخة تحول دون سبح الفكر ، وانثلاق الذهن ، وأى فكر أعنى ، إنه فكر أبى حيان .

فقال أبو بكر القومسى : ليست الليلة للفكر الدقيق ، والمعنى العميق ، لقد كان ذلك حين أراد أبو حيان المثالة والجاه عند ابن العميد والصاحب ، فأخذ يغوص ويعمق ، ويتسع ويشقق ، ويشرق ويغرب ، وما درى أن الصاحب لا يريد أن يرى فى مجلسه من يفوقه رأياً ، وأن الخير كل الخير لديه أن يكون الجلساء تلاميذ يتعلمون ، لا أساتذة يعلمون !

قال أبو حيان : لا تحرك ما كمن ، ولا تهيج ما سكن ، فلو شئت لسطرت عدة كتب فى أعاجيبه ، لأن ما ذكرته فى كتاب (مثالب الوزيرين) قطرات من سحاب .

فقال القومسى : لقد تضاءلت مثالب ابن العميد جوار ما ذكرت عن مثالب الصاحب ، فإذا لم يكن ابن العميد موغلا فى تعاليه فلماذا تركته وجنحت إلى هذا الجبار المنتقم !

فضحك أبوحيان ، وقال متجها لابن مسكويه : نسى صاحبك أن الطمع دائماً يغلب ويقهر ، لقد كان أبو الفضل بن العميد رزيناً وقوراً ، لايهم بنقيصة تؤخذ

عليه فى مجلسه ، وقد وصفته يابن مسكويه أحسن وصف حين قلت : إنه كان يعرف أسرار النفوس ، ويعلم أن الحسد كامن فى الطبائع فلم يأخذ من أسباب الزينة وأبهة الوزارة إلا بمقدار ما يحفظ مكانه ، ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس ، وهو جد عارف بمسائل الحكمة والفقه والمحكم والمتشابه ، ولكنى كنت أنتظر منه الكثير ، فلم يصل إلىّ ما توهمت ، فقلت لعل الصاحب أجدى وأنفع ، فانتقلت إليه ، وما علمت أنى تركت الواحة إلى المهمه القفر ، لقد كنت عند ابن العميد طامعاً غير قانع ، فرأيت عند الصاحب عاقبة الطمع !

قال أبو بكر القومسى : أصدقك الحديث يا أبا حيان ، أنت لم تأت البيوت من أبوابها عند الصاحب ، إن مثلك فى ذكاء عقله ، ووفور تجربته ، وبعد غوره ، يعلم أن مثل الصاحب محتاج إلى التزلف والمحاباة ، وكان من الهين أن تأتيه من هذا الباب .

صاح التوحيدى : واحر قلباه منك يا أبا بكر ، لقد بالغت فى التزلف لديه حتى هانت علىّ نفسى ، ولى فيه أقوال لو وضعت على الحجر لأورق ، ولو سطعت فى الظلام لأضاءت ، وقد سمعت بعضها دون شك ، فلماذا تسوق هذا الاعتراض ؟

فرد أبو بكر : غفلت عما أعنى ، وما أنت بالغافل ، أنا أريد أن أقول إنك لم تسر مع ما تقتضيه خبرتك النفسية لباطن الرجل ، فهو يحب أن يكون رأساً فى العلم والأدب ، وكل من حوله يتجاهلون ولا يجهلون ، إذ يحاولون أن يشعروه أنه أستاذ فى العلم كما هو رئيس فى الوزارة ، ولكنك كنت ترد عليه ، وتأتيه بما يجهل ، فيستطير شره ، ولولا التئام المجلس ، لصاح بك : اسكت ، فأنت تنقص قدرى حين تتكلم !

قال ابن مسكويه : أبو حيان يعرف هذه الناحية من طباع الصاحب ، ولكن المعرفة شىء ، والعمل شىء آخر ، فالصفات النفسية لدى الإنسان إذا تأكدت وترسخت وعمقت ، فمن الصعب أن تحول إلى ضدها ، وقد قيل : (شديد على الطبع أن ينتقل) ، ومما جبل عليه أبو حيان ، أن يناقش وأن يصحح ، وأن يتباهى بما لديه ، والصاحب يتقدم بالسؤال لجلسائه راغباً أن يجهلوا الإجابة ليفيض فى

الرد متعالياً ، ولكنه يفاجأ بمن يجيب ، لا بما يعلم فحسب ، بل بما يزيد ويربو ، حتى يجف ريق الصاحب ويأكله الغيظ .

وهنا قال أبو زيد المروزى : حنانكم يا قوم ، فالرجل مع ما وصفتم ذو جانب قوى فى الخير والمعروف ، فهو جواد محسن ، ومفضل معطاء ! وأتأكد أن أبا حيان لجفوة فى طبعه لم يستطع أن يدر نواله ، كما استطاع من الأقزام أناس ليسوا من الفضل فى كثير أو قليل ! لقد مكث أبو حيان فى حضرة الصاحب ثلاث سنوات ، أو ما أدرك منحاه فى التعاظم والتكبر فى مدى شهر أو شهرين من ملابسته ، فيعدل سلوكه معه ، لينعم بما أراد ؟

قال أبو حيان : اعلم أبا زيد ، لقد حاولت ثم حاولت ولكنى لم أستطع ، لأن ما كان يقابلنى به الصاحب من البوادر الصاعقة مما يفوق الاحتمال ! والله إن نفسى لتجيش بالخواطر المرهقة ، وأحس بها تغلى فى صدرى كما يغلى الماء فى القدر ، ولن بدأت الحديث عن هذا الصاحب فما أظننى سأنقطع حتى مطلع الفجر ، ولكن الآذان تكل ، والصدور تضيق .

قال أبو سهل : قل يا أبا حيان ما شئت أن تقول ، فلابد للمحزون أن ينفث ، وما جئنا الليلة إلا لتقول ونسمع !

قال أبوحيان : أنت يا أبا زيد كنت مجاورى لديه ، وأعلم أنك تستطيع أن تجابهنى إذا افتريت ، والله لن أضيق بقول الحق ، ولكنى أضيق بالمراء ، إن الرجل أحيط بجماعة عرفوا مكمن الضعف من نفسه ، فاستدرجوه بالثناء الكاذب حتى ملكوه ، وفى ظنه أنهم يصدقون ، ولقد شاع عنه ما يبهجه من الثناء لدى العامة والخاصة ، فصار المأتى إليها سهلا من الأغبياء فضلا عن النبهاء ، ما على القادم إليه إلا أن ينحنى أمام الناس ، ويقول فى ضراعة : إذا سمح مولانا أن أعار شيئاً من منظومه ومنثوره ، فإنى ما جبت الأرض من فرغانة وتفليس إلا لأستفيد من بيانه ، فلكأن رسائل مولانا سور قرآن وفقره آيات فرقان ، فسبحان من جمع العالم فى شخص ، وأبرز قدرته فى إنسان واحد ، فإذا سمع الصاحب ذلك تبهنس واختال ، ونظر إلى جلسائه ذات اليمين والشمال ، ونادى خازن الكتب فأمره بأن يخرج إليه

رسائله ، ويسهل له طريق الإذن عليه ، والتمكن من مجلسه ، لأنه ذكى نبيه ، ثم ينادى صاحب البدر لينفحه بما يستعين به على الحياة ، فإذا انتهى المال إلى هذا المحتال ، أخفاه فى جب ، وأكب على النسخ ، وقد يتظاهر بأنه لا يفقه سر البلاغة فى جملة ، فيصيح : أعجز فى بيان الصاحب ، ويتقدم بالسؤال فى المجلس الحاشد ، والصاحب يتمايل إذ يجيب ، ويقول : لا أضنّ عليك بما تريد ، إن مجالسنا تخرج الشعراء ، وتلد قرائح الأدباء ، وما أراك إلا أن أخذت منها بحبل موصول ، وسيصعد نجمك بما علمت .

فضحك أبو بكر القومسى ، وكأن أبا حيان ظن أنه يريد أن يعارضه ، فغلبه تسرعه ، وصاح به : فِيمَ الضحك يا أبا بكر ، أفصح عما تريد ؟

فأسرع القومسى يقول : أنا معك فى طريق واحد ، ولكنى تذكرت بحديثك أبا طالب العلوى وهزله الماجن فى حضرة الصاحب ، فغلبنى الضحك .

فهدأ أبو حيان وقال : عليك أنت أن تذكر بعض مواقف هذا المنتسب إلى العلويين ، لتسمعوا مالم يخطر على بال ، قل يا أبا بكر ، فأنت شاهد يؤيدنى ، وبرهان يشد أزرى فيما أبديه وأخفيه من أمر هذا الدعى ، وإنه لكثير !

قال أبو بكر : ما ظننت عاقلا ينخدع بهزل أبى طالب ، كما انخدع الصاحب ! الصاحب رجل الدولة ، ومدبر شئون السياسة والإدارة والمال والحرب والمعمار ، وله فى كل مجال نظر ثاقب ، وبصر نافذ ، ! الصاحب رجل الدولة يخدعه أبو طالب ، إذ يصطنع الانتباه الجاد إذا قرأ الصاحب بعض رسائله فى مجلسه ، فهو يشخص ببصره ويحرك رأسه ، ويبتسم مبتهجاً ، ثم يصطنع الإغماء ، فينهض الخدم إلى ماء الورد يرشونه على وجهه كى يفيق ، والخادع المحنك يصطنع الذهول بعض الوقت ، حتى إذا أفاق ، سأله الصاحب : ما أصابك وما اعتراك ؟ وما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول كالمنبهر المأخوذ ! مازال كلام مولاى يروقنى ويؤنقنى ، حتى فارقنى لبى ، وزايلنى عقلى ، وتراخت مفاصلى ، وتخاذلت عرى قلبى ، وذهل ذهنى ، وحيل بينى وبين رشدى فأغمى علىّ ! ! فيتهلل وجه الصاحب وينتفش غروراً ، ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ، ويقدمه على جميع الحاضرين حتى

على بنى أبيه وعمه ! والمستمعون يعجبون ، ولا يدرون كيف ينخدع بهذا المتق الكذوب وزير خطير !

قال أبو سهل : عجباً ، أرأيت أبا طالب يفعل هكذا يا أبا حيان كما رآه أبو بكر ؟ فيقول : بل رأيته ورأيت ما هو أغرب وأعجب ! لقد علم الصاحب أن رأس الجالوت بمدينة الرىّ ، وهو شيخ اليهود وصاحب أمرهم يتعاطى النظر فى البيان العربى ، وينكر إعجاز القرآن ، فصمم على أن يجادله ويقمعه بمشهد من الناس ، فدعاه إلى الحضرة وأدرك رأس الجالوت ما يراد به ، وهو ذو خبرة دقيقة بطبيعة الصاحب ، وتهالكه على الثناء ، فلما بدأ الصاحب يعلن رأيه فى إعجاز القرآن لجأ رأس الجالوت إلى الخديعة المكشوفة فقال : أيها الصاحب ، صدقنى إذا قلت لك إنى قرأت فى بعض رسائلك ما يبلغ مبلغ القرآن فكيف يكون معجزاً ؟ وكان الظن بالصاحب أن يصرخ فى وجهه ، وأن يطرده مدحوراً من مجلسه ، ولكن همد وسكن ، ثم قال فى فتور : لا ياشيخ ، كلامنا حسن بليغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافراً ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له المزية التى لا تجهل ، والشرف الذى لا يخمل ، يقول ذلك مع إعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دبه فى أسارير وجهه ، وينتهى المجلس وقد خرج رأس الجالوت مبجلا محترماً وهو لم يعترف بإعجاز !

قال أبو سهل : الثانية أغرب من الأولى ، لأن خديعة أبى طالب يتساهل معها ، إذ لا يعقبها خطر ، ولا يتبعها لبس وإبهام ، أما خديعة رأس الجالوت فبلاء ماحق ، وخطر صاعق ، ولو كان الرجل فى مجلس الوزير المهلبى أو أبى الفضل بن العميد ، لهبّ عليه الإعصار المكتسح فما درى أين يتجه ! أما الصاحب فقد شغله الثناء عن معتقده الدينى ، فتراخى وتخاذل !

قال أبو حيان : وثالثة تروى ، لقد اجتهد الصاحب فى أن ينشر مذهب الاعتزال بالرى ، وتصدى بالتسفيه والمجابهة مع الإذلال المهين ، والقهر المشين لكل من اتجه إلى غير الاعتزال ، وكان الحسين الكلابى سنياً يذهب وجهة السلف فى مسائل علم الكلام ، ويصرح بمخالفة الصاحب فى مجالسه الخاصة ، فاغتاظ ابن عباد ، ورأى أن يجبهه بالتسفيه فى المجلس العام ، ولن يملك دفعاً له ، والظلم قاهر ، والسطو

ممتد ، فأرسل من يدعوه ، وأحسّ الحسين بما سيكون ، فعمد إلى الاحتيال ، وتقدم فى هدوء إلى الصاحب ليرد على رفضه الاعتزال ، فقال الحسين : لقد تعمدت أن أخالف مولاى الصاحب فى مذهبه ليجد من يعارضه من العلماء فى مجلسه ، وهبنى ذهبت مذهب الاعتزال ، فكيف يشهد الناس منطق مولاى المفحم فى قوة الدفع ، وسطوته فى شدة الرد ، إنى أصرّ على رفض الاعتزال ليرى الناس ما يبرهم من حجج مولاى !

هنا تبسم الصاحب وقال : ابق حيث أنت ، فما أبخل عليك بنار جهنم ! تصلى بها كيف شئت ، وحين انتهى المجلس وخلوت إلى الحسين قال لى متضايقاً : أترانى أصلى نار جهنم ويتبوأ هو الجنة مع قتل النفس المحرمة ، وركوب المحظور فيما يقترف من المظالم ! أخزى الله كل متكبر وقاح !

هنا قال أبو زيد : لقد سردتم ما تعلمون من المساوئ ؟ أولم يكن للصاحب حسنات تذكر ، نحن فى مجلس القاضى ، ولابد من أن نسمع النظر المقابل ، فهل تأذنون ؟

قال أبو سهل : الحديث مناقلة ، فهيا .

فقال أبو زيد : يعرف أبو حيان قصة الصاحب مع من اتهم بوضع السم له فى الشراب ، فقد طلب يوماً قدحاً من شراب السكر ، فقدمه خادم إليه ، وقبل أن يضعه على فمه صاح به صائح يحذره بأن الشراب مسموم ، فنظر الصاحب إلى الصائح متسائلا : ما دليلك ؟ قال : مر الخادم أن يشربه ، وسترى ، فقال الصاحب : لا أستجيز هذا ولا أستحله ، قال : فجرّبه فى حيوان ، قال الصاحب : ولا هذا ، فالمثلة بالحيوان لا تجوز ، ثم أمر الصاحب خادمه بأن يصب القدح على الأرض ، وقال له : لا تدخل دارى بعدها ، ولك مع ذلك رزقك ، لأن العقوبة بقطع الرزق نذالة !

قال أبو حيان : سمعت هذه القصة ، ولم أر أحداثها بعينى !

فصاح أبو زيد : لقد صحبت الرجل ثلاث سنوات فحسب ! أفيكون كل ما أتاه من جلائل الأعمال وتوافهها محصوراً فى هذا الأمد القصير !

فتراجع التوحيدى يقول : لا أستبعد أن تحدث هذه الواقعة ، لأن الله لم يخلق إنساناً مجرداً من الخير ، وللآثم المحترف ساعات ندم تؤرق جفنه ، وللماجن من الشعراء أبيات من الزهد الورع ، وقد قلت فى كتابى عن الصاحب ما يشير إلى محاسنه ، مع ما دونته من المثالب .

قال مسكويه : وماذا قلت يا أبا حيان ؟

فعجل يقول : ذكرت عن أبى الفضل بن العميد والصاحب بن عباد أنهما كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشراً ، ولو أردت أن أجد لهما ثالثاً فى جميع من كتب للجبل والديلم إلى يومنا هذا ، ما وجدت .

قال أبو بكر : شهادة خصم عنيد ، الحرف فيها بكلمة ، الكلمة بسطر ، والسطر بكتاب !

فانبرى أبو زيد يقول : لقد شاهدت من أخلاق الصاحب شيئاً عجيباً فى الوزراء ، هو أنه كان لا يتواضع مع من فوقه من ملوك بنى بويه ، بل كان يعاملهم معاملة النظير للنظير ، ولكنه تواضع كثيراً مع العلماء ، فمدح القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة ، وطارح أبا حمد العسكرى بالشعر ، ونهض قائماً من مجلسه للقاضى عبد الجبار الأسد أبادى ، ومرّ به القاضى راكباً ولم يترجل ، وقال له : إن كرامة العلم تعفيه من ذلك ، فتبسم الصاحب وما أنكر ! هذا مزايا للرجل ، ولو كان أبو حيان قد أحسن سياسته معه لرأى غير ما رأى من التوقير والاحتفاء !

قال أبو سهل كالمازح : تكلم يا أبا حيان !

نظر أبو حيان إلى وجوه جلسائه ، وقال : فيكم من يعدنى نزقاً طائشاً ، أجعل رأسى برأس الصاحب ، فأكلمه كلام النظراء ، وعلم الله لقد تواضعت وتواضعت حتى كدت أقبل الحذاء ، فما وجدت منه بارقة عطف ، لقد قدمت عليه فى أول لقاء فسألنى : أبو من ؟ قلت : أبو حيان ، فقال : بلغنى أنك تتأدب ، فقلت : تأدب أهل الزمان ، فقال : أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف ، فقلت : إذا قبله

مولانا لا ينصرف بإذن الله ، أما إذا لم يقبل فلابد أن ينصرف ! وكنت أنتظر منه قبولا وترحيباً ، ولكنه تجهم ونظر إلى جار له فحدثه بالفارسية حديثاً عرفت فيما بعد أنه ثلب وتجريح ، ثم قال : الزم دارنا ، وانسخ هذا الكتاب ، فقلت : أنا سامع مطيع ، وحين خرجت فاضت أشجانى ، فقلت لمن حولى : والله ما تركت العراق إلا هروباً من الوراقة ، وقلت : سأجد فى حمى الصاحب راحة من النسخ الممل ، وخلاصاً من حرفة الشؤم ، ولم تكن الوراقة كاسدة ببغداد ، ولكنى تركتها لأمل يعتلج فى نفسى ، أفأعود إليها ، وطار الخبر إليه ، فكأنما وقعت السماء على الأرض ، مع أنى لم أقل شيئاً أؤاخذ به .

ثم جاءنى نجاح الخادم ومعه ثلاثون مجلدة من رسائله ، فقال لى : إن مولانا يقول لك انسخ هذا كله ، إذ طلب منه بخراسان ، فقلت وقد ارتعت لضخامة ما أمامى من المجلدات : هذا طويل ، ولو أذن الصاحب أكرمه الله ، لأخرجت من هذه الرسائل فقراً كالغرر ، وشذوراً كالدرر ، تدور فى المجالس كالرياحين ، فلو رقى بها مجنون لأفاق ، أو نفثت على مريض لبرئ ، فنقل نجاح إليه ما قلت ، فقال : طعن فى رسائلى وعابها ، ورغب عن نسخها وأزرى بها ، والله لينكرن منى ما يعرف ، فما ذنبى إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلداً ، أينسخ إنسان هذا القدر ، ويرجو أن يمتع ببصر أو عافية .

يا قوم ، لقد كنت أتصاغر وأتصاغر لأنال ذروة من رضاه ، فكنت أجد الغضب الساخط ، والكراهة المقيتة دون ما سبب ؛ رفعت إليه تهنئة تحمل أرق العواطف ، وأنبل الأحاسيس ، فقال لى : من أين لك هذا الكلام المفوف ، فأردت أن أستميله ، فقلت : وكيف لا يحسن بيانى ، وأنا أقطف ثمار رسائلك ، وأستقى من قليب علمك ، وأشم بارق أدبك ، فرفع صوته فى المجلس الحاشد يقول : كذبت وفجرت ، لا أم لك ، من أين فى كلامى الكدية والملحفة والتضرع والاسترحام ؟ كلامى فى السماء ، وكلامك فى السماد .

ما ذنبى إذا سألنى عن ابن العميد فمدحت فى تحفظ ، فغضب وهاج ، وجاءنى من يقول : تمدح عدوه فى حضرته ، ولو كنت ذممت لغضب وهاج ، وقال :

تذم من أكلت عيشه ، وشربت ماءه ، وارتديت كساءه ، إن الحسود لا يستقر على حال ! وقد حسدنى فماذا أصنع ؟

ما ذنبى ، إذا رأيته قادماً علىّ بدار النسخ ، فنهضت واقفاً ، فصاح : اجلس الوراقون أخس من أن يقفوا لى ، من أنت حتى يكون تعظيمك إياى موضع تقدير ، فبهتنى وترك جلسائى يسخرون منى تقرباً إليه ، إلا فاضلا آلمه هذا الاستعلاء المتجبر ، فانتظر حتى تفرق الجمع ، ووسوس إلى فى أذنى مواسياً بقوله : لا تهتم ، فالرجل رقيع وضيع !

ما ذنبى إذا قال لى : من سماك أبا حيان ، فقلت : أشرف الناس وأعظم الناس ، فقال : من ويلك ؟ قلت : سيدى الصاحب أعزه الله حين قال لى : يا أبا حيان ، فعبس فى وجهى ، واحمر أنفه غيظاً ، وكأنى كنت أذم ولا أحمد !

وسألنى صبيحة يوم ، وهو جالس فى صحن داره ، والجماعة حوله ، فقال : هل تعرف فيمن تقدم من له كنية أبى حيان ، فقلت : أجل ، فلان وفلان وفلان وفلان ، وأخذت أتحدث عن كل واحد من هؤلاء ، وأستشهد بالمأثور من قوله نظماً ونثراً ، فلما وفيت الشعر ، ورويت الإسناد ، وريقى بليل ، ولسانى طلق ، ووجهى متهلل ، نظر إلى غاضباً ، وانتقل بالحديث إلى سواى دون أن يعقب بكلمة واحدة .

وأقول أيضاً مما يدهش : لقد سألنا عن صدر هذا البيت :

* ولابد من شىء يعين على الدهر *

ثم قال : لقد سألت جماعة من الأدباء عنه فما عرفوه ، فتسرعت وقلت : أنا أحفظ صدر البيت ، فنظر إلىّ عابساً مكفهراً ، وقال : ما هو ؟ فقلت : نسيت ، قال : ما أسرع ذكرك من نسيانك ! قلت: ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة نسيت ، قال متبرماً : وما حيلولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب ، فوجب فى حسن الأدب ألا أقول شيئاً ! فقال : ومن تكون حتى نغضب عليك !؟

واختنق صوت أبى حيان ، فقال أبو سهل : أتعبنا الرجل بأسئلتنا هذه ، وكنا نظن أنه سيروح عن نفسه بأجوبتها ! فكان ما لا نتوقع .

فرد أبو بكر القومسى يقول : إن عناية الله قد أدركت أبا حيان ، لأنه الوحيد الذى هجا الصاحب بكتاب سار فى الآفاق ، ونجا من شره فما استطاع الوصول إليه ، لقد بخس الصاحب أبا حيان فى مجلسه ، ودار حكمه ، وعرف العقلاء أسباب هذا البخس ، فزاد أبو حيان مقداراً ورفعة على حين كشفه أمام الناس جميعاً حين ألف رسالته عنه وعن ابن العميد ، فطارت من الشرق إلى الغرب ، وانتقم لنفسه بما هو أشد من القتل ، وصريع القلم أشد نكالا ، وأسوأ عقبى من صريع السيف ! لقد انتصرت يا أبا حيان .

قال أبو زيد : هذه جملة يصح أن نختم بها هذا اللقاء .

فاستأذن القوم منصرفين ...

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

فراسة ابن سينا

كانت شمس الظهيرة تشتعل فى الصحراء اشتعالا يوقد الرمل ويلهب الصخر، وقد أحس الرجل بشواظ حار يلهب جسمه ، فيتصبب عرقاً ساخناً ، ويجف ريقه فيجد به ملوحة مريرة ، ثم يدور بعينيه باحثاً عن بئر دافقة بالماء فلا يجد غير الهجير المتقد يظمئه ويضنيه ، وقد هم أن يفترش الرمل الملتهب فيعجل بمصيره اليائس ، لولا أن لمح عن قرب شجرة مائلة تظلل نبعاً متوارياً ، فتألقت عيناه بالفرحة ، واتجه إلى الماء الفرات ، يبرد جوانحه ، ويكشف تباريحه ، ثم عنّ له أن ينزع ثيابه ويتبرد فى الماء لحظات منعشة يستعيد بها نشاطه الذاهب .. حتى إذا بلغ مأربه نهض إلى الظل الوارف فهيأ لراحته مضجعاً آمناً ، وأسلم جفنيه إلى نوم عميق !!

كان السائح المكدود فى همّ ناصب من شجونه وهواجسه ، فانطلقت أحلامه تريه ما يتربص به مستقبله من الصعاب ، فيبصر السجون والأغلال تارة ، ثم ترجع به إلى أمسه الباسم تارة أخرى ، فيرى نفسه وزيراً خطيراً فى همذان ، يملك الأمر والنهى ، ويحف به الحراس والحجاب ، حتى إذا غربت الشمس وداعبته الأنسام الباردة ، هب من نومه ليجد نفسه وحيداً فى العراء ، يسامره القمر وتحدثه النجوم .

ماذا يصنع الطريد الخائف فى ليل الصحراء ؟ إنه يستعرض تاريخ حياته ، فتمر بسمة باهتة على ثغره حين يتذكر صباه الغض ، وقد كان ممتعاً به فى قصر أمير الدولة السامانية ، فهو طبيبه الحاذق ، يدفع عنه أذاة المرض ، ويعد قائمة طعامه وشرابه ، فيزداد مكانة فى قومه ، ويصبح الشفيع الأثير لدى صاحب الأمر ، يسأل فيجاب ، ويتمنى فيحقق مبتغاه .

ثم يتابع ذكرياته ، فيستعرض جاهه فى همذان ، ويرى كيف كانت وزارته معقد المنى لقومه ، وميدان السيطرة لنفسه ، وقد ترك له آل بويه كل سلطان ،

فهو صاحب الكلمة العليا ، قرب وباعد ، وأعز وأذل ، حتى إذا قلب الدهر صفحته ، خرج هائماً على وجهه ، ليجد نفسه وحيداً فى الصحراء ، متنكراً فى زى درويش بائس ، يلبس المرقعات ، ويطلق لحيته الكثة ، ويبحث عن الفتات التافه ، فلا يناله بغير المذلة والهوان !! ثم هو بعد لا يأمن على نفسه ، فالموت يجثم له فى كل مرصد ، تنطلق وراءه العيون ، وتتساءل عنه الجواسيس !! وقد أعدت المكافآت السخية لمن يأتى به ! فإلى أين يصير ؟!

فكر (ابن سينا) ليلته فى أمره ، ثم رأى أن يفر إلى أصبهان ، فله بها أناس يعرفون مكانته ، ويقدرون مواهبه ! ولعل شمسه الغاربة تتمخض عن فجر جديد تمتد خيوطه اللامعة شيئاً فشيئاً ، حتى يستحيل إلى صباح قشيب .

سار ابن سينا فى طريقه ، فأتى أصبهان بعد رحلة شاقة عسيرة ، ووجد من أصحابه الأكرمين من أعزوا وفادته ، فنزل لديهم أطيب منزل وأهناه ، وكأن الأقدار كانت تختصر له طريق الحظوة ، فمرض نجل سلطانها العظيم (علاء الدولة) مرضاً حير الأساة ، وأدهش الناس ، وتساءل صاحب الملك عن نطاسى بارع يشخص الداء ، ويصف الدواء ، فتقدم ابن سينا وفى قلبه أمل ، وعلى لسانه دعاء!

كان الأمير المريض هزيلا نحيلا ، شحب لونه ، وغارت عيناه ، وتثاقل لسانه ، فما يطرد فى حديثه إلا تمتمات متقطعة لا تكاد تبين ، وقد فحصه الطبيب فحصاً دقيقاً ، فلم يجد أثراً للعلة العضوية فى جسمه ، واستعان بخبرته الواسعة فى عالم الطب ، فازداد يقيناً بسلامة أعضائه وصحة بنيته ، فأخذ يتساءل عن هذا الشحوب الكالح وذلك الهزال الناحل ، فلا يجد سبباً يستريح إليه فى تعليله وتشخيصه ، وجال بفكره الثاقب جولة نافذة ، فعرف أن المرض نفسى لا جسمى.

إن المريض يرسل آهات حبيسة تمتد وتنقطع ، ثم يجول ببصره الزائغ فى الحجرة كمن يبحث عن أمر بعيد .. فإذا أطبق عينيه ألصق يديه بأحشائه كمن يحتفظ بشىء يوشك أن يطير !!.. أتراه قد أحب فكتم ثم ثقل به الحب الكظيم ، فأورثه ذلك الشحوب المرير !! لابد من سبر دقيق لأغوار نفسه ، فقد ينجلى السر الكمين .

وجاء علاء الدولة إلى الطبيب يسأله الرأى فيما شاهد وعاين ، فابتسم ابتسامة هادئة ، ثم قال له : سأطلب منك يا مولاى شيئاً تعده غريباً فى موضوعه ، ولكنى مصر عليه : فقال علاء الدولة فى هدوء : لك ما تريد . فصاح ابن سينا : أريد إجابة شافية عن ثلاثة أسئلة متقطعة ، كل سؤال فى يوم . فقال السلطان : ومن يجيبك ؟ فقال الطبيب : إنسان خبير بمنازل أصبهان وشوارعها وساكنيها من رجال ونساء . فابتسم علاء الدولة وقال لصاحبه : انتظر قليلا فى مكانك فسأبعث إليك بمن تريد !!

ولم تكن غير لحظات حتى نظر الطبيب فوجد شرطياً كبيراً يتقدم إليه فيقول : لقد بعث بى مولاى إليك ، وأنبأنى أنك ستعقد لى امتحاناً فى مدى ثلاثة أيام ، ترفع نتيجته إليه ، فلعلى أحوز قبولك إن شئت . فأدرك ابن سينا ما يتردد فى صدره من الهواجس ، فمازحه قليلا وطيب خاطره ، ثم قال له : أريد شيئاً يسيراً !! أريد أن تكتب لى أسماء شوارع أصبهان فى ورقة !! فهذا أول سؤال !

تعجب الشرطى بعض الشىء !! ثم أخرج ورقة من جيبه ودون أسماء الشوارع ، وقدمها إلى السائل ، فشكره ، ورجاه أن يحضر من الغد لجيبب على سؤال جديد !! وما كاد الطبيب يلم بإجابة صاحبه حتى انتقل إلى حجرة الأمير المريض وبدأه بالتحية ، ثم أزاح ملابسه ، ووضع يده على صدره ، متسمعاً ضربات قلبه ، وأخذ يتلو أسماء الشوارع شارعاً فشارعاً ، فوجد الخفق يتوالى ويضطرب عند شارع معين ، فأسره فى نفسه ، وتنقل بالحديث إلى ناحية ثانية ، ثم ودع المريض .

وفى اليوم الثانى جاء الشرطى ، فطلب إليه ابن سينا أن يكتب أسماء أصحاب المنازل الذين يقطنون فى الشارع المعلوم ! فتعجب الرجل كعجبه أول مرة ، وصدع بالأمر كما أراد الطبيب ، ثم سار إلى شأنه ، وفى نيته أن يعود غداً للمرة الثالثة ليفرغ من امتحانه الغريب !

أما الفيلسوف فقد سارع إلى المريض ، وجاذبه أطراف الحديث ، ثم أزاح ملابسه ، ووضع يده المرهفة الحساسة على صدره ، وأخذ ينصت إلى ضربات قلبه ، قارئاً ما لديه من الأسماء ، فوجد الخفق يعلو دراكاً مضطرباً عند سماع اسم

معين ، فأدرك طلبته ، ولم يشأ أن يشغل الأمير بظن مريب ، فأفهمه أنه يبحث عن مرض عضوى فى صدره وسيبرأ منه عن قريب !

وفى اليوم الثالث جاء الشرطى ، فطلب إليه أن يكتب جميع أسماء الآنسات ممن يسكن هذا المنزل ، فأجاب على السؤال فى دقة ، وأعلن الطبيب براعته فى تأدية امتحانه ، فخرج دهشاً لا يدرى أيهزل أم يجد مع هذا الطبيب الغريب !! ولكن ابن سينا يطير إلى المريض فى سرعة عاجلة ، ويأخذ فى مسامرته بعض الوقت ، ثم يضع يده المرهفة موضعها من صدره ، ويتلو أسماء الآنسات ، فيخفق الأمير خفقة تتبعها شهقة ، إذ ينطق الطبيب باسم (رباب) ثم يندفع فى بكاء أليم .

إذن فقد عرف الطبيب سر مريضه !! فاتجه إلى علاء الدولة ، وأخبره بما اهتدى إليه ، فأطرق السلطان ملياً ثم قال : أتدرى أن رباب خطيبة أخيه !؟

فقال ابن سينا : ولذلك كتم حبه فى نفسه كى لا يتحرج الموقف بين الشقيقين ، فآل به الكتمان إلى مرض مميت !!

زفر السلطان زفرة حارة ، ثم سأل ابن سينا : كيف نخرج من هذا المأزق العجيب ؟ فقال الطبيب : نريد أولا أن نتأكد من حب رباب للأمير المريض !!

فسكت السلطان على غيظ ، ثم قال : ومن يستطيع أن يدرك خبايا القلوب !! فأجابه ابن سينا : من أدرك قلب الأمير .

أعلن علاء الدولة رغبته فى زيارة رباب ، وقد اصطحب معه طبيبه الماهر ، فلما مثلت بين يديه ، أثنى السلطان كثيراً على أدبها وجمالها !! ثم أشار إلى ابن سينا قائلا : هذا جوهرى حاذق سيصنع لك سواراً ذهبياً ، وقد أتيت به ليأخذ مقاس ساعدك الجميل ! ثم طلب منها أن تمد يدها إليه ، فوضعها الطبيب بين أصابعه الحساسة وهتف السلطان باسم فتاه المريض ، تنفيذاً لخطة وضعها الطبيب ، فلاحظ ابن سينا أن نبض الساعد قد أخذ يعلو ويضطرب منبئاً عن إحساس حاد يعصف بصاحبته ، فترك يدها وقد أحاط عن يقين بما يضطرم فى قلبها من حب عنيف !

فنظر إلى السلطان طويلا ، وانسحبت رباب ، فأفضى إليه بسرها الخطير !

ولقد وضح اللغز المحجب بين قلبين ذائبين ، فكيف ينقذ علاء الدولة مريضه

دون أن تخدش كبرياء أخيه ! إنه ترك الأمر لزوجته ، فهى والدة الشقيقين وعليها أن تتلمس الحل اليسير !

وفى أمسية هادئة استدعت الأم الحنون خطيب رباب ، فخف إليها وفى وجهه غيوم تتجمع وتتفرق ، وفى عينيه ذهول شارد ! فصاحت به : علام يرهقك التفكير يابنى العزيز ؟

فقال الأمير : أماه ، إنى أفكر فى فراق رباب !!

فانتهزت الأم هذه البادرة وقالت : ولم يا بنى ؟

فأجاب فى حيرة : لم تعد تخف إلى لقائى كما أريد !! وتنتحل شتى العلل كى تفر إلى بعيد !

فقالت الأم : لعل لها عذراً ؟

فقال الأمير : لا يا أماه ، لقد علمت أنها تتضايق كثيراً حين يذكرها بى متحدث ! وبالأمس قامت من النوم فزعة ، وصاحت : لا أريده ، لا أريده . ثم أجهشت ببكاء مرير !!

قالت الأم : وماذا يقول الناس حين نتركها وقد علموا أنها خطيبتك المصطفاة !!

قال الأمير : ليقل الناس ما يقولون !!

فأجابت الأم : لابد أن نحفظ سمعتها فى المدينة ، فإذا صممت على رفضها فهى لأخيك !

نظر الأمير فى اكتئاب وصاح : هى له إذا أراد .

أسرعت الأم ، فاصطحبت زوجها إلى المريض ، وبشرته بالنبأ العظيم ، وانتفض انتفاضة مدهشة ، وسقطت دموع الفرحة من عينيه ، وترقرق دم البهجة فى وجنتيه الشاحبتين ، ثم صاح بوالده : من حدثك عن سرى يا أبتاه ! وهو فى صدرى سجين حبيس ؟!

فقال علاء الدولة متضاحكاً : لقد أطلقه ابن سينا من محبسه فزق الأغلال والقيود .

قال الأمير : وهل علمت رباب ؟ أنقذوها فقد آن أن تستريح !

سباح فدائى

كان المطر يتساقط على صفحة النهر فى سكون الليل ، وقوارب الصيد تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال فى هبات الرياح المتلاحقة ، والبرد يرعش جسوم الصيادين فترتعد فرائصهم دون هدوء ، ولكنهم لاينقطعون عن تجديفهم المتواصل سعياً وراء الرزق ، فهذا ينصب فخاخه ، وذاك يجمع ما وقع فى شباكه ، حتى إذا أذن الفجر وبدأت لوامع النور تفسح لها طريقاً فى حندس الظلام ، تسلل كل صياد إلى بيته القريب من الشاطىء ، راضياً بما ساقه الله إليه من الخير ، قليلا أو كثيراً .

ورجع عيسى العوام فيمن رجع إلى كوخه الصغير ، ونادى زوجته سلمى البكرية ، لتأخذ عنه ما حمل ، فتدور به إذا أشرق الصبح على منازل الحى كعادتها بائعة جائلة ، ولكنه لم يسمع لها صوتاً يجيب ، وقد بحث عنها فى كل ناحية ، فلم يقف لها على أثر ، وإذ ذاك جلس منهوكاً مرهقاً ، يفكر فيما دار بينه وبينها بالأمس فقد هددته بالرحيل عن الكوخ إلى جيش صلاح الدين الرابض حول بيت المقدس ، فتقوم بما يقوم به مثيلاتها من النساء ، فتعد الطعام ، وتحمل المؤن ، وتدور على العطاش بالماء ، وعلى الجرحى بالدواء ، وكانت تسلق زوجها بقوارص اللوم ، وتدعوه إلى أن يلحق بالجيش الظافر ، فيؤدى واجب الرجولة والعروبة والإسلام ولكنه يجيبها فى مرارة أليمة فيقول : لست والهفتاه رجل طعان وصيال ، وكم كنت أتمنى أن أدرب فى حداثتى على امتطاء الخيل ، وامتشاق السيف ، ولكن البيئة الظالمة حصرت جهدى الضئيل بين القارب والشبكة والنهر !! فترد عليه سلمى فى حدة : إن لكل رجل نصيبه من الكفاح والجلاد ، وإذا توجهت إلى الميدان فسيضعك القائد المظفر حيث تفيد ! . فتتلعثم الكلمات تحت لسانه ، ولا يدرى كيف يجيب !!

لقد أدرك عيسى أن زوجته الباسلة قد يئست من يأسه ، فاتجهت وحدها إلى

ساحة الحرب ، مستجيبة إلى نداء الكرامة والعزة ، وقد شعر بحسرة لاذعة تكوى فؤاده حين وجد امرأة ضعيفة تنقاد لحميتها العارمة ، فتعرض نفسها للموت ، قريرة العين ، باسمة الثغر ، وأخذ يقارن بين عزيمتها الواثبة وخوره المتردد ، ففارت الدماء فى عروقه ، وأخذ عدته ، ثم يمم شطر بيت المقدس ، وأحس بفرحة بهيجة تملأ جوانحه حين سمع على بعد أصوات التكبير والتهليل ، فتقدم جريئاً إلى خيام الجند وطلب أن يقابل أحد القادة من حماة الكتائب العربية ! ثم عرض عليه أن يهيء له عملا حربياً يناسب استعداده ، ففكر القائد فى أمره ، ثم أشار عليه أن يصحب الأسطول العربى فى جولاته البحرية ، فعيسى — بحكم مهنته — صياد سباح يستطيع أن يخوض اللجج المتراكمة لينقذ ما يسقط فى الماء من مؤن وآلات وقد استشعر الرجل فرحة غامرة حين وفق إلى طريق من طرق الجهاد ، فاستقبل عمله الجديد مرتاحاً مسروراً ، وأدى واجبه الحربى مع رجال الأسطول أداء مخلصاً ، فكافح الموج وجابه الموت غير هياب ! وقد أنقذ من آلات الذخيرة وأدوات الحرب شيئاً كثيراً ، حتى أكبره أصحابه ، وكتب الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول إلى صلاح الدين يحدثه عن مهارة عيسى وبسالته .

مضت الأيام ، وزادت معامع القتال ضراماً واشتعالا ، فأبدى الفريقان المتصارعان حول بيت المقدس من خوارق البطولة وغرائب التضحية ما كان موضع العجب والإعجاب ، ثم علت راية الحق ، فانتصر الجيش الإسلامى ، وسقط بيت المقدس سقوطاً عاد بالنكبة والخذلان على الصليبيين ، فانكسرت حدتهم ، وانكفئوا على وجوههم فى الفجاج المترامية ، بين هارب جازع ، وجريح يتوجس ، وطريح قتيل !! كما وقع فى الأسر من جموعهم الحاشدة مايقدر عدده بالآلاف ! وظن الناس أن صلاح الدين سيفعل بأسرائه ما فعلوه من قبل ، حين اقتحموا بيت المقدس ، فما تركوا عذراء فى خدر ولا مصلياً فى محراب ، ولا عجوزاً فى كسر بيت المقدس ، وخاضت الخيل فى البرك العائمة ، فكانت تخضب منها القوائم والبطون ! أجل ظن الناس أن البطل العظيم سينتقم ، ولكنهم نظروا فوجدوا الصفح الغافر والتسامح النبيل .

احتفل صلاح الدين بنصر الله فى موكب حاشد ، فنصب سرادقاً فسيحاً يضم

الأفواج الغفيرة من جنوده وأعوانه ، وجعل يستقدم إلى مجلسه الأبطال واحداً واحداً ، فيصافح كل جندى بيده ، ويثنى على نجدته وهمته ، ومن حوله أمراؤه وقواده يخبرونه عن بلاء كل محارب وجهاده ، والقائد المظفر يبتسم ابتسامة الارتياح . ويسلم تسليم المقدر المعتز ، وجاء دور عيسى العوام ، فنهض الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول العربى وقال مخاطباً صلاح الدين : هذا سباح ماهر يامولاى ! كان يقذف بنفسه بين الأمواج ، فيحمل على كتفه الناحل ما ثقل من آلات الحديد ، وكم أنقذ من ذخيرة ثمينة ساعدت على النصر والنجاح ؟

فنهض صلاح الدين من مجلسه محيياً مصافحاً ! ولكنه أبصر امرأة متهللة باسمة ، تتخطى الرقاب ، وتجتاز الصفوف ، حتى دنت من عيسى ، فعانقته فى فرحة دافقة ، وقالت مهتاجة : أأنت هنا يازوجى العزيز ؟

فقال عيسى : لقد تبعتك ياسلمى حيث تشائين .

وأدرك صلاح الدين حقيقة الزوجين ، فأغمض طرفاً مستحيياً ، ولوى عنقه إلى الخلف ، حتى يفرغا من عناقهما اللهيف !

وانتهى المشهد المؤثر ، فنادى صلاح الدين عيسى ، وسأله فى ابتسام عن زوجته ، ولكن القاضى بهاء الدين بن شداد أسرع فقال : هذه يامولاى سلمى البكرية ، من أشجع النساء ، وأكرم السيدات ، كانت تحمل الجريح على صدرها مسافة طويلة ، فتنقله إلى الخيام من الميدان ، ثم تطير بالرسائل حيث آمرها أن تسير ، فترجع بالرد فى أسرع وقت ينتظر ، فحياها الله من سيدة ذات إقدام !

فنهض صلاح الدين من مجلسه ، ومد يده إلى سلمى ، ثم قال : يالكما من زوجين باسلين أحسنت لقاءهما الأقدار !

وانتهى احتفال النصر فى بهجة رفافة ، فخرج الزوجان فرحين ، ليقيما فى خيمة متواضعة وراء الأسوار .

قال عيسى لصاحبته : أتظنين أن مقامنا ها هنا سيطول ؟

فقالت سلمى : لقد سمعت من بعض القواد أن الصليبيين سيثأرون لهزيمتهم عن قريب ، حين تأتى إليهم الأمداد المتلاحقة من وراء البحار ، لأن أوربا لن

تهدأ بعد فشلها الخائب على يد صلاح الدين ! فقد كانت طوال الأعوام السابقة تسوق الجيوش وراء الجيوش ، لتحمى بيت المقدس ، وهى بلاشك ستصاب بجنون مغيظ حين تعلم أن جهودها المتلاحقة قد تمزقت أيدى سبأ ! على أنى واثقة من النصر الظافر على يد صلاح الدين !

فابتسم عيسى ابتسامة عذبة ، وقال فى حنان : علم الله أنى أتطلع إلى ساعة النضال فى شوق لهيف ! فقد أصبحت أهوى حياتى الجديدة هوى يختلط بالدم ، ويجرى فى العروق ، وإنى لآسف أشد الأسف على ما ضاع من أيام موحشة ، قضيتها فى كسب تافه ، أتبلغ به بعد تعب ضائع كريه ! غافلا عن ميدان الرجال ، وحومة الأبطال ، ولولاك ياسلمى الحبيبة ، لبقيت هكذا خاملا مجهولا ، أشعر فى أعماق الدفينة بالضعة والهوان ، وأكابد صراعاً داخلياً بين عجز الحيلة ورغبة الآمال ! أما الآن فيخيل إلى أنى سيد الماء وفارس البحار !

فقالت سلمى : ستمتد سيادتك على البحر بعد حين ، فتصبح أمير الأسطول وقائد الأمواج ، وسيزهى بك صلاح الدين فى إكبار ، ويغدو اسمك أنشودة الركب وترنيمة الأبطال !

دقت الطبول فجأة بعد أمد قريب ، فعلم العرب أن الميدان قد هيىء ، وأن الكتائب المرتقبة قد زحفت سيولها من الغرب ، فقد جاء ملوك أوربا يتقدمهم فردريك وقلب الأسد ، وفيلب أوجوست ! ومن ورائهم من لايحصون من الحشود والجنود ، ومالا يقدر من الأسلحة والعتاد والأساطيل ! . وسار صلاح الدين بنفسه يجمع الجموع ، ويضع كل بطل فى موضعه ، ويحمى ما يستطيع حمايته من البلاد والقلاع ، إلا أن الكثرة الطائرة قد اتجهت إلى (عكا) فحاصرتها حصاراً شديداً ، وقاسى العرب داخل الأسوار صروف المحن وضروب الشدائد ، أما الجيوش العربية فقد اشتبكت مع المحاصرين بالخارج فى حروب دامية مريرة ، كان النصر بها سجالا ، فيوم للهلال ويوم للصليب !

وكان صلاح الدين يفكر فى أمر هؤلاء الذين حوصروا خلف الأسوار ! فمنع عنهم الطعام والشراب ، وأحاط بهم العدو ، فلم يقدروا على المروق والإفلات كيف يتصل بهم ، فيلم بأخبارهم ، ويعرف حقيقة ما لديهم من الزاد والعتاد !

لقد فكر وقدر ، ثم هداه تفكيره إلى أن يستقدم عيسى العوام ، فهو سباح ماهر يستطيع أن يخوض لجج البحر متخفياً ، فيحمل الرسائل فى حذر إلى العرب ، ويمدهم بما يقدر على حمله من أكياس الذهب والفضة ، ثم يعود وقد رسم الصورة الصحيحة لما شاهد وخلف ! ولعله بسفارته المستترة يقدم من الفوائد الحربية مالا تقوم به الكتائب والجيوش !

هكذا قدر صلاح الدين ودبر ! ، ثم بعث بمن أحضر إليه عيسى العوام ، فأصدر له أوامره وتوصياته !

كان على السباح الفدائى أن يخوض البحر مخترقاً صفوف السفن الإفرنجية ، دون أن يشعر به أحد ، ثم يأتى إلى الأسوار الناهضة فيعمد إلى فرجة ضيقة تأذن له بالتسلل ، فإذا وفق فى مسعاه اتجه برسائله وأكياسه إلى بهاء الدين قراقوش حاكم المدينة ، وقائد المسلمين ، فأبلغه رغبات صلاح الدين ، ثم حمل عنه ما يخط من الرسائل ، ويبدى من المقترحات ، وكان الليل مسرحاً أميناً لمغامراته ، فهو ينتظر حتى تهجع عيون الأعداء فوق السفن ، ثم ينغمس فى الماء مجتهداً ألا يظهر ما ينبئ بمروره ، وقد يصطدم فى ظلمات العباب بسفينة أو صخرة ، فيتحمل كل عسير حتى يصل إلى الشاطئ ، ثم يلتفت فى كل ناحية ، حتى يلمس مأمنه ، فيسرع إلى مبتغاه ، ويقضى اليوم الطويل داخل الأسوار ، حتى إذا أقبل الليل كر راجعاً إلى سيده ومعه الرسائل والأنباء !! وكم قاسى من زمهرير الشتاء ، وأهوال الظلام ، وصدمات البحر ، ولسعات البرد فى أعماق البحر !! وهو سعيد هانئ ، يغمره شعوره النفسى بدفء مريح ، وينفحه إيمانه القوى بما يبدد كل خوف وارتعاش !! وما زال يواصل رسالته الفذة ، حتى قطف العرب على يديه أنضر زهرات النجاح !

وذات مساء تسلل كعادته حاملا أكياس الذهب إلى قراقوش !! وخاض لجج الماء فى برودته القاسية ، مستهيناً غير مكترث ! وانتظر العرب عودته فأبطأ.

وجاء الحمام الزاجل من عكا ينبئ بأن عيسى لم يحضر شيئاً !! فأخذ الناس يتساءلون ويتكهنون ، فمن قائل : غره الذهب فاستولى عليه ولاذ بالفرار ! ، ومن قائل : وقع فى يد الفرنجة فأسروه ، حتى تكشف الحق الأليم ، حين وجد

العرب جثة طافية على الماء تتجه رويداً إلى الساحل ، فأسرعوا إلى انتشالها ، فعرفوا بها وجه عيسى العوام ، وقد مزق أحشاءه سهم تربص به من عدوه فرماه ! وكانت الحسرة أليمة حين أبصروا حزامه فى وسطه وبه أكياس الذهب كاملة لم يضع منها دينار ! وراح الخبر إلى صلاح الدين فدمعت عيناه ، وأمر بدفنه فى موكب خاشع رهيب !

وطاف القاضى بهاء الدين بن شداد ذات مساء على ساحل البحر فوجد سيدة تسبح فى الماء ! فدهش متعجباً ، وانتظر حتى ارتدت ملابسها ورجعت إلى الخيام ، فتبعها ليقف على حقيقة أمرها ، فعرف أنها سلمى البكرية زوجة عيسى فسألها فى حنان عما تصنع ؟ فصاحت فى اعتداد : آليت على نفسى أن أتعلم السباحة لأواصل رسالة عيسى العوام ، وأحظى باستشهاده النبيل !

فنظر إليها القاضى متعجباً وصاح : صدق صلاح الدين حين قال : يا لكما من زوجين أحسنت لقاءهما الأقدار !

القاضى الفاضل

— ١ —

خلا القاضى الفاضل إلى نفسه يفكر فى أمره ، وقد عين كاتباً لدى الكامل ابن شاور ، ماذا يكون من شأنه ، ومصر قلقة مضطربة لا تثبت على حال ، فإذا كان اليوم يعيش فى رعاية الكامل فإن الرياح لا تلبث أن تهب فتعصف به وبأبيه ، وتعصف بمن يلوذ بهم من الجنود والكتاب ، ومن الذى يحميه إذا دهم الكامل أمر مفاجئ ، ألم يتغير الوزراء والقواد فتتغير أحوال أتباعهم ، على أنه تأسى بالصبر ، متفائلا ، إذ فكر فى الكامل بن شاور ، ذلك الشاب البطل الذى يفيض حماسة لدينه ، ويبذل جهد الجبابرة فى إقناع والده الغادر حين يراه ينشد مصلحته الخاصة دون اعتبار آخر ، فهو مع المسلمين إن كانت كفتهم راجحة ، يكاتب البطل نور الدين زنكى حارس الإسلام فى الشام مؤيداً ومصادقاً ليحفظ مقامه لديه ، لا لأنه مخلص فى منحاه ، ثم يكاتب الفرنجة ليجعل منهم حليفاً له حين يتأزم الأمر معه فى القصر ، وحين يجابهه ضرغام بالحرب !

لقد طال عناء الكامل الغيور مع والده كما طال عناؤه به ، ولكن مما أثلج قلب القاضى الفاضل أن يكون مستشار الكامل يؤيد عزيمته ، ويبارك خطواته ، وهى سبيل تؤدى إلى مرضاة الله ، وإنقاذ الوطن ، فإذا أصيب القاضى بانتمائه إليها فحسبه رضا الله وراحة الضمير .

وتقلبت الأيام به ، فاضطهد وسجن تسعة أشهر حين تغلب ضرغام على شاور فعذب رجاله ، واستأصل من خاف الشر منهم ، ولكن سرعان ما احتال شاور للثأر ، فكاتب البطل نور الدين ، وقدمت الجيوش الإسلامية ، لتضم مصر فى جبهة واحدة مع جيوش زنكى ، وعاد للوزارة بمصر شاور ، وتألق نجم الكامل ابنه ، فتألق نجم القاضى فى أفقه ! وليت الوالد الغادر يستقيم على الطريق فيريح

نجله البطل ، ولكنه اعتزم الكيد لأسد الدين شيركوه قائد نور الدين ، وافتضح أمره ، فهوى إلى قرار سحيق ، وتبعه ولده الكامل الذى أخذ غدراً بذنب لم يرتكبه مع أنه كان خصم والده الأثيم .

رجع القاضى الفاضل إلى مكانه بديوان الإنشاء كاتباً محسوداً بأدبه وعقله ، فغار منه زملاؤه ، إذ عرفوا سبقه البيانى ، وإبداعه الأدبى ، ومثله لا ينكر مكانه إذا قرئت رسائله على الناس ، فصمموا على الخلاص منه حين جاء أمر أسد الدين شيركوه باختيار كاتب خاص به ، فقالوا : إنه رجل كردى لا تروج لديه بضاعة القاضى ، فليذهب إليه ، ليخمل عنده ، وليصبح أدبه سلعة زائفة لا تروج ! وكان فى أسد الدين فراسة ، فخلا بالقاضى الفاضل حذراً ، وجعل يسأله عن أمور مصر ، وأحوال الناس شرقاً وغرباً ، فشاهد من إجابته ما دفعه إلى الاستمساك به ، إذ لمس غيرة وحمية ، وخبرة دقيقة ببواطن الأمور ، ودخائل من يمثلون على المسرح إخلاصاً وزيفاً ، وفدائية وانتهازية ، والقلوب تتكاشف فتتقارب إذا اتحد الهدف ، وكمل الإخلاص ، وهكذا خاب فأل زملاء القاضى ، لقد طرحوه لدى أسد الدين ليكتب رسالة ديوانية فى مسألة إدارية ، فإذا به المستشار الأول لصاحب الأمر ، وإذا كل شىء فى يده . وللتوفيق أسباب تجهل دلائلها بدءاً ، ولكنها تتضح بعد المراس ، فتقربها العين ، ويستريح لها الجنان .

وكان صلاح الدين البطل الشاب يرصد أحوال القاضى ، فيجده الأثير المصطفى لدى عمه أسد الدين ، فكثيراً ما يخلوان معاً دون أن يدرى البطل ما يقولان فعرف أن عمه صادق الفراسة ، وأنه ما حرص على ود القاضى إلا لدواع من كياسته وحزمه ، فسعى إلى صداقته التى رحب بها القاضى ، ولحظ أسد الدين سرعة اتصال ابن أخيه بصاحبه ، فابتسم مشجعاً ، وقال له : تعرف معادن الرجال يا صلاح الدين ، إن رسائل القاضى إلى نور الدين هى التى ثبتت مكانتنا لديه ، وإن خبرته بمصر ورجالها هى التى فتحت لنا منافذ الضوء ، عليك به يا صلاح فى كل أمر حازب ، فهو رجل الموقف الدقيق .

وفوجئ الناس بنعى أسد الدين بعد شهرين من توليته الوزارة ، فكان الموقف حرجاً أكبر الحرج ، لأن الجيش الشامى لم يكن تحت قيادة رجل واحد ، يكون

صاحب الموقف الأول دون أن ينازعه أحد ، ولكنه مقسم إلى أربع فرق : الفرقة الباروقية ، والفرقة الحارمية ، والفرقة الصلاحية ، والفرقة الأسدية ، أما الباروقى فأقوى أمراء الجيش ، وهو صارم جاد غضوب ، وأما الحارمى فخال صلاح الدين ، وله فى نفسه اعتداد وطموح ، وأما صلاح الدين فأصغر الثلاثة سناً ، وهو عند الاثنين ممن لا يزاحم ، ولكن الأمر ليس للقادة وحدهم ، فهناك الفقهاء الكبار الذين يصحبون الجيش لتقوية العزائم ، والدعوة إلى الاستشهاد طمعاً فى المثوبة ، وهناك الخليفة العاضد الذى سيصدر الأمر باختيار القائد الجديد وتوليته الوزارة ، ولن يتم ذلك دون مرسوم منه .

وفى لحظة حاسمة اجتمع الفقيه الكبير عيسى الهكارى صاحب المكانة العليا لدى أمراء الجيوش ، مع القاضى الفاضل ، لينظرا بعين المصلحة العامة من يصلح للوزارة ، وتدارسا الموضوع فى حيدة وإخلاص ، فذكرا أن الباروقى غضوب متسرع عنيد ، وأن الحارمى متكبر يستعلى على الأمراء ، وأن صلاح الدين شاب غيور نشيط يستشير ويستمع وينفذ ، فهو الأصلح من هؤلاء الثلاثة ! أما الفرقة الأسدية فقد مات قائدها أسد الدين .

قال الفقيه الأكبر عيسى الهكارى : سأسعى لدى أمراء الجيش معلناً الرغبة فى اختيار صلاح الدين ، ولى أسلوبى معهم .

وقال القاضى : ولى اتصال بقصر الخليفة ، وسأعمل على أن يدعونى للاستشارة ، لأن عيونى لديه قد أكدوا له إخلاصى ورعايتى حقه .

وكانت مهمة الهكارى صعبة قاسية ، فقد والى الاجتماعات ، فصادف نفوراً وغضباً من الباروقى والحارمى ، ولكن جنودهما معاً قد استجابوا لرأى الفقيه ، وعدوه مخلصاً لا مصلحة له إلا فى خير الأمة ، واجتماع الشمل ، وووجه القائدان بما لم يتوقعا ، لأن الباروقى والحارمى معاً لم يكونا أثيرين لدى جنودهما ، فلم يستطيعا أن يكونا بحيث يأمران فيطاعان ، وأما الفرقة الأسدية فقد رحبت بصلاح الدين لأنه ابن أخ أسد الدين ، فكأن الفرقتين أصبحتا فرقة واحدة ، وهنا انحسم الموقف بالنسبة إلى الجيش ، هذا إلى ما لشخصية عيسى الهكارى من منزلة لدى جميع الفرق الشامية ، فهم يعرفون إخلاصه وتقواه وحزمه ، فإذا اختار القائد

الأعلى فعن بصر وإخلاص ، والناس حين تلتبس أمورهم يتجهون إلى من يرون فيه رجاحة العقل ، فإذا أشار برأى وأيده بمنطقه فقد ضمن الوفاق .

بقى الخليفة العاضد ، ولابد من قبوله ، فهو الذى سيصدر الأمر الشرعى بالتعيين ، لأنه أمير المؤمنين ، وإذا اجتمعت الجيوش الشامية على رأى دون أن يؤكد بمرسوم العاضد فمن اجتمعوا عليه يكون قائد جيش الشام فحسب ، أما أن يكون وزير مصر فهذا شأن العاضد وحده .

ولم يحن المساء حتى وفد رسول العاضد إلى القاضى يستدعيه محدداً ميعاد اللقاء بعد صلاة العشاء ! وما أسرع ما ذهب القاضى ليجد العاضد حائراً لا يدرى ما يصنع ، ومعه حاشية من ذوى الأغراض ، وفيهم من يكره الجيوش الشامية جميعها ويفضل عليها مرتزقة السودان وفلول المغاربة ، بل فيهم من يود أن يحضر الفرنجة ليقاتلوا جند نور الدين دون نظر إلى فداحة ما يكون لو تم هذا البلاء ، واستمع القاضى لما يقال فى سكون ، ولكن العاضد صاح بالقوم أن كفوا ، فما أرسلت للقاضى ليسكت هكذا وأنتم تتكلمون .

فانتبه القاضى لدقة الموقف ، ثم جمع عزيمته فقال : لابد أن نزن الواقع دون أن نبتعد بالخيال إلى شطط لا يجوز ، إننا مضطرون الآن — وجيوش من الشام تملك أمر القوة فى مصر ، أن نختار منهم الوزير القائد ، حتى تكون لنا قوة تجعل الأمر بأيدينا ، وقد فكرت فيمن يصلح للقيادة من وجهة نظرنا نحن ، فوجدت الذين يتطلعون للوزارة هم : الحارمى والباروقى وصلاح الدين ، والحارمى متكبر مستعل لا يستشير أحداً فى موقف ، وأمير المؤمنين أيده الله يعرف عنه ذلك ، أما البارقى فكان ينازع أسد الدين نفسه ، ويتباهى بقوته أمامه وكأنه يريد أن يقول له : أنا أولى بالأمر منك لولا رغبة نور الدين ومثله فى اعتزازه بنفسه لا يلبى ما نريد ، وأما صلاح الدين فهو شاب غير مجرب ، وليس للجنود صلة تامة به حتى يصبحوا رهن إشارته ، وسيضطر إلى ملاينتهم من ناحية ، كما أنه سيستجيب إلى رغبة القصر من ناحية ثانية ، إذ يعد إسناد الوزارة إليه فضلا من مولانا العاضد لا ينساه ، وهو بذلك أصلح الثلاثة بالنسبة إلى مولانا أمير المؤمنين ، فإذا عجل باختياره فسيكون طوع يده ، لا سيما أن الفرقة الأسدية قد انضمت إلى فرقته ،

فأصبح يسيطر على نصف الجيش بالتأكيد ، وعلى كثير من جنود الفرقتين الأخريين ، إذ علمت أن النيات قد تغيرت كثيراً بعد وفاة أسد الدين ، وظهر فى لفائف الحوار الناشب هناك ، ما يدل على أن البارقى والحارمى لايضمنان الولاء من أقرب الجند لها ! فإذا صدر أمر مولانا العاضد بتولية صلاح الدين فقد قطع عليهما كل طريق .

قال العاضد : إن صلاح الدين أقرب الثلاثة إلى نفسى ، ولابد أن أسرع باختياره ، إذ من المحتمل أن يختار نور الدين قائداً جديداً من جنوده هناك ، وربما اختار من لا يحسن التفاهم ، فاكتب أيها القاضى منشور الوزارة لصلاح الدين وأذعه فى الصباح .

سمع القوم ما أبداه القاضى ، وأجالوا فى نفوسهم ما يمكن أن يحدث لو تأخر اختيار أمير المؤمنين ، فهنئوا الخليفة على سلامة اتجاهه ، إذ بصرهم بما كانوا يغفلونه من أمر نور الدين ، كما رأوا أن صلاح الدين أقرب الثلاثة إلى نفوسهم ، فخرجوا مستريحين لما اتفقوا عليه ، وانتظروا الصباح ليسمعوا منشور الوزارة بعد أن يكتبه بالليل القاضى الفاضل تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين .

— ٢ —

جلس صلاح الدين حائراً مهتماً يفكر فى هذا الخطب الداهم الذى فاجأه من حيث لا يحتسب ، إذ ما كاد ينهض بأعباء الوزارة الداخلية ، فيتفقد حاجات الشعب ، ويعمل على تهيئة وسائل الضروريات الملزمة إذ لا سبيل إلى الكماليات فى عصر يتربص فيه العدو ، ليثب وثبته ومعه العتاد والمال والجند والطمع ، ما كاد صلاح يبدأ فى إصلاحاته الداخلية حتى جاءته الأنباء بأن الصليبيين قد داهموا ثغر دمياط ، وامتلأ البحر بسفنهم المزدحمة بالسلاح المدمر والرجال الأشداء ، وتطلع فيمن حوله سائلا : أين القاضى الفاضل ؟ ائتونى به .

ولم يكن عبد الرحيم البيسانى — وهذا اسم القاضى — فى حاجة إلى من يدعوه إذ كان فى الطريق إلى الوزير ليكون صاحب رأيه الأول فيما نزل من الخطوب ، فقابله فى ابتسام ينبئ عن العزيمة الصادقة ، والاستهانة بما حدث ، وطلب صلاح

الدين أن يخلو به ليتكاشفا على وجه مأمون ، فاستمع عبد الرحيم واستمع حتى إذا فرغ صلاح الدين من بث خواطره قال له القاضى :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ، لقد نزلت هذه النازلة لتثبت سلطانك يا صلاح الدين ، فالجند فارغون ، وفيهم من يقولون : ألسنا كلنا أكبر سناً ، وأكثر تجربة من صلاح الدين ، فلماذا يتمتع بالحظوة والوزارة والجاه ، هم يحسبون الوزارة تمتعاً وسعادة ، وبرونك اغتصبت مالهم ، فإذا حانت ساعة المسئولية كرهوا الوزارة والرئاسة ، وعليك الآن أن تجمع القادة ، وتهيئ عدتك الحربية للزحف ، أما مسائل التموين فقد تعود هذا الشعب الأمين أن يبذل عن سخاء ما لديه ، وستجد المسلمين فى دمياط وما حولها يبذلون عن طوع ، إذ يعتقدون أنهم فى طاعة الله وخدمة الإسلام ، ثم علينا قبل كل شيء أن يطير الحمام الزاجل بالنبأ إلى نور الدين ، فله تفكيره الناجح ، وعونه الناضر .. هيا يا صلاح الدين ، فأنت رجل الموقف لا سواك .

قال الوزير : إن ما قلته عن خوض بعض الناس فيما يسوء قد جاءنى وعلمته ، كما أنى أرى فى شغلهم بالحرب ما يكف ألسنتهم ، ولكن ما أحمده كل الحمد ، هو إشارتك الذكية بإرسال الحمام إلى نور الدين ، فأنا أعرف أنه لا يطيق صبراً على تقدم العدو فى أى موقع ، وسينصرنا الله به ، كما تعودنا .

وزحف الجيش إلى دمياط ، وكان صلاح الدين متوجساً أن يقابل بغير الترحيب ، إذ ما زال يعد نفسه غريباً عن مكان قاص لم يسر إليه من قبل ، ولكنه وجد من روعة الاستقبال حيث يحل ، ما أمد أمله فى النصر ، وقد راعه أن كل مصرى بدمياط وما حولها من القرى والمدن قد زحف إلى المعركة بما يملك من سلاح ، إذ أن روح الجهاد قد سرت فى الشعب فسيطرت على كل اتجاه ، وابتدأ الهجوم الصاعق حين نصب صلاح الدين أدراجاً خشبية فى مكان غير متوقع ، غفل عنه الصليبيون ، فلم يحصنوا أنفسهم من شره ، وصعد الجند بقذائفهم الملتهبة يرمون العدو بأقسى ما لم يكن يتوقع ، فانسحب بسفنه إلى داخل البحر يدبر ما يصنع .

وفى ساعات معدودة تسلق المسلمون أسوار المدينة القريبة من السلاح ، وأخذوا يرسلون السهام والنبال وأعدوا الحجارة لمن يقترب ، كان القوم شيوخاً وشباباً ونساء وصبياناً فى المعركة ، وكان التكبير يدوى فى كل مكان ، فيملأ القلوب بالعزائم الناهضة ، والهمم الماضية ، أما نور الدين بالشام — نضر الله وجهه — فقد جاءه الخبر السريع فرأى من الحكمة أن يزحف بجيشه على الكرك فيهاجم الصليبيين مهاجمة ضارية ، إذ أن كثرتهم قد نزلت مصر ، وسيرتاعون فزعاً حين يعلمون أن حصنهم بالشام يتزلزل من قواعده ، فيتقهقرون عن دمياط وهذا ما كان ، إذ صدق حس نور الدين ، فما كادت أنباء زحفه الصاعق تبلغ الصليبيين حتى خافوا على نسائهم وأطفالهم ومنازلهم وأموالهم ، وتنادوا بالرحيل .

ونظر صلاح الدين فإذا السفن تفر هاربة ، وإذا القوم يندحرون جزعين ، فارتفعت رايات النصر ، وتقدم الجيش إلى صلاة الشكر بإمامة الفقيه الأكبر عيسى الهكارى ، ومن خلفه قادة الجيش والرأى وعلى رأسهم صلاح الدين ، وكان عيسى الهكارى قد أمر أن تقرأ سورة الأنفال على مآذن دمياط تفاؤلا بمعركة بدر ، فلما تحقق النصر جلس صلاح الدين فى المسجد الجامع ، وأمر أن تقرأ السورة جميعها فى المسجد ، فأخذ المسلمون يستمعون فى بشر وابتهاج ، وتهيأ الجيش للعودة إلى القاهرة ، إذ زال الخطر بأسرع مما يتوقعون !

وركب القاضى الفاضل فى كوكبة صلاح الدين ، فسأله القائد الباسل : ماذا ترى فى مجيء الصليبيين ورحيلهم يا عبد الرحيم !؟

فأطرق القاضى قليلا ! ثم قال فى أسف : لم يحضر معنا أحد من حرس الخلافة وعدتهم خمسون ألفاً تحت قيادة مؤتمن الدولة ، فلماذا ؟ ونحن ندافع عن العاضد أمير المؤمنين !

قال صلاح الدين مبتسماً : وبم تعلل هذا النكوص !؟

قال القاضى : هجس فى نفسى أن الصليبيين جاءوا بإيعاز من حاشية العاضد؟

قال صلاح الدين : من الحاشية أم منه ؟

فرد عبد الرحيم : لا أرجح ، ولكن الذى أرجحه أن القصر قد امتنع عن

مؤازرتنا عن قصد ! أفما يكفى الخليفة أن يحرسه فى هذه الأزمة عشرون ألفاً ويرسل بثلاثين ألفاً !! ونحن فى أشد الأزمات ، لابد أن نحترس ، لابد أن نحترس ؟

قال صلاح الدين وقد نظر إلى صاحبه متعمقاً كمن يريد أن يستشف كل خلجة فى أعماق أعماقه : وكيف الاحتراس يا أخى ؟

فأسرع القاضى يقول : نراقب من يخرج من البلاد ويكون مظنة الاشتباه ، ونكلف الحرس أن يفتشوا كل راحل وكل قادم ، لأن الأيام القادمة ستحمل شيئاً ! بل أشياء .

فعجل صلاح الدين يقول : هذا ما سيكون .

ترى هل كان القاضى يطالع الغيب كما كان يطالع الحاضر المشهود ..؟ فلم تمض أيام حتى جاء جندى من حرس بلبيس ، ومعه يهودى حقير الملبس زرى الهيئة ، وطلب مقابلة صلاح الدين ، ليعرض عليه خفين جديدين ، ونعلاهما ثقيلان بما يضمان .

قال الجندى : رأيت هذا الرجل فى ثيابه الرثة ينتقل من بلبيس صوب سيناء وهو يتلفت فى كل اتجاه ، فأسرعت أفتشه ، فوجدت تحت ثيابه هذين الخفين ، فسألته عن شأنهما ، فلم ينطق ، وثقل الخفان فى يدى ، فعرفت أنهما يحملان رسالة خطيرة ، ولم أشأ أن أشفهما ، بل سارعت إلى مولاى لينظر ما يكون !

بكى اليهودى جازعاً وقال : إن مؤتمن الخلافة قد أغرانى أن أذهب متستراً إلى ملك الفرنجة لأحمل إليه رسالة خاصة ، يريد ألا يطلع عليها أحد ، وإن خالفت أمره قتلنى !

شق صلاح الدين الجلد ، فوجد : « دعوة مؤتمن الخلافة لمصر ، كى يطهرها من جند الشام ، مع إبلاغه تحية العاضد ، وانضمام حرس القصر إليه حين يحضر مع أكثر أهل مصر الذين يفضلون حكم الملك على حكم صلاح الدين » .

وسارع فعرض الرسالة على القاضى ، فقال : التوقيع توقيع مؤتمن الخلافة ، وأنا أعرفه جيداً ، فهذا لا شك فيه ، ولكن ما جاء عن العاضد مما يحتمل الصدق

والكذب ، فقد يكون هذا الخصى (مؤتمن الخلافة) مفترياً عليه ، وقد يكون متواطئاً معه ، فهذا ما لا نجزم به !

قال صلاح الدين : وماذا يرى القاضى ؟

فأسرع يقول : يصرف اليهودى معفواً عنه ، فهو كما يقول مجبر غير مختار ، ولن يضرنا بقاؤه على الحياة ، فأمثاله كثيرون ، وسيتعظ حتماً فينكل عن مثل ما فعل ، وفى إبقائه سليماً دليل لمؤتمن الخلافة على أننا لم نعر الأمر أهمية ، وأننا عفونا عنه دون أن نؤاخذه .

صاح صلاح الدين غاضباً : عفونا عنه !! ماذا تقول .

فعجل القاضى يعلن أنه يريد أن نترك مؤتمن الخلافة يروح ويغدو غير خائف لأنه لا شك قد علم أن رسوله وقع فى قبضتنا ، ولعله يعد حرس القصر للمقاومة منتظراً استدعاءه ومجابهته ! ولا داعى الآن أن نقف أمام خمسين ألفاً من الحرس هم كل ما لدى الخليفة من جنود السودان ! إنما ننتظر عدة أيام ، حتى يهدأ باله ويتأكد من عفو الوزير ، وإذ ذاك ينتقل إلى قصوره غير محتفل ، وهنا نستطيع مداهمته وقتله ! فإذا ثار أتباعه من الحرس فلن يجتمعوا تحت أمر قائد واحد ، ولابد أن فيهم من يجنح للسلامة فتكون لنا الغلبة !

فنهض صلاح الدين مبتسماً ، وعانق عبد الرحيم محيياً ، وقال له : لله أنت من ناصح أمين .

أما المؤتمن فقد جمع الحرس وأعد العدة للمجابهة ، ولكنه ينظر فيجد اليهودى طليقاً ، ولا يرى من صلاح الدين ما ينبئ عن التحرش به ، وقد تحيل للقائه ليخبر ما لديه ، فآنس منه ترحيباً وملاطفة ، فظن أنه لم يأخذ الأمر مأخذ الجد ، أو ظن أن الرسالة مكذوبة ، إذ كانت دسيسة على المؤتمن ليقع الشقاق وقد ارتاح لهذا الخاطر ، إذ كفاه شر ما كان يتوقع ، وترك الحيطة فى رواحه وغدوه ، وعيون الوزير تراقبه أنى سار ، حتى جاءه أنه ذهب منفرداً إلى قصره بقليوب ، وسيبيت به ، فأعد العدة ، وداهمه فى المساء حيث لا يستطيع مقاومة ، وقتله بعد أن عرض عليه الرسالة .

وشاع الأمر فى القاهرة ، فهاج الحرس ، وزحفوا لمقاتلة الوزير ، وكأنهم دبروا ذلك من قبل ، إذ دعاهم مؤتمن الخلافة أن يأخذوا بثأره إذا نابه حادث غير متوقع ، فلا يصفو الأمر لصلاح الدين ، بل كأن العاضد نفسه دعاهم إلى الأخذ بثأر حارسه الأكبر ، إذ ما كاد القتال ينشب ، حتى اندفع نساء القصر ومن به من الغلمان والخدم إلى رمى جنود الشام بالآلات الثقيلة ، وهنا أمر صلاح الدين بإحراق مكان العاضد من القصر ، واشتعلت النار ، ففزع الخليفة ، وخرج يقول : أنا مع جنود الشام ، فدونكم حرس القصر من السودان ، فهم الأعداء .

وسمع جنود الحرس ما قال العاضد ، فوهت عزائمهم ؛ لأنهم كانوا يقاتلون فى سبيله ، وتعقبتهم سيوف صلاح الدين ، ففروا هاربين إلى الصعيد ومنه إلى بلاد النوبة ، إذ ليس أمامهم بعد هذه المواجهة غير الاستئصال ، وهكذا خمدت الفتنة ، واطمأن صلاح الدين .

قال الراوى : وجلس القاضى مع القائد المنتصر ، فرأى أن النصر قد أحكم بما سن من قبل ، فحمد الله على توفيقه ، ثم فاجأه صلاح الدين بقوله : وماذا سنفعل الآن بأمير المؤمنين العاضد ؟

فقال القاضى : لم يحن قطاف الثمر بعد ، لأن أشياعه فى مصر كثيرون من العامة ، وما بنا من حاجة إلى إغضابهم .

فقال صلاح الدين : ولكن إلى متى !؟

فرد القاضى : مهلا يا مولاى ، فشمسه فى الأصيل ، ولابد أن يحين الغروب .

حديث الخطباء

توجه الناس إلى صلاة العيد الأكبر بالمسجد الجامع فى الإسكندرية ، فسمعوا أصداء التكبير والتهليل قبل أن يصلوا إلى المسجد ، وامتلأ المكان على سعته بمن خفوا لأداء الصلاة ، حتى إذا انتهوا منها صعد الإمام عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى فألقى خطبة مست أوتار القلوب ، بجمال وعظ ، وحلاوة استشهاد ، وروعة تأثير ، وحسن إلقاء . وما كاد يفرغ من كلمته ، وينزل لمصافحة السامعين ، حتى تقاطر عليه الملأ ، يهنئون بالعيد ، ويدعون بالبركة والخير ، وسمع من الخارج صوت المطر يسح ويهطل ، فجازف من جازف بالخروج ، وانتظر من انتظر ، وتطلع الإمام عبد الكريم فوجد على قرب صاحبيه الشيخ أبا الحسن الإبيارى أستاذ الفقه والأصول فى عصره ، وابن الحاجب علامة النحو والصرف ، ومعهما عالم مغربى لا يعرفه ، وقد نسبه إلى المغرب بما يلبس من أزياء القوم ، فخف عجلا يدعوهم إلى الانتظار فى حجرة الخطيب حتى يهدأ المطر ، فخفوا معه شاكرين .

وبدأ الحديث العلامة ابن الحاجب فأعلن أنه سر كثيراً بخطبة العيد ، لأن عبد الكريم تناول موضوعه بأبلغ ما يقال استشهاداً وتعليقاً وتعبيراً ، وقد راعى مقتضى الحال فأتى بما يفهم العامة ويروق الخاصة ، ثم اقترح على الخطيب أن يجمع خطبه الأسبوعية فى كتاب يطالعه أهل العلم ، لأنه يلمس عند بعض الخطباء قصوراً لا ينبغى السكوت عليه .

فقال الإمام أبو الحسن الإبيارى : إن بعض الخطباء معذورون فى هذا القصور فقد درسوا مسائل الفقه وكتب اللسان ، ولكنهم لم يدرسوا طرق الوعظ وأساليب الخطباء ، وأنا أصارحكم أنى مع تبحرى فى علوم الفقه والأصول والتوحيد ، لا أجرؤ على ارتقاء المنبر ، لأن التدريس شىء ، والخطابة شىء آخر ، وكل ميسر لما خلق له .

فتبسم ابن الحاجب ، وقال : لقد تواضع شيخنا الإبيارى ، فهو بليغ مؤثر وهذا ضيف الإسكندرية معنا ، أتريد أن يدون عن الشيخ أنه لا يحسن الخطابة ، فيشيع عنه فى المغرب ، وعن علماء الإسكندرية ، ما لا يطابق الواقع يا سيدى !

فالتفت عبد الكريم إلى الضيف وتساءل فى ابتسام : ومن يكون عالمنا المغربى الذى أسعد بلقائه الآن !

قال ابن الحاجب : ألا تعرفه ، إنه نزيل الإسكندرية منذ ثلاثة أشهر ، هو العالم الرحالة الكبير شيخنا محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى .

فنهض عبد الكريم لمصافحة ابن جبير ، وقال له : سمعت عنك ، وعن فضلك الكبير ، وأشكر صاحبى أن مهدا السبيل إلى لقائك :

فقال ابن جبير : أشارك العلامة ابن الحاجب إعجابه بخطبة اليوم ، فقد وصفها وصفاً مطابقاً لما أراه ، وسأعمل أثناء مقامى بالإسكندرية على أن أستمع ما تقول أيام الجمع والأعياد .

فبادر عبد الكريم يقول : أنت يا شيخنا ابن جبير قد طفت بلاد المشرق ورأيت العلماء وسمعت الخطباء فى الأندلس وتونس وفاس ودمشق وبغداد ومكة وغيرها من حواضر الإسلام ، أفتحتاج بعد رحلاتك العلمية المثمرة أن تستمع إلى عبد الكريم بن عطاء !

فقال ابن جبير : يقولون : إن زيادة الخير خير ، فلماذا تحرمنى المزيد .

وتطلع الإمام أبو الحسن الإبيارى إلى ابن جبير وقال : لا يزال المطر يهمى متدفقاً ، وقد يمتد بنا الوقت فى حجرة عبد الكريم ، وهى مناسبة سعيدة تدعونا إلى أن نستمع بعض حديثك عمن رأيت من خطباء الإسلام .

فقال عبد الكريم : بعد أن نتناول قليلا من الطعام ، فاليوم يوم عيد ، وقد رأى المؤذن اجتماعنا ، فذهب مشكوراً وأحضر ما وجد ، فلنأكل أولا ثم نتمتع بحديث ضيفنا المغربى .

قال أبو الحسن لعبد الكريم : تقول المغربى ، والرجل أندلسى !

فأسرع ابن جبير يقول : لم يخطئ صاحبنا ، فقد رأيت المشارقة جميعاً يطلقون على الأندلسيين مغاربة ، لأن المغرب لديهم ما سوى المشرق !

وتقدم المؤذن بالطعام ، فأكل القوم ما شاءوا ... ثم قال عبد الكريم لابن جبير : أجب رغبة أستاذنا أبى الحسن ، فتحدث عن ذكرياتك عن الخطباء ممن لاقيت ، وحتماً سنستمتع ونفيد .

قال ابن جبير : عن أى الخطباء أتحدث ، لقد رأيت الخطيب الصبى ، والخطيب الدعى ، والخطيب الرسمى ، والخطيب المؤثر الداعية ؟ فبأى خطيب أبدأ ؟

قال ابن الحاجب : تبدأ بالخطيب الصبى ، لأن أمره سيكون عجباً من العجب ، فأين ذهب العلماء وذوو الأسنان من الشيوخ !؟

قال ابن جبير : لا عجب من شىء حين تقف على جلية الأمر ، فقد اعتاد أهل مكة أن يجعلوا العشر الأواخر من شهر رمضان مجال احتفال بمن حفظ القرآن من صبيان مكة ، وهم غالباً ما يكونون بين الثانية عشرة ، والخامسة عشرة من السنين ، فإذا حان الموعد أقيم الاحتفال ، وخطب الصبى ، بعد تمهيد .

فمن ذلك ما رأيت فى الليلة الخامسة والعشرين من رمضان ، إذ استعد أحد الموسرين لاحتفال ابنه فى هذه الليلة ، فأعد ثريات مصنوعة من الشمع على هيئة غصون ، تحمل أنواعاً من الفواكه الرطبة واليابسة ، وأقام وسط الحرم شبه محراب ربطت فى أعلاه عيدان تتدلى منها المصابيح ، وسمر ما حول المحراب بمسامير حديدية الأطراف غرس فيها الشمع ، وأوقدت الثريات فى أغصان الفواكه ونصب المنبر قبالة المحراب محلى بالكسوة الحريرية الملونة ، واستنار الحطيم والركن بمشاعل النور حتى صار الحرم نهاراً تسطع فيه الشمس ، وجاء الصبى فقرأ ختام القرآن من قصار السور فى المحراب ، ثم برز منه إلى المنبر فى تواضع وحياء ، فصعد إلى أعلاه وألقى السلام على الحاضرين ، وابتدأ يخطب فى خشوع ولين متحدثاً عن فضائل القرآن الكريم ، وحضر القراء بين يديه ، يقرءون الآية ويسكتون ، فيبدأ الخطيب الصبى بشرح ما قرءوا من الآيات ، ثم يعود للخطبة بكلام يتصل بمضمون ما قرئ من الذكر الحكيم ، ويسكت فيبدأ القراء التلاوة ويسكتون لينطلق الخطيب الصبى فى شرح ما قرئ متبعاً ذلك بوعظ رائع يتصل

بالمقروء ، وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدم يمسكون أنوار الشمع بأيديهم ، ومنهم من يمسك المجمرة الموقدة ذات العنبر والمسك ، فإذا بلغ الخطيب مبلغاً من التأثير ، ترنح السامعون ورفعوا أيديهم قائلين : يارب ، يكررونها أربعاً أو ثلاثاً بصوت منغم ذى ترنيم ، فيرد عليهم السامعون حتى يتجاوب الحرم بالذكر الرنان ، فإذا فرغ الخطيب الصبى من خطبته قام الجميع إلى موائد الطعام والفاكهة محملة بأجمل ما يشتهى ويستطاب ، فيتناولون طعام السحور كما أعده والد الصبى ، ثم يذكرون الله فرادى وجماعات حتى يحين الفجر فيصلوا ولا تسل عن فرحة الأهل بالخطيب الصبى وسرورهم بتوفيقه ، وإقبالهم على الدعاء له ، راجين أن يشمله الله بعونه فى مستقبله ببركة القرآن الكريم . »

قال أبو الحسن : ذلك مظهر رائع من مظاهر الاحتفال بحفظ كتاب الله ، ولعمرى لقد سبق المكيون أبناء البلاد الإسلامية بما أعدوا من احتفال يلهب العزيمة ويبعث الحمية فى نفوس الأطفال ، إذ كل يود أن يكون صاحب يوم مشهود فى إحدى الليالى العشر من رمضان الكريم .

قال ابن الحاجب : قد ابتدأت بالخطيب الصبى ، فثن بالخطيب الدعى ، لنروح عن أنفسنا بما صنع !

قال ابن جبير : كنت بالمدينة المنورة ، يوم الجمعة فى السابع من محرم ، فشاهدت ما أسفت لحدوثه بالحرم النبوى الشريف ، إذ جاء الخطيب ، وكان شيخاً غريباً عن المدينة من إحدى بلاد العجم ، وقد استأذن الخطيب الراتب ، فأذن له عن حسن ظن — فصعد إلى المنبر فى وقار مصطنع ، وخطب الخطبة الأولى حاثاً على الصدقة والإحسان ، ثم جلس للاستراحة بين الخطبتين ، فأطال الجلوس والتفت الناس فرأوا أناساً من أتباعه ، يخترقون الصفوف ويحملون مناديل واسعة يجمعون فيها المال وخواتم الذهب وأقراط الحلى ، لأنهم لم يتورعوا عن الذهاب للنساء أيضاً فى مكانهم من الحرم ، وفيهم من يطلب أردية الحرير بإلحاح ، ومن يمد يده ملحاً إذا لم يجد الكثير من العطاء مستقلا الدينار والدينارين ، ثم يكررون المرور على المصلين ، والخطيب جالس متنمر ينظر إلى أعوانه وكأنه يستزيدهم فيما يصنعون حتى كاد الوقت ينقضى ، فضج الناس ونادوا الخطيب أن يكمل

أو ينزل ، وهو قاعد يتنمر فى وجوه القوم غير عابئ حتى نفد الصبر ، وخاف الثورة فقام ليلقى الخطبة الثانية وقد اجتمع له من ذلك السحت شىء عظيم كومه أمامه ، وأخذ يشده فى الأكياس ، ثم تقدم عملاءه إلى مناخهم فى منازل العجم ، فكان هذا اليوم بغيضاً بما صنع هذا الدعى وما جمع من المال الذى أعتبره حراماً لأنه جمع لمن لا يستحق !

قال عبد الكريم بن عطاء وقد ضرب كفاً بكف : أهذا يحدث فى حرم رسول الله ؟ وفى مسجده الطاهر الشريف ؟ أين ذوو الغيرة ، ولم سكتوا حين تأخرت الخطبة الثانية وأبطأت الصلاة !؟

فأجاب ابن الحاجب : إن وزر هؤلاء الذين جادوا بالذهب والفضة لهذا الدعى كوزره ووزر أتباعه ، إذ كان عليهم أن يمتنعوا عن الإحسان للمسىء .

فأطرق أبو الحسن ، ثم قال موجهاً حديثه لابن الحاجب : لا تنسى أن العامة هم العامة فى كل زمان ومكان ، وقد جذبهم الدعى بما قال فى الخطبة الأولى عن فضل الصدقات ، وكريم مثوبتها عند الله ، وقد أثر فى النساء وهن رقيقات المشاعر فدفعن الحلى والأساور والأقراط ، ولمن ؟ لكذوب محتال ! دعونا من سيرته ، ولنستمع لابن جبير إذ يتحدث ، عن سواه !

قال ابن جبير : سأحدثكم عن الخطيب الرسمى ، وأعنى به هذا الذى يلتزم من تقاليد الخطبة ما يلتزم الملوك حين يتطلعون إلى الرعية من الأوج ، فقد شاهدت من شأن هذا الخطيب ما لم يغب مشهده عن ذاكرتى ، وتلك تقاليد لا يعرفها السلف ، بل لم تكن لخلفاء بنى العباس حين كانوا يصعدون المنابر فى الجمع والأعياد.

صاح عبد الكريم : شوقتنا يا رجل ، فهلم .

قال ابن جبير : ذهبت لصلاة الجمعة لأول عهدى بمكة المكرمة ، فأذن الظهر ، وانتظرت أن أرى شيخاً متواضعاً يصعد المنبر كعهدى بخطبائنا فى الأندلس ، ولكنى سمعت فرقعات سوط ترن على الأرض ، فتطلعت فإذا حراس يتقدمون شيخاً مهيباً يدخل علينا من باب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد عرف بباب النبى لأنه مر به يوم حجة الوداع ، وقد لبس الخطيب سواداً واسعاً موشى

بالذهب ، وعلى رأسه عمامة سوداء ذات حلى ذهبية ، وفوق السواد طيلسان حريرى رقيق يشف عما تحته ، وجعل يتهادى بين رايتين كبيرتين يحملهما خادمان من خدم المسجد ، وجميع هذا السواد الذى يجلله من رأسه إلى قدمه من هدايا الخلفاء العباسيين لشيوخ الحرم ، ثم رأيت ساعياً يتقدمه وفى يده عود مخروط أحمر ، قد ربط فى رأسه حبل من الأديم المفتول ، وفى طرفه عذبة ينفضها بيده فى الهواء نفضاً فتأتى بصوت مرتفع عال يسمع داخل الحرم وخارجه ، وكأنه إيذان بوصول الخطيب ، ولا يزال الساعى ينفض ما فى يده حتى يقترب من المنبر ، وما إن دنا الشيخ من منبره حتى عرج على الحجر الأسود فقبله قبل الخطبة ، ورئيس المؤذنين ينتظره ليسعى أمامه لابساً السواد ، وعلى عاتقه سيف يمسكه بيده ، وعندما صعد الخطيب الدرجة الأولى من سلم المنبر تسلم السيف من رئيس المؤذنين ، ثم ضرب به الخشب ضربة أسمع بها جميع الحاضرين ، وجعل يكرر الضرب كلما صعد درجة من درجات المنبر ، حيث إذا ارتقى أعلاه التفت عن يمينه وشماله قائلا : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد الناس عليه السلام ، ثم قعد وقام عدة مؤذنين ينطقون بالأذان بين يديه فى لسان واحد ، لايختلف صوت عن صوت فى سكون أو حركة ، حتى إذا انتهوا بدأ يلقى الخطبة الأولى متئداً فى نبراته وإيقاعه ، وجلس بعدها فضرب بالسيف ضربة خامسة ، بعد الضربات الأربع الأولى ، ثم قام فتلا الخطبة الثانية كعهده فى الخطبة الأولى نبرات وإيقاعاً وسكينة ، وقد رأيت من قام فنشر رايتين سوداوين فى أول درجات المسجد ، وأعطى طرفهما لخادمين عن شمال ويمين ، كان ذلك أثناء الخطبة لاقبلها ، وكنت أستحسن أن يفعل ذلك بعد الصعود مباشرة ، وقبل الضربات الخمس ، ثم انتهت الصلاة ، فذهب الخطيب من محرابه كما جاء ، فوقه الرايات وأمامه الساعى يضرب بالسوط فيحدث الفرقعة الرنانة ، وقد تطلع إليه السامعون فى إيابه كما تطلعوا إليه فى مجيئه ! وأخذوا يتفرقون !

هذا وصف لما شهدت ، وقد عن لى أن أصف هذا الخطيب بالشيخ الرسمى ، لأنه يجىء فى موكب ويرجع فى موكب !

قال عبد الكريم بن عطاء : مشهد فخم يا ابن جبير ، فهل يتاح لنا مثله فى الإسكندرية ؟

فرد ابن الحاجب : مهلا يابن عطاء ، لقد جاء المسلمون ليتعظوا بما يقال ، لا ليشهدوا الاحتفال ! وقد بقى أن يحدثنا ابن جبير عن الخطيب المؤثر الداعية ، وأظنه بيت القصيد .

فأسرع ابن جبير يقول : هو بيت القصيد فعلا ، ولعلكم لاتعرفون أنه الفقيه المؤرخ الكاتب الداعية الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على الجوزى !

فقال أبو الحسن الإبيارى : ابن الجوزى أشهر من نار على علم ، ولماذا أخرت الحديث عنه يارجل ! كان يسرنا أن تبدأ به .

قال ابن جبير : لم أشهده خطيباً يوم الجمعة ، إذ لم يتح لى ذلك فى بغداد ، ولكنى شهدت مجلسين من مجالس وعظه ، فكان نادرة النوادر .

فرد عبد الكريم يقول : خطبة ابن الجوزى على منبر الجمعة قريبة من درسه الدينى بالمسجد فى غير يوم الجمعة ، فهات ما لديك !

قال ابن جبير : لا أتحدث واصفاً مشاعرى الخاصة نحوه ، فهذا مما يمتد به القول ، وحسبكم أن أقول إنه الأول فى بابه ، إذ لم أشاهد من يفوقه وعظاً زاجراً وإرشاداً باهراً ، واستشهاداً حاضراً ، وزفرة صاعدة ، ودمعة خاشعة ، وحنيناً يفلق الصخر ، وأنيناً يذيب الجماد ، ومن عادته أن يلقى درس الوعظ على المنبر كما يفعل الخطباء ، فإذا جلس بدأ القراء فتلوا من كتاب الله ماتلوا ، وعدتهم عشرون قارئاً ، يتنزع الاثنان والثلاثة منهم آية كريمة يتلونها على نسق وتطريب ، ثم تأتى طائفة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، فيتداولون الآيات متتالية من سور مختلفة فى كتاب الله مرتلات أجمل ترتيل وأحلاه ، فإذا فرغوا نهض ابن الجوزى فى إيراد خطبته ، فانتظم أوائل الآيات المقروءة فى أثناء خطبته ، فقرأ فقرأ ، وأتى بها على نسق القراءة ، لامقدماً ولا مؤخراً ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منهما فلو أن أبدع خطيب غيره تكلف ترتيب ماتلاه القراء لعجز عن ذلك ، فكيف بمن ينتظمها جميعها فى نسق وعظه مرتجلا لساعته « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون »(١) ، فحدث ولا حرج عن البحر ، ثم يأتى بعد الخطبة الخاصة

(١) سورة الطور ، الآية ١٥

بما تلا القراء من آيات الذكر برقائق ساحرة من وعظه ، تطير لها النفوس اشتياقاً ، وتذوب القلوب احتراقاً ، وإذ ذاك يعلو الضجيج ، ويعلن التائبون توبتهم بالصياح ومنهم من يأتى لشعر ناصيته فيجزه ، ومن يغشى عليه ، فيرفع بالأذرع إليه ، ووالله لو لم أركب ثبج البحر ، وأعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة رابحة ، والوجهة ناجحة ، وفى أثناء المجلس تطير إليه الرقاع بالأسئلة الدينية ، فيجيب عليها بأسرع من طرفة العين ، وربما دار أكثر حديثه على إجابة هذه المسائل فى قوة ذاكرة ، وبديهة حاضرة « إن هذا لهو الفضل المبين »(١).

ومن عجيب أمر ابن الجوزى أنه فى أثناء وعظه ينشد أشعاراً من النسيب ، مبرحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشعل النفوس وجداً ، ويعود موضعها من النسيب زهداً ، وقد شاهدت الكثير من مجالس الوعظ ببغداد ، فلم أستطب لها ذكراً بالإضافة لمجلس هذا الذكر ، وشتان بين قول وقول .

ثم سكت ابن جبير ، فقال أبو الحسن : أمتعتنا يا ابن جبير ، وفضلك علينا اليوم كبير ، ولابد أن تصحبنى لأسعد بزيارتك الآن مع هؤلاء الرفاق فى منزلى ، فاليوم يوم عيد ، هيا ياقوم ، فبادروا مبتهجين !

---

(١) سورة النمل ، الآية ١٦

مروءة الصعاليك

اشتعلت النار فى قرية من قرى الريف ، وعلا الصراخ المزعج فى كل مكان ، ولم يسهل الاتصال بالمدينة لترسل رجال المطافئ ، فكان الريفيون والريفيات يسرعون للإنقاذ بشتى الوسائل ، هذا يقتحم اللهيب ، وتلك تحمل صفائح المياه ، ودامت المعركة الملتهبة ثلاث ساعات حتى خمدت النار .

وجلس الناس يتساءلون عن سبب هذه الكارثة المروعة ، ثم انتقل الحديث إلى من بذلوا الهمم القوية فى الإطفاء ، فراعنا أن ذوى الشهامة النادرة نفر من الشباب المتعطل ، الذين تحوم حولهم الشبه ، إذ سيقوا إلى القضاء حيناً ، وذاقوا ألم السجن فى بعض المرات ، هؤلاء هم الذين واجهوا النار الحامية ، وحاصروا اللهيب فى أضيق مكان ، والمنزل المحترق ليس بمنزل أحدهم ، وسواهم من شرفاء القرية ووجهائها الرسميين ، لم يبذلوا شيئاً ما ، بل لم يبارحوا منازلهم ليروا هول الفجيعة ما دامت فى مكان بعيد ! أفيكون هؤلاء الذين وقفوا وسط اللهيب شهامة وحمية أقل شأناً لدى المجتمع من هؤلاء الذين تحصنوا فى منازلهم ولم يشاءوا أن يبعثوا حتى بخدمهم وأتباعهم لمصاولة الحريق ! أى منطق هذا ؟ وأى عاقل يصدق !

وكنا ثلاثة ممن ألموا بالكارثة ، واكتفوا بدور المشاهد لعجزهم عن المشاركة العملية ، حتى إذا هدأت العاصفة جلسنا فى ساحة المسجد ، نزجى عبارات الثناء لمن نهضوا بالعبء دون انتظار للجزاء ، ولا أدرى كيف جرت على لسان أحدنا هذه العبارة ! بارك الله فى مروءة الصعاليك !

جذبتنى الكلمة الموحية إلى آفاق بعيدة ، فقلت إنهم صعاليك أولو مروءة حقاً ، وإذا كان منهم من أذنب فى سالف عهده ، فقد خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم .

فقال أحدنا رداً علىّ : أتقول إنهم صعاليك أولو مروءة ، ومن معانى الصعلكة

السرقة والنهب العلنى والغصب ، فكيف يكون السالب السارق المغتصب من ذوى المروءات !

قلت : يا أخى ، إن كل إنسان مهما ارتفع — إلا من عصم الله من الأنبياء — يحمل بين جنبيه بذور الشر مجاورة معانى الخير والفضيلة ، وكل إنسان مهما انخفض يحمل بين جنبيه بذور الخير مجاورة معانى الشر والرذيلة ، وهؤلاء الصعاليك الذين قاوموا الحريق قد استجابوا إلى ما يحملون من نوازع الخير ، كذلك كان بعض الصعاليك فى الجاهلية والإسلام يشرئبون إلى المروءة فى كثير من المواقف ، وأحاديثهم المجيدة فى مضمار التضحية قد سجلتها صحف الأدب وكتب التاريخ ؟ فمن الصعاليك ذوو مروءات شهدها القدماء فسجلوها ، وشهدنا اليوم نظائر منها ، أفلا نعترف بها ، والدليل واضح ، والشاهد ملموس .

وكان ثالثنا ، وهو أوسعنا اطلاعاً ، وأكثرنا غوصاً ، وأدقنا ملاحظة ، يستمع مبتسماً ولا يشارك ، فقلت له : عجباً أى عجب ! إننا نتحدث عن مروءة الصعاليك ، فنناقش الرأى من أقرب وجوهه التى ندركها ، وأنت صامت هكذا ، كأنك بمنأى عما نقول .

قال الصديق : وماذا تريدان منى ، وقد أوجزتما القول بما يغنى عن التفصيل .

قلنا معاً : أنت قارئ دارس ، ولك رأى فى الصعاليك لامحالة ، ونريد أن نقف على ما لديك من أنبائهم ، فهيا .

قال الصديق : لا أظننى أسمعكما ما تجهلان ، فقد وضعت عن الصعلكة كتب متعددة ، ولكنى سأحاول أن أصور انطباعى نحو هؤلاء ، وهو انطباع خاص لا ألزمكما بقبوله .

قلنا : تفضل ، فالحديث مشوق جذاب .

فقال صاحبى : لقد فرغت زمناً ما أبحث عن هؤلاء ، إذ قرأت مصادفة فى بعض كتب الأدب أن معاوية بن أبى سفيان ، قال بعد أن تولى إمارة المؤمنين : (لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم) ، كما قرأت أن عبد الملك ابن مروان قال : (ما يسرنى أن أحداً من العرب ممن لم يلدنى قد ولدنى إلا عروة ابن الورد) ؛

قرأت هذين النصين عن خليفتين كبيرين من خلفاء الإسلام ، فزاد تعجبى ، لأنى أعلم أن عروة بن الورد كان صعلوكاً يقطع الطريق ، ثم جمع حوله بعض من يذهبون مذهبه ، فقادهم فى غزواته السالبة الناهبة ، وصار بهم أميراً للصعاليك ، أفيكون مثل هذا الناهب السالب عظيماً فى عين معاوية حتى يتمنى مصاهرته ، وهو من بنى عبد شمس الذين يناطحون بنى هاشم فى سادة قريش !! ثم يأتى عبد الملك ابن مروان فيشتهى أكثر مما اشتهاه معاوية ، إذ يرغب أن يكون عروة بن الورد أحد آبائه ! أفحقيقة هذه أم خيال ؟

لقد تتبعت سيرة الصعلوك عروة ، فوجدته ذا أمل واسع فى إسعاد الناس ، إذ نظر فى بيئته فوجد الأغنياء ينهبون مال الفقراء ، ووجد كثيراً من الشجعان لايحسنون الارتزاق ، إذ انسدت فى وجوههم أبواب الكسب بما جمع الأغنياء لأنفسهم من أموال أقاموا دونها الأسداد ، وحصروا خيرها فى قلة من أهليهم وذوى قرابتهم ، أما الحراس والعبيد والفعلة فلا يجدون غير التافه من الفتات ، وأما غير هؤلاء فحرام عليهم أن يسألوهم بعض ما يملكون ، هنا فكر عروة فى عمل خطير حقاً ، خطير من الناحية الخلقية ، وخطير من الناحية الاجتماعية .

فمن الناحية الخلقية أنه التزم بعهد صارم ، ألا ينهب مالا لسيد كريم ، يغمر الناس بمعروفه ، ويبذل بعض خيره للناس ، وكم وقع تحت قبضته من قوافل تنتمى إلى بعض الكرماء من ذوى العطاء ، فعف عنها ، وأمر أتباعه بالتزام ما تعاهدوا عليه من صيانة حقوق الكرماء .

أما الناحية الاجتماعية فتتجلى فى قسمته العادلة بين الفقراء ، فكان إذا أحرز غنيمة قدر قيمتها باعتناء ثم وزع على كل شخص من أتباعه نصيباً عادلا بحيث لم يتميز بشىء ما عن تابعيه ! وقد غزا مرة ، فوقعت سبية جميلة فى حوزته ، فأراد أن يعتقها ويتزوجها ، فنازعه بعض أتباعه ، فغضب عليه لوقت محدود ، ثم رجع إلى نحيزته ، فخير الجارية بينه وبين صاحبه ، فأيهما أرادت كانت زوجته ، وقد رضيت عروة عن سماح ، فلم يبق وجه للاعتراض .

قال أحدنا : ليس الصعاليك جميعاً من طراز عروة ، ففيهم لصوص أوشاب لا يرعون إلا ولا ذمة ، وقد وصفوا بالخلعاء ، لأن قبائلهم خلعتهم عنها ، فلا تتحمل

أوزارهم ، ولا تأخذ لهم بثأر إذا قتلهم عدو ، كما وصفوا بذؤبان العرب ، لأنهم يسلكون مسلك الذئاب غدراً ووحشية وولوغاً فى الدماء ، ومنهم : تأبط شراً ، والسليك بن السلكة ، وأبو التشناش ، وعمرو بن براقة ، وصخر الغى ، وأبو الطمحان القينى ، والأحيمر السعدى ، ومن لايحصون ، فهل هؤلاء ذوو مروءات ! ؟

فعجل صديقنا المثقف الطلعة يقول : أنا لم أقل إن صعاليك العرب جميعهم ذوو مروءة ، ولكنى أختص بعض من تواترت أدلة مروءتهم كعروة بن الورد .

قلت : وقد لانجد سواه ، فابتسم صديقى ، ونظر إلى هادئاً ، ثم قال : لاتحجر واسعاً ياأخى ! إن الصعاليك يوجدون فى كل زمان ، وإذا وجدوا فسيكون منهم الخير لامحالة ! وقد رأيت صعاليك اليوم هبوا لإطفاء الحريق حمية ومروءة ، أفتنكر فضل هؤلاء ؟

قلت : أتقول فى كل زمان ! إننا سنطالبك باستقصاء العصور عصراً عصراً لتثبت الدليل !

فقال الأديب : هذا كثير .

قلنا معاً ، فاختر بعض النماذج ، ولا تنس عصر عروة !

فبادر يقول : فى عصر عروة من الصعاليك من بذل روحه فداء لضيوفه ! وهو أبو خراش الهذلى ، إذ كان فارساً بطلا سريع العدو ، لا تسبقه أسرع الخيول ، وقد راهنه الوليد بن المغيرة على السباق بينه وبين فرسين أعدا للرهان يوم الحلبة ، فقال له أبو خراش : وما تصنع إذا سبقت فرسيك ؟ فقال المغيرة : هما لك ، ظناً منه أن ذلك لن يكون ، وتجمع الشاهدون ، ليروا فوز أبى خراش ، فظلوا يتعجبون .

قلت : هذا شىء ، ولكن ما ذكرت عن مصرعه فداء ضيوفه شىء نادر نريد أن نلم به ، فكيف كان ذلك ؟

قال صاحبى : نزل على خيمته بعض اليمانيين فى ليلة شاتية ، ولم يكن لديه غير شاة واحدة ، فعجل بذبحها ، وتطلب الضيوف الماء ، وهو من الخيمة على بعد ، فدلهم على مكانه ليذهبوا فيحضروه ، ولكنهم تعللوا بالظلام وقسوة البرد ،

فخرج بقربته ليحمل الماء إلى أضيافه ، وكانت قدمه عارية ، فلدغته أفعى سامة ، فجعل يئن تحت القربة ، ولم يشأ أن يستريح قبل أن يشرب القوم ، فتحامل على نفسه ، حتى بلغ موضعهم ، وقدم الماء ولحم الشاة ، ولم يرد أن يخبرهم بما يسرى فى بدنه من السم ، حتى لايفسد عليهم ماقدمه من طعام ، ونام القوم ليستيقظوا على صوت النادبة تنعى أبا خراش الهذلى ، وتناقل القوم الحادث مستائين ، حتى بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فتألم كثيراً ، وقال : لو كنت فى الجاهلية قبل أن أشرف بتربية الإسلام ، لأمرت ألا يضاف يمانى بعد هؤلاء !

قال صاحبى : وما ذنب هؤلاء ؟

قال الأديب : لقد دفعوا الرجل إلى السير فى الظلام ، كى يحضر لهم الماء ، وكان من واجبهم أن يتركوه ليهيئ لهم لحم الشاة ، ويذهب بعضهم إلى القربة فيحضرها ! أى إحساس جامد كان عند هؤلاء ؟

قلت : وما ذنب اليمانيين لدى عمر ؟

فقال الأديب : تلك نفثة مصدور ، إذ استنكر أمير المؤمنين أن يجلس الضيوف كعجائز النساء ، فلا يسعوا ليستقوا ، اتكالا على حماسة مضيفهم الصعلوك ! وقد طالعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه استشهد بقول أبى خراش حين كان يسعى بين الصفا والمروة :

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأى عبد لك لا ألما !

قال صاحبى : آمنت بمروءة بعض الصعاليك ، ولا نقاش يحتمل فى هذه القضية بعد ، ولكنى أستزيد من قصص الرجولة لدى هؤلاء .

فرد الأديب يقول : إذا تركنا صعاليك الجاهلية وصدر الإسلام إلى عصر الثقافة والمناظرة فى عهد بنى العباس ، فإن التاريخ يذكر عن بعض هؤلاء دراية تامة بالفقه والشعر والتاريخ ، إذ كانوا يتناظرون فى تفضيل الشعراء ، ويوازنون بين الجاحظ وسهل بن هارون من الكتاب ، وقد حللوا صنيعهم فى الغارة والسلب فقال ابن سيار الكردى وهو من رؤسائهم : إننا نبحث عن تجار بغداد ، فمن نجده يؤدى الزكاة لا نتعرض لعروضه أو نهاجم قافلته ، ومن نعرف عنه الشح ،

والامتناع عن أداء حق الله ، فنحن فى حل من اغتصابه إذ خان أمانة الله ! وأنا لا أؤيد هذا المنطق ، لأن ولى الأمر هو المسئول عن أداء الفرائض ، ولكنى أريد أن أقول : إن فى القوم من يتعاطون النظر ، ويتصدرون للأحكام ، صائبة كانت أم مخطئة ، فلهم فلسفتهم دون نزاع !

لقد حدث بعض الأدباء فى القرن الرابع الهجرى ، فقال :

« كنت مسافراً ببعض الجبال ، فخرج علينا ابن سيار الكردى ، فقطع علينا الطريق ، وكان بزى الأمراء ، فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه ، فوجدته يروى الشعر ، ويفهم النحو ، فطمعت فيه ، وعملت أبياتاً مدحته بها ، فقال لى : لست أتأكد أن هذا من شعرك ، ولكن اعمل شعراً على قافية بيت ذكره لى وسأمهلك قليلا ، فعملت فى الحال ثلاثة أبيات ، فقرأها ابن سيار وقد برقت أسارير وجهه ، وقال فى سرور : أى شىء أخذ منك لأرده إليك ، فذكرت ما غصبه أتباعه من مالى ، فرده إلى سريعاً ، ثم أخذ كيساً من أكياس نهبها لبعض التجار ، وبه ألف درهم ، فوهبه لى ، فجزيته خيراً ورددته ، فقال لى متعجباً : ولم لا تأخذه ؟ فوريت فى كلامى ، فغضب وقال : أحب أن تصدقنى ، فقلت وأنا آمن ؟ فقال : نعم ، قلت : لأنك لا تملكه ، وهو من أموال القافلة التى نهبت الآن ، فقال لى : أنت قليل الاطلاع ، ألم تقرأ ما كتبه الجاحظ فى كتاب اللصوص ، قلت : وماذا كتب الجاحظ ؟ قال : روى أبو عثمان عن بعض المجترئين قوله : إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس ، لأنهم منعوها ، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص فقراء إليها ، فإن أخذوا أموالهم كان ذلك مباحاً ، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة ، ثم رمى بالكيس إلى ، فأخذته حذراً من غضبه !

قلت : وما رأيك فيما جاء بكتاب الحافظ ؟

فنظر الأديب محتداً وقال : أنا أعرض وجهة نظر يقولون بها ، وقد سبق أن قلت أنى لا أؤيدها ، ففيم اللجاج ؟

أدركت أنى تسرعت بعض الشىء ، فنقلت القول إلى مجرى آخر ، وقلت إن عجيباً كل العجب ، أن يهتم زعيم القوم برواية الشعر ، ويمتحن من يدعى

النظم ، ويثيب عليه ، ولو كان ذلك فى عصور الجاهلية وصدر الإسلام لقلنا : إن القوم عرب ، بضاعتهم البيان ، ومعجزتهم البلاغة ، ولكن الرجل كردى وفى زمن متأخر عن عهود الفصاح !

فرد صاحبى يقول : لا تزال للشعر سيطرة غالبة فى كل العصور إذ أن البيان العربى ساحر يأخذ بألباب سامعيه ، ولم يكن ابن سيار الكردى وحده صاحب الطرب بالشعر والمكافأة عليه بين الصعاليك ، فله نظراء كثيرون .

قلت : قد أرهقك إذا طلبت مثالا آخر .

فرد صاحبى يقول مبتسماً : لا إرهاق ، فأنا أروى ، ولا أنشئ ، وفى الذاكرة أشباه ونظائر .

قال صاحبى : نكتفى بمثال واحد ، إذ تقدم بنا الوقت ، ولولا أن الحديث حديث الشعر لثقل الكلام ، وأنت اليوم منعم متفضل .

فأطرق الأديب متذكراً ، ثم قال : لدى حادث طريف أرويه عن كتاب المكافأة ، فقد ذكر أحمد بن يوسف عن نفسه أنه كان بضيعة له فى مدينة (إهناس) واحتاج إلى أن يرجع إلى الفسطاط ، وخاف أن يقطع الطريق عليه لصوص الصعيد ، فاختار أربعة من أصحاب الغارات يكونون خفراً يحرسونه فى سفره ، فأحسنوا العشرة ، وكانوا لا يجتازون حياً ولا جماعة إلا وشددوا الحراسة وأظهروا كامل اليقظة ، حتى بلغوا مشارف الجيزة ، فأقبلت فرقة كبيرة من الأعراب يجاوزون خمسين فارساً تبرق سيوفهم ، وتهتز رماحهم ، ولكن حراسنا الأربعة — وهم إخوانهم فى السلب — جعلوا يتضرعون إليهم ، ويتملقونهم بأقوى ما يقدرون عليه من المحاسنة ، حتى صرفوهم .

قال أحمد بن يوسف : وبلغنا مأمننا فى الفسطاط ، فنزلت وتقدمت لغلمانى أن يكرموا القوم ، ثم جاش خاطرى بالشعر ، فأحضرت ورقة كتبت فيها :

جزى الله خيراً معشراً حقنوا دمى ... وقد شرعت نحوى المثقفة السمر
دراهمهم مبذولة لضعيفهم ... وأعراضهم من دونها الغفر والستر
إذا نزلوا قطراً من الأرض شاسعاً ... فما ضره ألا يكون به القطر

فلحظنى واحد منهم وأنا أكتب الأبيات ، فظن أنى أكتب إلى السلطان لأوقعهم ، فقلت : لا والله ، ما كتبت إلا لأمدحكم ، فقال : وإنك لشاعر ، قلت : نعم ، قال : أنشدنى على بركة الله ، فأنشدته ما قلت ، فحفظ الشعر للمرة الأولى ، ونادى بقية الثلاثة وقال لهم ، والفرح فى عينه : ما تنتظرون ، أرحضوا السوءة عنكم ، فأدخلوا أيديهم فى جيوبهم وجمعوا ما أعطيتهم من قبل ثمناً للحراسة وقالوا : شكر الله صنيعك ، لا نجمع بين شعرك ومالك ، فجعلت أتوسل إليهم ليأخذوا أجرهم ، فرفضوا ، وصاحوا : أو بعد هذا الشعر نأخذ أجراً .

قلت : أمر عجيب ، قوم فقراء يأخذون رزقهم غصباً ، ثم يسافرون عدة أسابيع لقاء أجر معلوم ، وحين يرون أنهم مدحوا بالشعر ، ردوا ما يحتاجون إليه فى ضروراتهم ، وهم بعد من رجال الغارات ينهبون فيأكلون ! أليست تلك مروءة لا تنال .

قال صديق : وكم لها من أمثال ، وحان الانصراف ، فشكرنا فى نفوسنا من أطفئوا الحريق ، إذ فتحوا لنا فصلا من فصول التاريخ .

منتديات قلعة طرابلس
ابو النور
www.tripolicastle.com

عزلة مثمرة

نزل دمشق رجل غريب لا يعرفه الناس من قبل ، فكان يصلى الفجر فى المسجد الأموى ، ثم يصعد إلى المنارة فيغلق بابها عليه ، فإذا حانت صلاة الظهر نزل ليصلى مع الجماعة ، وهكذا ، لا يريم المنارة إلا للصلوات ، أو لحضور مجالس العلم فى حلقات المسجد الأموى ، يجلس سامعاً لا ينطق ، وأحياناً يطرق إلى الأرض كأنه منصرف عما يسمع ، والناس يتعجبون من أمره ، ويتساءلون : من أين يأكل ؟ ولكنهم يتركونه وشأنه ، إذ لا يضرهم فى شىء أن ينقطع شخص عن الناس ، ليخلو بنفسه ، لا سيما وهو خافض الطرف ، يمشى مطرقاً ، كأنه يعالج هماً دخيلا ، ولابد أن حادثاً مهماً أثر فى نفسه فلجأ إلى الاعتزال ، والدنيا مليئة بالأحداث الكارثة التى تدع الحليم طائشاً ، والعاقل جهولا .

وقد انعقد مجلس الفقه كعادته فى عصر الخميس قريباً من محراب المجلس ، وتصدره أحد الكبار من الفقهاء ، وجلس الغزالى أبوحامد يسمع كعادته ، فرأى سائلا يعترض الأستاذ ليعرض عليه مسألة من مسائل الميراث حار فيها علماء حلب فأتى ليعرضها على كبير علماء دمشق ، ومع تلاميذه النجباء فى مجلس الفقه ، وقرأ الشيخ المسألة المدونة فى الصحيفة بين يديه ، وأطرق مفكراً ، ثم شاء أن يشارك تلاميذه ، وفيهم من بلغ مبلغ التعمق فى مسائل الفقه ، فما وجد بينهم مجيباً ، فقال للسائل : لئن حار علماء حلب ، فعلماء دمشق أشد حيرة ، انتظر يا أخى يوماً أو يومين حتى يفتح الله بشىء ، وانتهى الدرس ، وتفرق السامعون ، فخطا أبو حامد الغزالى فى رفق إلى السائل ، وقال له : جواب مسألتك لدى فاستمع .

فنظر السائل كالمستنكر ، وقال : علماء حلب ، وعلماء دمشق ، يعجزون عن الإجابة ، ويكون الحل لديك !

قال أبو حامد : لا عليك ، الميراث كذا وكذا ، فاكتب الإجابة وبادر بعرضها على الأستاذ وتلاميذه وانتظر رأيهم .

كتب السائل الإجابة دهشاً ، وحملها إلى الأستاذ وهو لا يكاد يصدق ، فلما قرأها الشيخ ضرب كفاً بكف ، وقال : من هذا الذى فتح الله عليه بما لم نكن نعلم ؟

فقال السائل : رجل غريب عن دمشق ، لأن لهجته فى الحديث غير لهجة الشاميين ، وكان يجلس فى الحلقة ، ثم تركنى وصعد إلى المنارة .

قال أحد تلاميذ الشيخ : ويلاه ، إن صدق ظنى فهو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، حيث علمت وأنا فى بغداد أنه ترك المدرسة النظامية وسافر إلى حيث لا يعلم أحد ، هلموا إليه ؟

وصعد التلاميذ أفواجاً إلى المنارة يقبلون يد الشيخ ، ففوجئ بأنه اشتهر بالبلدة ، وما جاء إلا ليعتزل الناس ، فقال لهم : سأجتمع بكم فى الغد ، فصاحوا قائلين : إن أستاذنا مصمم على أن تلقى أنت الدرس بالمسجد الجامع من الآن ، إذ حضر الماء فبطل التيمم .

قال الغزالى : من الغد إن شاء الله وأراد ، وانصرف الطلاب آملين أن يشرق عليهم درس الغد بنفحات جديدة لا عهد لهم بها فى دمشق ، هى نفحات الإمام الغزالى ، ولكنهم فوجئوا بما لا يتوقعون حين رأوا الصومعة فى أعلى المنارة قد خلت من ساكنها ، وأن الرجل قد ارتحل إلى حيث لا يعلمون .

وبلغ الأمر مبلغه من نفس عالم متواضع من علماء الحلقة ، فانطلق إلى الدروب والطرق يسأل الناس عن شيخ صفته كذا وكذا فى الهيئة والملبس ، أين اتجه ، فوجد من يخبره أنه اتجه إلى ناحية القدس ! فقال فى نفسه : هو الراجح عندى ، فإن الغزالى قد جاء دمشق للعزلة ، فحين رأى أنه اشتهر بين الناس ، فرّ من المسجد الأموى إلى المسجد الأقصى ، ولابد أن أتبعه إلى هناك .

مضى أبو حامد إلى حيث ظن العالم به ، وتابعه من أحبه وهام بلقائه ، فلما حانت صلاة العصر وجد الغزالى ينزل من المنارة ليأخذ مكانه بين المصلين ، فاستبشر خيراً ، وعزم على أن يعقد معه أواصر المودة ، فتريث اليوم ، ليدبر ما سيقوله فى الغد لإمامه العظيم .. ومضى اليوم وتبعه الليل ، والرجل يتابع الغزالى

فى صلاتى المغرب والعشاء ، حتى إذا حان الفجر وأديت الصلاة ، نهض الدمشقى فتعلق بأذيال الإمام ، وصاح به : رفقك يا مولاى .

فقال الغزالى هادئاً : ماذا تريد يا أخى ؟

قال الرجل : أنا فى حيرة من أمرى ، يكاد عقلى يختلط ، ولكنى لا أيأس من رحمة الله ، وقد تابعتك من دمشق لتهدينى سواء الصراط !

قال الغزالى : ومن أنا ؟ فأسرع الدمشقى يقول : أنت حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ! ندرس كتبك ونهتدى بك !

فجلس الغزالى مفكراً ، وسأل صاحبه : وما حيرتك يا أخى التى تتحدث عنها؟

قال الرجل : درست ما درست من العلوم ، وتصدرت الحلقات شارحاً ومعلما فى أكثر علوم الشريعة واللسان ! ولكنى فجأة قد تغير خاطرى ، واسودت الدنيا فى عينى ، إذ وجدت قلبى لا يطمئن إلى رأى ، وما أنا إلا حافظ أردد ما يقال دون يقين !

فعض الغزالى بأسنانه على شفتيه ، وقال فى لوعة : هى مشكلتى يا أخى التى تركت من أجلها بغداد ، وهمت فى بلاد الله ، لعلى ألتمس الطريق !

فقال الدمشقى : حدثنا بعض الزملاء ممن أتوا من بغداد ، أن تلاميذك يسألون عنك ، ويقولون إن أبا حامد قد توجه إلى مكة حاجاً ، ولكنه لم يعد فيمن عاد ، ثم سألوا حجاج المدينة فذكروا أنهم لم يروك فى بلاد الحرمين ، فتشتت بهم الظنون ، ولما وجه السؤال فى الميراث ، وأجبت عنه ، رجح أخونا القادم من بغداد أنك أبو حامد ! وذهبنا ندعوك لمجلس الأستاذ فى المسجد ، تكون أنت معلمنا جميعاً ، ففررت منا ، وقد صممت على لقائك ، لأن إنقاذى لن يكون إلا على يد حجة الإسلام ، أفتفضل أنت ؟

نظر الغزالى إلى وجه صاحبه ، ودمعة صغيرة تترقرق فى عينه ، فارتاع الدمشقى لبكاء أبى حامد ، وقال له : رفقاً شيخى !

فرد أبو حامد : مهلا أخى ، مأساتك مأساتى ، وتعال معى إلى المنارة لأشرح إليك بعض ما كان من أمرى .

قال الدمشقى : ما أشوقنى إلى حديثك يا سيدى ، فهلم دون انتظار !

قال الغزالى وقد أخذ مكانه من صومعة المنارة ، على حين جلس صاحبه مطرقاً يسمع :

نشأت فى كنف والد زاهد رقيق الحال ، ثم اخترمه أجله وأنا طفل لم أشب ، ومعى أخى أحمد ، وكان قد أوصى بنا إلى رجل صالح فقير ، وأعطاه ما ادخر من المال — على قلته — لينفق علينا ، فلما نفد المال آسف الرجل لقلة ما لديه ، إذ كان لا يبلغ ما ينفقه على أبنائه من صلبه إلا بجهد جاهد ، فرأى أن نلتحق بمدرسة دينية بطوس تنفق على تلاميذها قوتاً وغذاء ومسكناً ، فكان ذلك توفيقاً من الله ساعد على اتصالنا بالعلم ، فجمعت شذوراً من علوم الفقه واللغة ، وسمت نفسى إلى ما هو أكثر ، فارتحلت إلى (جرجان) آخذاً العلم عن شيخها المشهور أحمد الرذكانى ، فشوقنى إلى ما هو أكثر ، فاتجهت إلى (نيسابور) وكان من حظى أن لزمت شيخ العالم وإمام الحرمين الجوينى ، فقرأت عليه لباب العلوم مما تعورف لدى الدارسين من علوم الفقه والجدل والمنطق والحكمة والفلسفة ، فانفتح أمامى من المعارف ما لا حد له ، وذاع لى ذكر طيب فى نيسابور ، فدرست العلوم ، وهتف الطلاب باسمى ، وطارت لى شهرة فى البلاد ، فقصدت مجلس نظام الملك الوزير العالم النظار المتكلم ، فناظرت كبار العلماء فى مجلسه ، وكانت مسائل الخلاف وأصول الفقه وأصول الدين مما يدور النقاش حوله ، وقد أكملتها حفظاً فتدريساً ، فكنت آتى بدقائق تغيب عن الزملاء ، ورأيت من تقدير نظام الملك ما أثلج صدرى ، وقد رأى ضيق جلسائه من العلماء بمكانى ، فعرف دواعيه التى لا شأن لى بها ، فاختارنى مدرساً بالمدرسة النظامية ببغداد ، والتدريس بها أعلى ما تتطاول إليه أعناق العلماء ، إذ هى مرحلة عليا فى التحقيق ليس بعدها وراء وأمام ، وقد حقق الله أملى ، إذ سبق ذكرى هناك ، فعرفنى الأساتذة قبل أن يرونى ، ورأيت من احتفال الوزراء والأدباء والعلماء بمقدمى ما أورثنى تيهاً لا عهد لى به ، وانتهت لى الإمامة العلمية ببغداد ، وسعدت عيشاً وصحة وجاهاً ، وكان المنتظر أن تطرد حياتى صافية دون عائق ، ولكن انقلاباً قد هزنى هزاً ورجنى رجاً وأنا لم أتجاوز الأربعين إلا بأمد يسير ، أقول لك يا أخى دواعى هذا الانقلاب

فاستمع إليه مصدقاً فأنا لا أريد افتخاراً أو مباهاة ، فقد أصبحت أنفر من كل ما يمت إلى هذين ، ولكنى وقد رأيتك تحس بأزمة كأزمتى ، وتعانى من شجون نفسك ما أعانيه أردت أن أفصح لك عن ذات صدرى بما لا يعدو الحق فى قليل أو كثير !

أخذت منذ انتهت إلى الإمامة فى بغداد أبحث عن الاطمئنان النفسى بعد الاطمئنان المادى والنفوذ العلمى فلا أجده ، مع أنه الأهم لدى ، إذ أن القلق يعتادنى اعتياداً متواصلا ، ومن أسبابه أننى وأنا فى عنفوان شبابى قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، كنت أقتحم لجج البحث العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتفحص عقائد كل فرقة ، وأستكشف مذاهب كل طائفة ، لأميز بين الحق والباطل ، والمتسنن والمبتدع ، لم أغادر باطنياً إلا درست خوافى مذهبه ، ولا ظاهرياً إلا وتغلغلت فى أعماق ظاهريته ، ولا فيلسوفاً إلا خبرت منحاه ، ولا متكلماً إلا وأدركت مرماه ، ولا صوفياً إلا وفهمت مشربه ، ولا متعبداً إلا عرفت حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلا إلا ناقشت انحرافاته ، وأبطلت أدلة زندقته ، ولكنى بعد ذلك كله وجدتنى قلقاً لا أستقر على مكان ، شعرت بالعطش يملأ صدرى بغلة لا تنطفئ ، وعلمت أن ما أدركت من هذه العلوم سراب لا يروى غليلا ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يلق شيئاً ، وأخذنى الشك فى كل ما درست وألممت ، كان شكى عميقاً حاداً استولى على فترة قاسية امتنع فيها لسانى عن الكلام ، فما أكاد أنطق إلا بعسر ، وشعرت بغثيان فى صدرى حيث لا أهضم طعاماً ، وإذا ذقت الشراب العذب أتجرعه ولا أكاد أسيغه ، فاعتزلت التدريس شهوراً متعللا بالمرض ، والشك يأخذ على أقطارى ، ويرمى جسمى بمثل الإبر الواخذة ، فأنا قلق المضجع ، نابى المجلس ، ضائق الصدر ، فزع النفس ، ماذا عسى أن أصنع فى نفسى ؟ والتلاميذ يزورونى فيعجبون من احتباسى ، والأطباء يحاولون تشخيص الداء وتعيين الدواء ، فتذهب محاولتهم باطلة ، وزملائى الأساتذة يعلنون أن طائفاً أرضياً قد مسنى ، ثم بدا لى أن أعلن ذهابى إلى الحج ، على أن تكون الرحلة فاتحة سكينة أرتقبها ، أعلنت ذلك ،

ومقصدى أن أسافر إلى الشام ، لأخلو بالمسجد حيث لا يعرفنى أحد ولا أعرف أحداً ، لأن تلاميذى الكثيرين يقيمون بمكة يجاورون العام والأعوام ، فإذا عرفنى منهم شخص ، أخبر الناس بمقدمى ، فأصبح فى ملتقى الأنظار ، وأنا أنشد العزلة لأفكر فى أمر نفسى ، ولا أكتمك يا أخى أنى فى هذه العزلة قد بحثت أمور كثيرة حتى اهتديت إلى ما يشبه اليقين !

قال الدمشقى : بربك أسرع بإيضاح ما اهتديت إليه يا سيدى ، فأنا أستمع على مثل جمر الغضى ، إذ والله أحس فى أعماقى بكثير مما تحس !

قال أبو حامد : لقد وجدت الفرق المختلفة تتباهى بما عندها ، كل حزب بما لديهم فرحون ، فالمتكلمون يزعمون أنهم أهل الرأى والنظر ، وقد أحسنوا الدفاع عن الدين ، وناضلوا الملاحدة بأفتك سلاح ، ولهم أجرهم عند ربهم ، ولكنهم اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم ، وجعلوها يقيناً يبنى عليه ، مع أن المقدمات تحتاج إلى بحث قبل التسليم ، ثم إنهم يبحثون عن مناقضات الخصوم بلوازم ما يسلمون به ، وهذا لا ينتج الرد الحاسم ، وإذن فطريقهم غير مأمون .

ثم إنى بعد فراغى من مباحث علم الكلام اتجهت إلى الفلسفة ، فدرستها قرابة عامين ، ووجدت أن فروعها تنحصر فى الرياضيات ، وهى أمور برهانية لا سبيل إلى جحدها بعد فهمها ، وفى المنطقيات وهى أشبه بأقيسة المتكلمين تبدأ بما يظن أنه مسلم ، وهو فى حاجة إلى نظر قبل التسليم ، وفى الطبيعيات ، وهذه لا أخالف فى قضاياها ، لأنها تقوم على التجربة الملحوظة ، والدين لا ينكر العلم الصحيح ، أما الإلهيات فهى موضع الخطر فى بحوث الفلاسفة ، لأنهم اعتمدوا فيها على وسائل المنطق ، وتركوا هدايات السماء فضلوا وأضلوا ، وقد شرحت أباطيلهم فى كتابى عن تهافت الفلاسفة .

أقول بحثت فى كل ما علمته من فروع المعرفة هذه ، فلم أرتح إلى فرع منها وزادت حيرتى ، وادلهمت آفاق الكون فى عينى ، ثم اتجهت إلى هداية القلب ، فإذا بى أستريح إلى وحيه ، متى كان صاحبه مؤمناً تقياً ورعاً ، فإن السماء تمده

بأنوار الهداية ، ولن تتحقق الهداية إلا بجهاد وإخلاص ، وارتفاع عن الشبهات ، وبعد عن الحرام ، وخلوص القصد فى الوصول إلى محبة الله دون حائل مادى من عرض الدنيا ، حينئذ يقذف الله فى قلب المؤمن نوراً يهتدى به ، يغنيه عن ضلالات الفلاسفة والباطنية وحذاق الثرثرة من المتكلمين ، وبهذه الهداية النورانية تطمئن النفس ويضىء الطريق ! ولابد للعقل من الوحى ، لأن العقل إذا لم يهتد بنور الوحى عاجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، فيما وراء الطبيعة ، إذ الغيب حجاب ، والوحى خبير بما خلف الحجاب .

قال الدمشقى : وكيف أهتدى يا مولاى إلى الاطمئنان كما اهتديت ؟

فقال الغزالى : أثمرت عزلتى شيئاً كثيراً ، فقد اهتديت إلى طريق المعرفة ، ونظرت إلى العلوم الدينية نظرة جديدة أدونها فى كتاب بين يدى أسميه (إحياء علوم الدين) وإذا فرغت منه وقرأته فسيهديك السبيل !

قال الدمشقى : ما أشوقنى إليه ، ولعلى أتطفل حين أسألك عن أبوابه فحسب ، أما ما تتضمن الأبواب فسيتضح عند ظهور الكتاب !

قال أبو حامد : ساعدنى توفيق الله فرتبت الكتاب أقساماً ، وجعلت الأقسام كتباً ، والكتب أبواباً .

أما أقسام الكتاب فأربعة ، الأول منها قسم العبادات ، وقد ألممت فيه بمزاياها الظاهرة والخافية ، وأشرت إلى أثرها فى اطمئنان النفس وسلامة المجتمع ، إذ لاحظت أن من تحدثوا عن الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج قد اقتصروا على الأحكام ، دون توضيح لدواعى هذه الأحكام ، ودون إشارة إلى أثرها فى الهداية وسلامة النفس وحفظ المجتمع ، والعبادات وسائل لا غايات ، ولابد من التركيز على هذه الغايات ليعلم من لم يصل إليها أنه لم يقم بالعبادة على وجهها الصحيح ، وقد قال الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[1] ، فالصلاة وسيلة والنهى عن الفحشاء والمنكر غاية ! ومن لم يصل إلى هذه الغاية لم ينفعه قيامه وركوعه وسجوده ، وهكذا بقية العبادات .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥

صالح الدمشقى : جميل جميل ، فنحن لا نقرأ هذه التوجيهات فى كتب الفقهاء ! ولكننا نرى حروباً طاحنة فى ترجيح قول صاحب مذهب على قول إمام آخر ، وكأننا ننصر إمام المذهب فحسب !

قال الغزالى : أما القسم الثانى فخاص بالعادات ، أذكر فيه ما يجب عند التعامل مع الناس فى شئون التجارة والبيوع وما يسمى بالمعاملات ، وقد جعلت الضمير رقيباً واعياً ينهى عن الشر ويأمر بالخير ، لأن المعاملات فى ظل الهداية الربانية تفضى إلى السلام ، لا أن تكون مسائل الفقه فى المعاملات مواد صماء .

والقسم الثالث خاص بالمهلكات ، وهى الأخلاق المذمومة التى نفرمنها القرآن وحاربها الأثر الشريف ، وهذا القسم من الضرورة بمكان ، لأن مباحث الأخلاق من صميم علوم الدين ! وقد أكثر المؤلفون من الحديث عن العبادات والمعاملات وكأنها كل ما جاء به الإسلام ، أما أحاديث الأخلاق الدينية فطالما أهملها من يكررون دراسة فقه الفروع ! وهى الركيزة الأولى فى صلاح النفس ، والتئام المجتمع ، فليت التآليف تكثر فى هذا الاتجاه .

وآخر قسم يتعلق بالمنجيات ، وهى نقيض المهلكات ، كالصدق الذى يناقض الكذب ، والأمانة التى تعارض الخيانة ، والشجاعة التى تخالف الجبن ، وهكذا يجلو النقيض النقيض ، لأن الضد يظهر حسنه الضد !

قال الدمشقى : أسبغ الله عليك حلل التوفيق يا مولاى ، ولن أبرح بيت المقدس ما دمت فيه ، وأحس الغزالى ببعض الإرهاق ، فنام ليستريح .

خلافة جديدة

١

انتهت حفلة تتويج الظاهر بيبرس سلطاناً بالقلعة فى يوم مشهود أقيمت به الزينات ، وانتظمت المواكب ، وتصدر كبار العلماء ، ومن خلفهم أمراء المماليك ثم أعيان مصر من التجار وعمال الأقاليم ، يمشون صفوفاً خلف الظاهر ، وقد فرشت الأرض بالبسط ، ونثرت الدراهم فوق الرءوس ، وطار الحمام من أفق إلى أفق ، حتى إذا وصل الركب إلى القلعة كانت الأرائك المنصوبة فى أجمل مظهرها ، حيث أعدت وفق نظام متبع لجلوس الناس حسب أقدارهم ، وقام القاضى فخر الدين بن لقمان ، فألقى خطاب البيعة حافلا بتعظيم الملك الظاهر ، وتعداد مناقبه ، ومؤكداً ما أبلاه حين البأس فى معركة عين جالوت ، ناسباً إليه ما تم من نصر ، إذ كان قلب المعركة ، ويمينها وشمالها فى آن واحد ، لم يلتزم بمكان يقود فيه جنده ، ولكنه باع نفسه فى سبيل الله ، لا يبالى سطوة السيوف ، ولا طعنات الرماح ، وقد ألهم الله فرسه الشجاع فكان تحته أسرع من الحمامة ، وأطوع من البنان ، وكأنه يعقل ما يدور ، بل كأن الفرس مسلم يدرى ما ينتظر للإسلام من نكبات إذا انتصر العدو المغير ، كما يدرى أن الآمال قد انعقدت على فارسه ، فهو بطل المعركة ، وسيف النصر ، ولم تكن عين الله غافلة عن الملك الظاهر ، إذ أمده بتوفيقه ، وأعانه بحوله ، فرأى التتار فيه ما لم يروه من قبل ، حتى جن صوابهم ، وأدركوا أن الآمال الخادعة قد أصبحت هباء ، وأن ما كسبوه من النصر فى مواقع خراسان وخوارزم وأذربيجان وسمرقند وبغداد وحلب ودمشق ، قد ارتفع وارتفع ليشمخ جبلا شاهقاً ، فإذا كاد أن يناطح السماء ، هوت جميع الأحجار فوق رءوسهم فى معركة عين جالوت ، وما كان الملك الظاهر إلا الزلزال المروع الذى دك الصراح ، وحطم البناء فهوى إلى الحضيض .

ثم ختم فخر الدين بن لقمان كلمته داعياً للملك ، ومبشراً مصر والشام بعهد سعيد ، إذ تحقق النصر ، وساد الأمن ، واندحر العدو إلى أبد الأبيد ...

وما كاد القاضى فخر الدين ينتهى من كلامه ، ويأخذ مجلسه حتى نهض السلطان الظاهر من مكانه ، ووقف حيث كان فخر الدين يلقى حديثه ، فتطلعت الأنظار ، وامتدت الرقاب ، فقال السلطان :

(لست خطيباً يا قوم ، ولكن كلام القاضى أعزه الله قد حرك فى فيضاً من شعور أردت أن أطلعكم عليه ، فقد شهدت المعارك الدامية من يوم أن نشأت ، ولا أذكر تاريخ هذه المعارك فأنتم تعرفونها أتم المعرفة ، ولكنى أشير إلى أنى فى معركة عين جالوت أحسست بشعور لا عهد لى به من قبل ، فقد نذرت على أن أستشهد فدى الإسلام ، ولم أكن أطمع فى الحياة حين تلبسنى هذا الشعور ، لأن صيحة (وا إسلاماه) التى ارتفعت فى الميدان ، قد هزتنى هزاً ، ورجتنى رجاً ، تلك الصيحة التى نادى بها تاج الدين بن بنت الأعز حين تقدم إلى المعركة ، وهو شيخ لم يعرف أساليب القتال ، إنما أتقن الدرس والبحث ومعرفة الحلال والحرام هذه الصيحة جعلتنى أشتاق إلى لقاء الله فدى للإسلام ، فكنت أتجه فى كل اتجاه أرى الموت ناحيته ، وكان سيفى يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، وكلما شاهدت بطلا من أبطال التتار يشمخ بقوته ، ويغالى بكره وهجومه ، جعلته هدف سيفى وعزمت على أن أصرعه أو يصرعنى ، ووالله الذى لا إله إلا هو ما تملكتنى فرحة فى ميدان من ميادين الحروب السالفة ، كما تملكتنى الفرحة يوم عين جالوت إنها كانت فرحة انتظار الشهادة فى سبيل الله ، فلما انجلى الغبار ، ولاحت بشائر النصر ، أخذت أتعجب كيف بقيت حياً إلى الآن ، ولكنى أعلم أن الأجل موقوت ، ولكل امرئ يومه المعلوم ، فلنشكر الله جميعاً على ما تم من نعمته ، فقد وعدنا النصر متى أخلصت القلوب ، وصدقت النيات ، فالحمد لله رب العالمين) .

فتعالت الأصوات بالدعاء للسلطان ، وأخذ أتباعه من المماليك يقدمون الهدايا لكبار المجتمعين ، جرياً على العادة المتبعة فى مصر المحروسة حين يرأس سلطان جديد ، وختمت الحفلة بآيات من كتاب الله ، وقف السلطان بعدها مودعاً

للجموع ، وقد تقدموا إليه صفاً صفاً ، يسلم كبارهم من العلماء باليد ، ويقبل من عداهم من الأمراء والأعيان ورؤساء الجند يد السلطان فى مودة ، حتى خلا المكان أو كاد ، ثم تنبه السلطان فجأة لأمر قد عناه وشغله ، فقال لأحد مماليكه المقربين : أسرع من فورك لتلحق القاضى فخر الدين بن لقمان ، وتطلب منه أن يوافينى بعد صلاة العشاء فى القلعة هذه الليلة دون أن ينتظر إلى الصباح !

ولم يكن لمثل القاضى فخر الدين أن يتأخر عن موعد حدده السلطان ، إذ ما كاد الموعد يحين ، حتى التمس الإذن وافداً ، فما أسرع ما أذن له ، فتقدم ليرى السلطان جالساً وحده ، فنهض لاستقباله فى تؤدة ، وأجلسه إلى جواره ، منبهاً على مملوكه الحاجب ألا يأذن لأحد فى الدخول من الأمراء ، حتى ينتهى اجتماعه بابن لقمان ، فأحس القاضى أن أمراً خطيراً دعا السلطان إلى لقائه ، وأن خطورة هذا الأمر قد ارتسمت على وجه الظاهر حين وقعت عينه عليه ، وانتظر أن يفصح الظاهر عن مكنونه ، فما كان له أن يبدأ بالحديث .

اعتدل الظاهر فى مجلسه ، ثم صوب إلى القاضى نظرة حادة تبعها بقوله : لقد كانت كلمتك صباح اليوم موفقة يا فخر الدين ، وأنا أشكرك عليها أجزل الشكر .

فهدأت نفسى القاضى بهذا الترحيب ، وعجل يقول : كان تعقيب السلطان عليها — أدام الله ملكه وأيد سلطانه — أبلغ وأعظم ، إذ أتى بالمنطق الفصل ، فصادف القبول .

فابتسم الظاهر ابتسامة مريرة ، وقال : لقد دعوتك يا فخر الدين الليلة لا للمجاملة بالثناء ، فقد يكون الثناء منتظراً فى حفل عام لا فى مجتمع خاص ولكنى دعوتك لنتصارح ونتكاشف ، وقد اخترتك أنت ، ولم أختر أحداً من المماليك الكبار ، الذين أتظاهر بصداقتهم ، ويتظاهرون بصداقتى ، ويعلم الله ما يكنون لى من البغضاء ، لأن كل واحد منهم يتمنى فى أعماقه أن أغيب عن الدنيا ليجلس مكانى ، فأنا لست فى حاجة إلى استشارة هؤلاء ، ولكنك أيها القاضى رجل دين وعدل ، والصراحة فى مجلسنا هذا تفيدنى كثيراً ! فلا تبخل على بما تراه !

قال القاضى : معاذ الله أن أبخل على السلطان بشىء ، ونفسى فداؤه من كل مكروه !

فأجاب الظاهر : أصدقنى القول عما أحسست اليوم فى نفوس المجتمعين ، أكانوا صادقين فيما يبدون من السرور ؟

فحار القاضى ، وتطلع إلى السماء كأنه يستلهم الله الصواب ، ففجأه الظاهر بقوله : قل ما يجول بخاطرك ، فأنا لا أحب أن تختار منه ما يرضينى !

فقال القاضى : لقد تحدثت يا مولاى عن كبار المماليك وما يضمرون نحوك من شعور ، وأنت بهم أدرى وأعلم ، فعجل الظاهر يقول فى تبرم : ليس لك أنت علم بالمماليك ، أنت رجل الناس فى مصر ، رجل العلماء ، رجل الأعيان ، رجل التجار ، يلوذون جميعاً بك ، فماذا يقولون عنى ! أنا لم أخدع بابتسامهم اليوم ، فقد لمحت وراء الود الظاهر غضباً مستكناً ، ونفوراً يكاد ينطق ! أفصح يا فخر الدين !

سكت فخر الدين ، وتطلع إلى السماء مرة أخرى ، فصاح به الظاهر : أتخاف أن تغضبنى ، لست أغضب منك إذا وصفت ما كان ، ولكنى أغضب إذا حاولت أن تصف غير ما كان ، ولك منى الأمان كل الأمان !

قال القاضى : أصارح مولاى أن الجميع يقدرون شجاعته وبلاءه ، وتحقيق النصر على يده ، ولكنهم يتألمون كل الألم لمصرع السلطان قطز على يدك ، ويعدون ذلك غدراً كبيراً ، وقد تحدثوا بذلك فى مجالسهم مستنكرين !

فابتسم الظاهر فى هدوء ، وقال : بدأت تقول الصواب ، وقد دعوتك لأسمع منك تفصيل ما يقول الناس ، وما أحاول أن أبرئ نفسى من أمر قدر وانتهى فهل لك أن تفيض ؟

قال فخر الدين : إن الناس يذكرون أن قطز هو الذى بذل جهد الجبابرة بدءاً وخاتمة حتى تم النصر ، وقد رأوا نشاطه الحماسى فى القاهرة حين جمع الأمراء والعلماء للتشاور قبل الغزو ، وقد ارتضى كل ما أشار به العز بن عبد السلام ، إذ تنازل عن ذهبه وفضته ، وأمر المماليك أن يتنازلوا عن جل ما بأيديهم من الثراء قبل أن يجمعوا من العامة الأموال ، وحين رجع الجيش استفاضت الأنباء بما كان من جهاده ونضاله ، بل بما فعل قبل التحام الجيشين من السجود على الأرض داعياً الله أن ينصر المسلمين ، فلما تحقق وعد الله بكى من فرحته ، ومرّغ وجهه فى التراب

ساجداً لله فى تأثر نمّ عن قوة إيمان ، وقد قال العز بن عبد السلام إنه هو الذى صرخ فى الميدان هاتفاً : وا إسلاماه ، ولكنكم قلتم إن الذى هتف بذلك هو تاج الدين بن بنت الأعز قاضى القضاة !

فقال الظاهر : لم يفتنى أن ألحظ تغير وجه العز حين قلت إن ابن بنت الأعز هو الذى صرخ متحمساً ، وكنت أخشى أن يقف مكذباً ، فأنا أعرف جراءته التى لا تقف عند حد ولكنه سكت ! والله أعلم بمن هتف .

قال ابن لقمان : إن شيخنا العز مؤمن ثابت اليقين ، وآمل أن يسعى السلطان إلى استرضائه ما استطاع !

فرد الظاهر : أتعرّفنى بالعز ، إنه لو جمع الناس ، وتحدث لهم فى أمرى وأمر قطز لوقعت الفتنة فى البلاد ، والتهب الحريق ، وهو الآن يكظم غيظه ناقماً ، ولا أخفى عليك أنى أفكر فيما أتحدث به إليه حين ألقاه ، لقد كان الملوك من آل أيوب يهابون لقاءه ، وقد توطدت مكانته فى مصر يوم جابه الملك الصالح فى مسألة الخمور ، وناداه بيا أيوب دون لقب ، فما الذى يرضيه يا فخر الدين ؟ فإنه إذا رضى رضى الجميع .

قال القاضى : لقد سمعت منه أنه قال إن السلطان قطز كان يعتزم العمل على عودة الخلافة العباسية من جديد ، إذ لا يزال من بنى العباس من فروا من (هولاكو) واعتصموا بعرب الصحراء فى بعض البوادى ، فإذا ثبت وجود أحد هؤلاء ، فلابد أن يصير أمير المؤمنين !

فقال الظاهر مهتماً : أهذا رأى العز بن عبد السلام ؟

فرد ابن لقمان : ورأى الكثرة من علماء مصر ، إذ يرون الخليفة رمز الدولة الإسلامية ، وله صوته المسموع ، فإذا عمل مولانا الظاهر على بعث هذه الفكرة فسينسى الناس ما كان من أمر قطز .

فأطرق الظاهر لحظات ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه : لقد كان السلطان قطز صديقى ، وأنا الذى عملت على توليته ، وأسكت معارضيه على كثرتهم ، وكنت فى مصر درعه الحصينة ، وأنتم تعلمون أنه تعهد لى أن أكون والياً على حلب بعد

انتهاء المعركة ، فأحفظ ديار الشام نيابة عنه ، ثم فاجأنى بتعيين سواى ! فأحسست الشر منه ، وعلمت أنه بدأ يخشانى على نفسه ! ولابد أن يصنع بى ما يسوء إن لم أتدارك الأمر ، ثم جسد لى الشيطان هذا الوهم حتى أصبح يملأ على منافذ تفكيرى ، وانحصرت المسألة فى شىء واحد : أنا أم هو ؟ إذ لا يجتمع السيفان فى قراب ! ثم بدا لى أننى لو صبرت حتى قدم القاهرة ، وامتلأت مصر بحديث انتصاره الذى كنت العامل الأول فى تحقيقه ، فإن نجمه سيعلو حين يهبط نجمى إلى الأفول ، وقد اجتمع من الأمراء ما شاركنى الرأى ليخلصوا من قطز ! واستحكم الشر ، فدبرنا المكيدة فى قليوب قبل أن يدخل القاهرة بسلام ! والله ثم والله يا فخر الدين لو أن قطز لم يغدر بعهده معى ، وسلمنى ولاية حلب لكنت ساعده الأول ، ولكنى قابلت غدراً بغدر ، حين رأيت أن الشر لا ينحسم إلا بالشر ! أفهمت ما كان ؟

قال فخر الدين : لقد عرف الناس كل ما قال السلطان ، وآخذوا قطز على توليته سواك ، ولكنهم لم يستسيغوا أن يكون جزاؤه القتل السريع ، ولئن وقعت الواقعة فلابد فى رأيى من أن تشغل القوم بحديث الخلافة ، وعودتها لبنى العباس !

فنظر السلطان متعجباً ، وقال : هل عرف الناس كل ما أقول ! لقد كانت مشاعرنا مستترة فى ضلوعنا فكيف بدت للعيان !

فأطرق فخر الدين مفكراً ، ثم قال : أخبار السلاطين والملوك لا تخفى يامولاى لأنهم لايعيشون منفردين ، فلكل سلطان خادمه ونديمه وحاشيته ووزراؤه ، ولابد أن يسر لأحد هؤلاء بأمر ضاق به صدره ، ثم يضيق صدر السامع بما سمع فيسر به إلى سواه ، ويتتابع الضيق فيتتابع الإعلان ، وإذا الحديث ذائع ، يبدأ همساً ثم يصير دوياً !

فهش السلطان فى وجه محدثه وقال له فى رفق : أحسنت التعليل والتفسير ، وسأبشرك بما يسرك ، فقد كتب إلى عاملنا فى دمشق أن أحد بنى العباس قد لجأ إليه مع نفر من ذويه ، وسيكون لهم شأن كبير معى ، فأذع ذلك مجتهداً ، وابدأ بابن عبد السلام .

— ٢ —

فى صباح يوم الخميس فى التاسع من شهر رجب عام ٦٥٩ من الهجرة النبوية رأت القاهرة موكب السلطان الظاهر يبدأ من قلعة الجبل متجهاً إلى ضاحية المدينة

للقاء وارث بنى العباس الأمير أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر العباسى ، ومن وراء السلطان الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، ثم أمراء المماليك ، ورؤساء العسكر ، وجمهور الأعيان من العلماء والتجار والشهود والمؤذنين (كانت قيمة المؤذن عظيمة إذ ذاك) ، وخرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل ، فاستقبل الجميع الأمير العباسى ومن معه ، وقد لبس السواد شعار الخلفاء من آل بيته ، وأظهر بيبرس من الاحتفاء والتكريم مالا حد وراءه .

ثم اخترق الموكب شوارع القاهرة عائداً إلى قلعة الجبل ، فأنزل الأمير فى أحسن مكان حيث حدد يوم الاثنين القادم لمبايعته بالخلافة ، إذ حضر فى صباح اليوم المحدد قاضى القضاة ونواب الحكم ، وفقهاء الدولة وأعيان الصوفية ومقدمو العساكر والتجار ، وفى مقدمتهم جميعاً شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ، فمثل الجميع خاشعين بحضرة الأمير أحمد ، وجلس السلطان أمامه على البساط دون أن يحاذيه فى كرسى مماثل ، وتقدم وفد العربان من بنى خفاجة يشهدون أن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، وقد فر من مذبحة هولاكو متجهاً إليهم ، فعرفوا مكانه ، وخصوه بالرعاية والتبجيل ، وأقر الشهادة القاضى جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر ، والفقيه علم الدين بن رشيق ، والقاضى صدر الدين الجزرى وجمع من العلية المرموقين ، فقام قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ليعلن صحة شهادة العربان وصحة إقرار القضاة ، وكان تبعاً لذلك أول من بايع الأمير وعاهده على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم تلاه شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ، ونهض بعدهما السلطان الظاهر ومن ورائه الأمراء وكبار الأعيان ، فأخذوا البيعة للخليفة الجديد المستنصر بالله أبى القاسم الإمام أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، وأمر قاضى القضاة أن يدعى للخليفة على منابر البلاد يوم الجمعة ، ثم يدعى للسلطان من بعده !

هذه هى الخطوة الأولى التى خطاها الملك الظاهر حين عمل على إعادة الخلافة العباسية للعالم الإسلامى ! ولكنه يريد أن تعقب هذه الخطوة خطوة ثانية ، فهو يبغى أن يبايعه الخليفة فى حفل مماثل ليصبح سلطاناً رسمياً للديار المصرية ،

والبلاد الشامية ، وديار بكر والحجاز واليمن وما حول الفرات ، وما يتجدد من الفتوح غوراً ، ونجداً ، وقد قصد السلطان أن يسكت بلسان الخليفة وهو الحاكم الشرعى أصوات من يعارضونه فى الشام من بنى أيوب ، ومن يتطلع إلى منصبه فى مصر من أمراء المماليك الذين بايعوه ليعملوا الحيلة فى خلعه بتدبير لاحق ، إذ صار اليوم أمر الولاية والعزل من اختاص أمير المؤمنين وحده ، وقد أحكم التدبير لمبايعته ، فجعل يستشير ويخطط حتى حدد يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان ، بعد خمسة وعشرين يوماً من البيعة الأولى ، ليكون الموعد المحدد لولايته الشرعية من أمير المؤمنين .

وفى الوقت المرسوم ضربت خيمة كبيرة فى البستان الكبير خارج القاهرة ، وحضر الخليفة ومعه الخلع الرسمية ، وتقاطر رجال الدولة على مجلسه ، فجعل يخلع عليهم واحداً واحداً ، حتى حضر السلطان الظاهر ، فقام الحفل مرحباً مهللا ، وتقدم فى خشوع إلى أمير المؤمنين ، فقدم إليه عمامة سوداء مزركشة ، ودراعة بنفسجية ، وأطواقاً من ذهب ، وعدة سيوف تقلد الظاهر واحداً منها ، وحملت البقية إلى منزله ، ونصب منبر عال صعد عليه القاضى فخر الدين ، ومعه صحيفة كبيرة تتضمن تقليد الخليفة للسلطان ، مبتدئاً بذكر مآثر الظاهر فى صيانة البلاد ودحر الأعداء وإقامة الأمن ، وتنفيذ أوامر الشرع ، وقد جاء فى التقليد الرسمى ما نصه ، والخطاب لبيبرس :

(وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعرف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية ، والديار الشامية ، والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت فى المكارم فرداً ، ولا جعل منها بلداً من البلاد ، ولا حصناً من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد ، فى الأعلى ولا فى الأدنى) .

وانتهى الحفل ، وقد نسخت عدة صور من التقليد الرسمى ، ليبعث بها إلى شتى ربوع الإسلام ، وقد فرح قوم وابتأس آخرون .

وخلا السلطان إلى فخر الدين بن لقمان فسأله : هل تحقق ما يريد العز من عودة الخلافة ؟ فقال ابن لقمان : وثبت الله بها دعائم السلطان ، وكبت أعداءه المتربصين !

جبار عنيد

لزم الحافظ ابن حجر منزله فى أخريات أيامه ، فكان زملاؤه وتلاميذه لاينقطعون عن زيارته ، إذ يؤنسونه بأحاديثهم العلمية التى تمتعه وتشبعه ، ويراها لذته الباقية فى هذه الحياة ، وللحافظ من جلال العلم ، وشرف الأستاذية ، ورجاحة العقل ، وسماحة الخلق ، ما جعل أولى العلم يعترفون له بالإمامة ، ويتباهون بمودته ، إذ يعدونها شهادة منه لهم برسوخ الكعب ، وسعة المعرفة ، وفى ليلة من ليالى الربيع ذات الجو المنعش ، والنسيم البليل ، طاب للشيخ أن يفارق حجرته ، إلى فناء المنزل الرحب ليأخذ مجلسه مع صديقه وقريعه بدر الدين العينى ، وتلميذه شمس الدين السخاوى ، فدار الحديث عن معضلة من معضلات الفقه ، عرضها السخاوى بلباقته ، وانتظر الرأى من شيخ الشافعية ابن حجر ، وشيخ الحنفية العينى ، واتسع النقاش ، وأحضرت المراجع ، وتوالت الحجج والأدلة ، والسخاوى يكتب مايقال معقباً وناقداً ، لأن ملكة النقد لديه ذات اتقاد دائم ، لامع زملائه ورصفائه فحسب بل مع شيوخه الكبار ، وقد تعود منهم أن يصغوا إلى أقواله ، وأن يجيبوا بما يشفى الصدر ، كما تعودوا منه أن يناقش فى اعتداد ، وأن يعارض دون احتراز .

وجاء الخادم يعلن مجىء المؤرخ الفاضل شهاب الدين بن عربشاه ، فرحب ابن حجر بزيارته ، وقال لصاحبيه فى ابتسام : لنترك الفقه إلى التاريخ ، ليشاركنا الزائر الكريم فيما نقول .

فسارع شمس الدين السخاوى يقول : وماذا عند ابن عربشاه من مسائل التاريخ لقد أخذت عليه أموراً كثيرة فيما قرأت من كتبه ، وليس بمن آخذ عنه ، فكيف يناقش سيدنا الحافظ ابن حجر وشيخنا البدر .

فقال ابن حجر : رويدك يابنى ، لاتستصغر أحداً يطلب العلم ويكتب فيه ، لأن مسائله ممتدة زاخرة ، وقد نجد طلبتك لدى طالب مبتدئ فى بعض هذه المسائل على حين يغفل عنها بعض أساتذته ، وهذا ما جربته ورأيته كثيراً .

فقال البدر العينى : وابن عربشاه ضيف كريم نزل بمصر قريباً ، فلابد أن يجد الصدر الرحب ، والتشجيع الحافل .

ابتسم الحافظ ، وقال : حيا الله البدر ، وهدى الشمس !

ثم ما لبث شهاب الدين بن عربشاه أن دخل محيياً ، فنهض المجتمعون لاستقباله وحين مد يده مصافحاً الحافظ ضغط عليها فى مودة ، وقال له : سررتنى يا أحمد بمقدمك ، فقد كنت محتاجاً إليك .

فسارع ابن عربشاه يقول : نحن جميعاً فى حاجة إلى علمك الغزير يا مولاى ، لا حرمنا الله منك !

قال ابن حجر : لقد قرأت كتابك (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) وأفدت منه كثيراً .

فسارع ابن عربشاه يرد : كيف يا مولاى وقد سبقتنى للحديث عنه فى أكثر من كتاب !

فقال الحافظ : الحق أحق أن يقال ، لقد ألممت أنا بما بلغنى عن أحداثه فى الشام فحسب ، أما أنت فقد تتبعت آثاره فى جميع الأماكن التى ابتليت به ، وسمعت من معاصريه فى كل مكان ما لم نسمع ، فجمعت وبوبت وسجلت ، وقدمت تاريخ الرجل مستفيضاً شافياً دون نقصان .

فقال السخاوى : لى على ما كتبه الشيخ أحمد ملاحظات شتى ! أيسمح أستاذنا الحافظ أن أبدأ بها ؟

فقال البدر : نستمع آراء الحافظ أولا يا شمس ، وأنا قد قرأت الكتاب ، ولكنى أنتظر تعليق الحافظ ، وكلانا قد كتب عن تيمورلنك قبل أن يظهر كتاب ابن عربشاه !

فقال ابن عربشاه : والله إنها لسعادة كبرى لمثلى أن يقرأ كتابه شيخ الشيوخ ابن حجر ، وعالم العلماء العينى ، وأخى الشاب الناهض شهاب الدين ، وكلى إصغاء لما تقولون جميعاً ، إذا تفضلتم بالحديث .

فقال العلامة ابن حجر : والله إنى لأشعر أن تعب المرض يزول عنى شيئاً فشيئاً إذا تسامرت مع إخوانى فى بعض مسائل العلم ، وقد قدرت عناء الشيخ أحمد فيما جمع وكتب ونمق ، وقد تحدث مخلصاً دون تحيز ، فنقد الطاغية كثيراً فى جبروته وطغيانه وانتهاكه حرمات الأرواح والأموال ، ولا زلت أذكر موافقاً ، أنه وصفه بالدجال الذى أقام الفتنة شرقاً وغرباً ، وسعى فى الأرض فأفسد فيها وأهلك الحرث والنسل ، هذا حق واقع لا مرية فيه ! كما أذكر صدقه حين وصفه بالشجاعة والصبر ، ودقة التنظيم ، وبعد النظر وسعة الحيلة ! كل هذا مجال اتفاق لا خلاف عليه ، لأن فظائع الطاغية شرقاً وغرباً أكبر شاهد على جبروته ، وكأن الناس ضلوا السبيل ، فسلط الله عليهم منه شراً مستطيراً ، وانتقاماً ماحقاً !

ولكنى ... ثم سكت ابن حجر ، فقال البدر : وماذا بعد لكنى .

فقال الحافظ : أناقش فى جزئيات يسيرة ، فقد ذكر ابن عربشاه أن تيمورلنك قد نشأ فقيراً وأن أباه كان إسكافاً من رعاع الناس ، وقد شب ولده لصاً ، إذ سرق شاة من أحد الرعاة ، فضربه بسهم أصاب فخذه وأورثه العرج الذى اشتهر به ، ثم اتصل بملك بلخ سائساً للخيل ، فأعجب به ، وما زال يترقى لديه حتى زوجه شقيقته : أذكرت ذلك يا أحمد !

قال ابن عربشاه : نعم يا سيدى لم تقل غير ما قلت !

فعجل السخاوى يقول : هذا غير معقول ! فربت ابن حجر بيده على ركبة السخاوى قائلا : مهلا يا بنى ، فلم أنته بعد ، ثم والى الحديث فقال : لقد جاءتنا روايات أخرى عن نشأة تيمورلنك ، تقول : إنه نشأ فى أسرة مرموقة وأن أباه طرغاى كان شيخاً محبوباً فى قبيلته ، وقد تربى فى سعة من رزقه ، فتدرب على ركوب الخيل ، وامتشاق السيف ، وصيد الوحش والطير ، وقاد زملاءه فيما شب من المعارك الداخلية ، فأظهر حماسة وبأساً ، وانتصر انتصاراً باهراً على كتائب من الفرس هاجمت الحدود الغربية من سمرقند ، فنهض أميرها (كزجان) يجمع الكتائب للدفاع ، فرأى تيمور قد تقدم الكتائب غير هياب ، ودحر الجموع الغازية فى براعة نادرة ذهل لها (كزجان) ، فعانقه ومدحه ، ثم رأى أن يجعله

درعه الواقى ، فزوجه حفيدته ، أما عرجه الذى أصيب به ، فكان أثراً لسهم فى معركة حربية ولم يكن لسرقة شاة ! فأى الروايتين أقرب إلى العقل ؟

قال ابن عربشاه : أنتظر الجواب من سيدى الحافظ ؟

فقال ابن حجر : أسألك سؤالا يا أحمد ؟

أيعقل أن يوجد سائس خيل ابن إسكاف فقير ، يجيد سياسة الخيل فيعجب به ملك بلخ ، ويزوجه شقيقته لهذا السبب ؟ وهل يرضى بذلك أمراء البيت الملكى لو ألغى الملك عقله وفعل !

فقال البدر : أستبعد ذلك ولا أتصوره ، وأرى أن أعداء تيمورلنك حاولوا الحط من شأنه ، فأشاعوا أنه ابن إسكاف حقير ، نال إعجاب ملك بلخ لقدرته على إطعام الخيل ورياضتها !

قال ابن حجر : ليست النشأة المتواضعة عيباً إذا صاحبها السلوك السوى ، وأيدتها المواقف الناجحة ! فالفقر مدرسة العصاميين ! ولكن إعجاب ملك كبير بسائس خيل فى اصطبله لا يصل به إلى أن يجعله صهراً له ! وإذا كان الثابت أن تيمورلنك قد صاهر (كزجان) ملك سمرقند ، فلأنه بطل رد الأعداء ، وحمى المملكة ، ولأنه ذو أصل وحسب ! وهنا ترجح الرواية الثانية دون الأولى .

قال السخاوى : ولدى نقد آخر .

فقال الحافظ : لن نمضى جلستنا فى النقد ، لأنى أحتاج إلى أن أسمع من الشيخ أحمد حديثاً مهماً عن موقعة تيمورلنك مع بايزيد التركى ، إذ كانت نتيجة هذه المعركة المذهلة مما حارت له العقول ، وقد حاولت أن أستقصى وقائعها وأسبابها ، فلم أوفق ، وعند جهينة الخبر اليقين ! وجهينتنا ابن عربشاه !

قال السخاوى : لقد علمت عن هذه المعركة الشىء الكثير .

فرد ابن حجر : علمت يا بنى كما علمت ، ولكنك لم تتصل بأبطال المعركة ولم تر من تحدثوا عن عيان كما تهيأ لابن عربشاه ، إذ ظل فى آل تيمور سنوات عدة ، فسمع وناقش ، وأحاط خبراً بما لم نعلم ، فلندعه يقول .

قال ابن عربشاه : إنهما جباران عنيدان ، ثقة الواحد منهما فى نفسه أكبر من أن تحد ، وكانت ثقة بايزيد أكبر وأعظم ، وكان تيمورلنك حريصاً على ألا يتعرض له ، فأمامه فتوحاته فى بلاد الشام والهند وفارس والصين ، وقد جال فى هذه الربوع الشاسعة كل مجال ، ولكن المحظور وقع .

قال البدر العينى : أريد كلمة مجملة عن بايزيد هذا !

فرد ابن عربشاه : هو الغازى بايزيد الأول ابن السلطان مراد الأول ، ما كاد يتولى الملك حتى وقع فى نفسه أن يفتح أوربا جميعها ، وكانت الأحوال من حوله تهيئ له أن يحقق هذه الأمنية ، فلديه الجيش المدرب ، وعنده الذخيرة التى لا حد لها ، والأبطال من الترك أشاوس فرسان لا يغلبون ، وقد بدأ فاحتل (فيلادلفيا) بآسيا وهى آخر مدينة بقيت للروم فى الشرق ، ثم زحف على بلاد الصرب ، فدانت له ، ورضى ملكها أن يدفع الجزية ، وكان سياسياً يعرف أنه لا قبل له ببايزيد ، فوثق صداقته به ، وتزوج السلطان من أخته ، ثم واصل فتوحه فضم بلاد البلغار إلى أملاكه ، وكان فى طريقه إلى غيرها لولا أن علاء الدين السلجوقى أمير القرمان قد أعلن نقض معاهدته مع تركيا ، فرجع إليه ليستولى على جميع إمارات بنى سلجوق .

وقد انتهز ملك المجر رجوع بايزيد عن الفتوحات الأوربية بعض الزمن ، إذ أفزعه ما حل ببلاد البلغار ، فاستنجد بأوربا ، وذهب إلى بابا الكنيسة بونيفاس التاسع لينذره بالخطر التركى الداهم ، وما كان البابا بغافل عنه ، فدعا إلى حرب دينية كالتى أثارها بطرس الناسك من قبل ، فأجابت برجونيا بقيادة الكونت دى نيفر ، وأجابت فرنسا بقيادة الكونت دى لامانش ، والكونت فيليب زعيم أرتو ، وانضمت الجيوش من هاتين إلى جيوش ألمانيا بقيادة الكونت فردريك ، ثم حشد الملك المجرى (سيجسموند) كل جنود بلاده مع جماعة من فرسان بافاريا وتولى الرئاسة العامة الكونت دى نيفر الفرنسى ، وقد استعد السلطان بايزيد للموقف ، فحشد جيشاً من مائتى ألف جندى ، واتخذ موقعاً خلف سور مرتفع يخفى قوة جيشه وعددها الكثيف ، ثم تقدم بعدد يسير إلى الموقعة ليوهم الأعداء أنه لا يستطيع الثبات ، وقد انطلت الحيلة على الكونت دى نيفر ، فأمر بالهجوم

وعارض من نصحه بالصبر ليدرسوا أبعاد الموقف على حقيقته ، ولكن الكونت قد اندفع برجاله جميعهم إلى لقاء بايزيد ، فأخذ السلطان يتراجع مناوراً ، حتى تقهقر إلى الساحل كالمنهزم ، وسادت النشوة قادة الجيش الصليبي ، فاندفعوا خلفه إلى السور ، ليفاجئوا بغابة كثيفة من الأبطال يحملون رماحهم كالغصون فى أعالى الشجر وفى المقدمة السلطان بايزيد يكر على الفريق المهاجم كر المحتشد الواثق ، فقطعوا عليه طريق العودة ، وسقط من الضحايا من لا يقع عند حصر من الجانبين ، ولكن الدائرة قد دارت على الصليبيين ، وكان ملك المجر فى المؤخرة لا فى المقدمة ، فتتبعه السلطان ، ودارت معركة أخرى انتهت بفرار سيجسموند ، وانجلت المعركة عن انتصار الأتراك ، وتقدمت حشود الأسرى وفى رقابهم السلاسل ومعهم قائدهم العام الكونت دى نيفر ، ولكن السلطان عفا عنه حين رآه ، وأمر بإطلاق سراحه ، ثم تقدم بجيوشه إلى جنوب المجر فأثينا وما جاورها حتى تم له النصر فى موقعة نيكولى وفتح بلاد اليونان ، هذا هو بايزيد خصم تيمورلنك الذى شاءت الظروف أن يقع أسيراً فى قبضته .

قال البدر : عجباً أى عجب ، أتكون لبايزيد هذه القوة الجبارة ، ويندحر أمام تيمورلنك ، مع أن المصريين قد انتصروا عليه فى بعض المعارك .

فقال ابن عربشاه : الغرور من قبل بايزيد ، والحيلة والصبر ، وأخذ الأهبة من قبل الأعرج تيمور .

قال العلامة ابن حجر : الآن عرفنا شيئاً كثيراً عن قوة بايزيد ، وعن أصالته الفنية فى مجال الحروب ، فلنعرف كيف التحم الفريقان ؟

فقال ابن عربشاه مستطرداً :

حين بلغ تيمورلنك الرابعة والستين من عمره ، كان ذا قوة باطشة إذ خضعت له الهند وفارس وبغداد وبعض بلاد الشام ، ورأى أن يمتد بفتوحه إلى الصين ، ولكنه سيضطر فى سبيل الصين إلى أن يتغيب عن بلاده عدة سنوات قد تطول ، وليس بآمن أن ينقض عليه جيوش الترك والمماليك ، لأن تركيا ومصر تعتبران من خصومه ، والحدود الغربية من بلاده تتصل اتصالا مباشراً ببلاد الأتراك ؟

فماذا يصنع ؟ لقد بلغه أن السلطان أحمد عامله على بغداد قد فر منها إلى تركيا ، واحتمى بالسلطان بايزيد ، وتلك مسألة لا يصبر عليها ، فأراد أن يعجم عود بايزيد ، فاستدعى سفيره لديه وأنبه فى عنف على مسلك بايزيد حين قبل أن يحمى الخارجين على تيمور ، وطلب إليه أن يسارع بإرسال السلطان أحمد البغدادى دون تردد ، كيلا يقع الشر بين الرجلين دون موجب ملح ، وزاد تيمور فكتب رسالة لبايزيد ، يعدد فيها انتصاراته ، ويذكر فتوحه ، وما قتل من الملوك والقواد ، محذراً بايزيد أن تكون له عاقبة هؤلاء ، ولم يكن السلطان التركى يتوهم أن فى الوجود من يستطيع أن يهدده أو ينذره بشر ما إذا لم يستجب لأمره ، وقد وقف طويلا عند قول تيمور : اعمل بنصيحتى حتى لا تندم ، وقف عند هذه العبارة ساخراً يتعجب كيف يجرؤ تيمورلنك على أن يكتب ذلك ، ويتساءل : هل جن؟ هل أصابه الخبل ، ودعا كاتبه ، فأملى عليه رسالة تمتلئ ازدراء وتنقصاً لترى يحارب أشباه الرجال فى آسيا ، ولا يدرى شيئاً عن المعارك الحقيقية التى يشنها الأبطال الحقيقيون ، ثم يتحدى تيمور تحدياً رهيباً ، فيقول : إنى أستعد لاستئصالك فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثاً ، وإن قصدت بلادى وفررت عنك فزوجاتى إذ ذاك طوالق منى) ، وقد استشاط تيمور غضباً لذكر زوجاته ! إذ عد ذلك جريمة كبرى لا تغتفر ، وتهيأ الفريقان للنضال .

فاتجه تيمور شرقاً نحو هضاب الأناضول فى جيش زاخر عدده ثمانمائة ألف مقاتل ، وهم ذوو أمل عريض ، لثقتهم فى قائدهم الذى يعرف كيف يغنم النصر من أقرب طريق ، واستولى فى طريقه على مدينة قيصرية ونهب كل ما فيها ، ثم اخترق نهر هاليس ووصل إلى أنقرة فطوقها بجدار من الفرسان .

أما بايزيد فلم يظن الأمر يحتاج إلى أكثر من أربعمائة ألف مقاتل ، وأكثرهم من المشاة ، أى أن معه نصف ما لدى تيمور ، مع فارق هام ، هو أن جنود تيمور من الخيالة وجنود بايزيد من المشاة ، ووقف الجيشان وجهاً لوجه ، ومرت ثمانية أيام فى ترقب حذر ، كان تيمور أثناءها يفكر فى حيلة تشتت شمل العدو ، قبل أن يلتحم الفريقان ، فأذاع أنه يرحب بجنود التتر الذين يعملون فى جيش بايزيد ، وأنه يعدهم أعوانه ، وقد انضموا إلى غريمه من قبل ، لا ليقفوا فى وجه إخوانهم

التريين ، فإذا أجبرهم بايزيد على معركة يصلونها مع إخوانهم ، فعليهم أن ينحازوا إلى الجيش التيمورى ، ليجدوا الإخوة الأشقاء مرحبين ؟ وقد أثرت هذه الدعاية العنصرية ففرت جموع كبيرة إلى جيش تيمور .

ثم إن الداهية واصل استعمال الحيلة ، فأمر كتيبة من جيشه أن تهجم على جيش بايزيد ، ثم تنسحب عند الالتحام متجهة صوب اليمين ، وفوجئ الترك بهجوم الكتيبة وتراجعها ، فظنوا أنها تقصد جيش تيمور لحمايتها ، وزحف الجيش التركى وراء الكتيبة الهاربة ، ليعجل بالالتحام ، مقدماً كل معداته فى الصفوف الأولى ، ولم يدر أن الكتيبة الهاجمة كانت خدعة مضللة ، لأن الجيش التيمورى ليس فى اتجاهها ، وإنما يكمن فى الخلف مستتراً خلف آجام متراصة كالحاجز المتصل ، وإذ ذاك أمر تيمور بالهجوم من الخلف ومعه أقوى عدده الحربية ، وأشجع رجاله الصناديد ، ولم يستطع المشاة أن يصمدوا للخيالة ، إذ كان ميدان القتال فسيحاً ، يترك الفرصة متسعة لصيال الخيول ، وعليها فرسانها الدارعون ، وذوو السهام المصوبة ، والسيوف المشرعة ، والرماح الطاعنة ، وكان الميدان فى اتساعه يتجاوز أربعة عشر ميلا ، وهى مساحة تتيح الهروب لمن يعجزه الثبات ، وقد اشترك بايزيد فى القتال بنفسه ، ولكن الحظ خالفه ، لأن الكثير من جنده قد انخرطوا فى جيش عدوه ، كما أن الخيالة بددوا المشاة وأعجزوهم عن الصيال. ولم يرع القائد العثمانى جانب الحيطة فى كره وفره ، فأصابه سهم أوقعه من حصانه بين يدى العدو ، فأصبح بايزيد أسير تيمور ، وشاع النبأ ، فتفرقت فلول الجيش التركى هاربة ! وزحف حفيد تيمور إلى بروصة عاصمة السلطان ، فنهب أموالها ، وقتل حراسها ، وأسر حريم السلطان وفيهم زوجاته وبناته وشقيقاته ! وكان يوماً هائلا مريعاً !

قال ابن حجر : فى ضوء ما قال ابن عربشاه كان النصر متوقعاً لتيمور ، لأنه أخذ للموقف أهبته ، فاستعد للقاء عدوه بأكبر ما يملك من عتاد ! ولأن الجيش التركى كان مليئاً بالسلاجقة والتريين ، والأولون هزمهم بايزيد فى بلادهم ، وضمهم قهراً إلى جيشه ، فملك جسومهم ، ولم يملك قلوبهم ، وهذا ما عرفه تيمور وأحسن استغلاله ، أما التتر فلم يكونوا فى حاجة إلى من يغريهم بالانضمام

إلى إخوانهم ، فإذا أضيف إلى ذلك أن عدد الجيش التيمورى وأكثره من الخيالة قد بلغ ضعف عدد الجيش التركى وأكثره من المشاة ، فإن النصر مضمون .

قال البدر العينى : هذا مع احتيال تيمور ، لأنه كان دائماً ينتصر بحيلته أضعاف ما ينتصر بشجاعته ، وموضع المؤاخذة لبايزيد أنه استهون أمر صاحبه ، ولو عرف مدى قوته لقابله بأضخم استعداد ، فإذا لم يتيسر ذلك ، فالتراجع أسهل ، وكان تيمورلنك لا يضع فى خططه الحربية محاربة (بايزيد) ويعدها خطراً داهماً يكلفه الكثير ، ولكن بايزيد استشاره ، وكتب إليه كتاب المستفز الهازئ ، وذكر له الزوجات والنساء ! وحرم تيمور عنده مما لا يجوز أن يذكر فى مراسلة فكيف يرى استخفافاً به ينحدر إلى هذا المستوى الوضيع ، وهذا ما صرح به تيمور لمن أشاروا عليه بالتمهل ، فزمجر وصال ، وقال : لقد قطع بايزيد كل خيط من خيوط الالتقاء ! هذا بعض ما علمته من ذوى الخبرة ، فهل لدى ابن عربشاه من جديد ؟

قال ابن عربشاه : الجديد هو أن كلا القائدين لم يذق السعادة منذ انتهاء المعركة ، وقضيا بقية عمرهما القصير بعد ذلك فى أتعس ظروف الشقاء !

قال السخاوى : كلا القائدين ، المنتصر والمنهزم معاً !

فرد ابن عربشاه : وهذا من العجائب فى دنيانا التعسة التى لا يهنأ به أحد ما ، منتصراً أو منهزماً ! أما بايزيد فالذى سمعته من الأتراك والتتر معاً ، أن الفاتح التترى سجنه فى قفص من الحديد ، وجعل يصحبه معه فى أسره المهين ، وكأنه مسلاة لأصدقائه ، مما أثر فى بايزيد أعنف تأثير ، فعجل بمصيره بعد بضعة أشهر بل إنه تجاوز أبعد حد ، حين عقد حفل أنس لجيشه جمع به آلاف الجنود والرؤساء وبايزيد فى القفص حبيس ينظر ما لا حيلة له فى دفعه ، ثم فوجئ المسكين بالضربة القاضية حين رأى نساءه وجواريه يسخرهن تيمور فى حمل الكؤوس وتقديمها إلى المحتفلين كالسبايا الذليلات !

قال الحافظ : أهذه رواية متواترة كما يقول المحدثون !

فقال ابن عربشاه : سمعتها فى سمرقند وفى أنقرة ، بمعنى أنى سمعتها من الجانبين معاً !

فرد السخاوى : لكن أنباء أخرى تقول : إن العاهل التترى قد تساهل كثيراً فى أمر بايزيد ، فنهض للقائه مسلماً حين بصر به لأول مرة ، وأجلسه إلى جواره مرحباً ، ودار عتاب بين الرجلين ، إذ قال له تيمور : إنه لم يكن يريد هذه الحرب لولا أن السلطان التركى هو الذى دفعه إليها ، فأطرق بايزيد وقال إنه ندم على ما كان منه ، ثم أنزله تيمور مع بقية الأسرى من الأمراء مكاناً طيباً ، وقد حضرت زوجة بايزيد — وهى الملكة رسينا اليونانية — مكرمة معززة لتجلس آمرة غير مأمورة مع زوجها فى قصر أنيق !

قال البدر : الروايتان متباعدتان ، والأقرب لطبائع الأشياء أن يحس تيمور أنه بعد انتصاره الساحق بلغ ما أراد ، ولم تعد لديه حاجة ما فى الانتقام ، فاكتفى بأسر السلطان لديه دون مبالغة فى الاحتفاء .

فسأل السخاوى : هذا ما كان من أمر بايزيد ، وهو معذور فى حزنه الشديد فلماذا تضافرت الأحزان على تيمور !؟

قال ابن عربشاه : تضافرت عليه الأحزان لأجل أعز الناس لديه ، فمنذ مات ولده جاهنجير ، ودموعه لا ترقأ ، وقد أوصى بزوجته ، وترك لها من الخدم والمتاع والجاه ما ينسيها بعض الشىء مصابها فى زوجها العزيز ، ثم فوجئ بالزوجة تأتيه باكية صارخة تعلن أن ابنه (ميران شاه) قد حاول اغتصابها ، إذ كانت ذات جمال ساحر ، وحين تأبت عليه سلط عليها من خدم القصر من يكدر عيشها فتنكرت فى لباس السوقة ، وفرت هاربة حتى أتت إلى تيمور لينقذها مما لحقها من ويل !!

وكانت سيرة (ميران شاه) لا ترضى أباه ، ولكنه احتمل مجونه وعبثه بالمحصنات مرغماً ، فلما بلغ الأمر به أن يعمد إلى زوجة أخيه الراحل ، طاش صواب تيمور ، وأصر على قتله ، ولكن الأمراء والقواد أخذوا يستعطفونه ، ويرمونه بحداثة السن ، ويقولون إنه أخذ درساً قاسياً حين لاح له شبح الانتقام فى سيفك ، وغلبته روح الأبوة ، فابتلع المأساة صابراً .

ثم رماه الدهر بما لم يعد بعده مجال للصفاء ، إذ كان يعقد أكبر الآمال على حفيده السلطان محمد ، لأنه قد ورث جرأته وشجاعته ، وعظيم دهائه ، وقد

كسب له معارك كثيرة كللته بالمجد والفخار على حداثة سنه ، كما كان معبود الجيش التترى يصدر عن أمره دون اعتراض ، حتى تعجب تيمور نفسه كيف يبلغ الشاب هذا المبلغ الخرافى من نفوس جيشه ، وفيهم ذوو الرتب العالية ، والتجارب الطويلة ، لقد كان السلطان الحفيد عزاء جده بعد وفاة نجليه البطلين جاهنجير ، وعمرشيخ ، وقد قال فى نفسه إن القدر حين رمى لم يكتسح ، ولكن ترك بقية تجبر الصدع .

ثم جاءته الأنباء أن الحفيد قد رمى بسهم فى صدره ، وأن أنفاسه معدودة ، وما كاد يصل إليه ومعه نطس الأطباء ، حتى فاضت روحه ، فاسودت الدنيا فى عين تيمور ، وجعل يلطم كالنساء ، وقد اعتاد رجاله أن يروه جبلا لا يتزعزع حين يحتدم البأس ، ولكنه سقط على الأرض يمرغ وجهه فى التراب صائحاً : ما جدوى حياتى بعدك يا بنى !! ثم أمر أن تحنط الجثة ، وتحمل معه إلى سمرقند ، لترقد فى مثوى فخم لزمه الجد الحزين فما يكاد يبرحه ، ولم يعد قادراً على إخفاء دموعه ، وزاد من خطبه بكاء أطفال الأمير على قبره ، إذ كانت أمهم تصحبهم كل يوم فيصيحون ، وفيهم من يسرع إلى الثاكل الكبير ، فيسأله متى يستيقظ أبى ؟ وتلك حال تعجل بالفناء ؟

قال ابن حجر : ألسنا نقول فى أمثالنا الثائرة : (ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع) ، وقد طار بايزيد ، وطار تيمور مجاوزاً أفقه إلى ما هو أعلى وأرفع ، ثم هبت العاصفة ، فاختل الجناح ، وسقط الطائران ما بين عشية وصباح !

والتفت ابن حجر إلى أحمد بن عربشاه قائلا : لقد غنمنا منك كثيراً ، فلاتبطئ علينا بعد الآن .

فصاح البدر : لقد تقدم الليل دون أن نشعر ، وآن لنا أن نترك الشيخ فى سلامة الله ، وحفظه المكين ...

بابر التيمورى

جلس المؤرخ محمد بن إياس الحنفى فى داره مع تلميذيه صالح البلقينى ، وتقى الدين الشمنى ، يتحدثون عن الحالة السياسية فى العصر العثمانى بعد سقوط دولة المماليك ، وكان ابن إياس قد أفاض فى حديث سليم الأول السلطان التركى الذى اغتصب الحكم فى مصر بجيشه المدرب ، فأسقط السلطان الغورى صريعاً بالشام ، وقتل خلفه طومنباى وعلق جسمه على باب زويلة بمصر ، ولم يكن ابن إياس مداهناً متملقاً ، بل عدد نوائب الجيش العثمانى فى صراحة تدعو إلى التقدير ، وسجل فى صفحات (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) ما لم يجرؤ مؤرخ على تسجيله ، ولم يشأ أن يعقد صلة له بخاير بك المملوكى الذى أقامه سليم والياً بمصر ، خاضعاً لمشيئته ، فآثر الاعتزال فى منزله ، حيث يزوره نفر من خاصته ، يقرءون ويتناقشون ، ومن هؤلاء تلميذاه صالح وتقى الدين اللذان آثرا التردد عليه دون انقطاع ، إذ يجدان عنده ما لا يجدان عند الشيوخ بالأزهر ، فابن إياس رجل تاريخ وراوية أخبار ، وأساتذته يحورون فى علوم الشريعة وعلوم اللسان ، دون اهتمام بصحف الأدب ، ومأثورات التاريخ .

قال تقى الدين مخاطباً أستاذه : إن بعض الناس يرجفون يا مولاى بشىء أحب أن تعلمه ، فقد زعموا أن ما كتبته عن سليم والغورى أشعل غضب خاير بك ، وهو يدبر المكيدة لعقابك ، ولى رجاء أن تلزم الحيطة !

فابتسم ابن إياس وقال : لم أكتب إلا ما عرفه الناس جميعاً ، ورأوه رأى العين ، وإلا ما تتحدثون به أنتم فى مجالسكم ، وما يعلمه أساتذكم وشيوخكم ، وخاير بك يعرف أنى لا أذيع سراً ، ولكن أتحدث عن مشاهد مشتهرة يعرفها القريب والبعيد ، ولئن خاطبنى فيما كتبت ، سأقول له هات من قولى حادثة لم تقع !

فقال البلقينى : إنه يشعر أن كل لوم يوجه للسلطان العثمانى إنما يوجه إليه ، فهو الذى خان الغورى حين تآمر مع سليم !

فرد ابن إياس : والذى يشعر به يقوله الناس جميعاً ، فهل يقدر على قطع الألسنة وتكميم الأفواه ؟ ثم إنى علمت أنه الآن نادم أشد الندم على ما كان منه ، فقد كان يظن أن السلطان سليم سيهزم الغورى ، ويرحل إلى بلده تاركاً له الأمر فى مصر ، ولكنه فوجئ بأن مصر قد ضمت بكلمة واحدة إلى نفوذ بنى عثمان ، وأنه ليس سلطاناً على البلاد ، بل أصبح والياً يتلقى الأمر فينفذه ، ولا يفعل شيئاً فى أمور السياسة العليا ، إلا إذا جاءه الرأى من السلطان وعليه التنفيذ ! لقد كان قبل المعركة والياً على الشام ، وقد وثق به الغورى فأعطاه سلطة تنفيذية يفعل بها ما يراه ، ومع ذلك فقد استغل ما لديه ، وتآمر على الغورى ! فماذا يكون شعوره الآن ، وهو فى عين سيده العثمانى صنيعة مأجور لا ذمة له ، وفى رأى المصريين غادر خؤون ، إنه لن يتعرض لى ولا لابن زنبل الرمال ممن سجلوا التاريخ بصدق ، لأنه لا يريد أن يشعل النفوس بالغضب من جديد !

ثم طرق الباب طارق ، وجاء الخادم يعلن أن زائراً لم يعهده من قبل ، ويلوح أنه شاب غريب عن مصر قد أتى يزور المؤرخ ابن إياس ، فأذن الشيخ له بالدخول ووجد المجتمعون أنفسهم أمام طالب علم يتزيا بأزياء الهنود ، فرحبوا به ، وأخذوا يستمعون إليه فى إقبال ، وقد عرفوا أنه انتسب إلى حلقات الأزهر منذ شهر ، ووجد اهتماماً زائداً بعلوم الشرع واللسان ، ثم طلب دروس التاريخ ، فقيل له : إن الشيوخ قد يؤلفون الكتب فى التاريخ ، ولكنهم لا يقومون بتدريسه ، وقد طالع كتباً فى هذا الفن للمقريزى ، وابن حجر وابن تغربردى والسخاوى وابن إياس ، وسأل عن مؤرخ اليوم الذى لا يزال ممتعاً بالحياة ، لينهل من مورده ، فأجمع الشيوخ على أن سيدنا ابن إياس فارس الحلبة ، ثم قال الضيف : وقد بحثت عن منزل سيدى حتى أتيح لى أن أشرف بلقائه الآن !

فابتسم ابن إياس ملاطفاً ، وسأل ضيفه : وما رأيك فيما قرأت من كتب المقريزى وابن حجر والسخاوى وابن تغربردى وابن إياس ؟

فنظر الضيف ، واسمه (حيدر زاد) نظرة المتردد ، ثم قال : أأجد من سعة الصدر ما يسمح لى أن أفضى بما لدى ؟

فعجل ابن إياس يقول : أنا فى شوق لأن أسمع ناقداً يقرأ صحف المؤرخين ، ويبدى رأيه فيما طالع ، فقل يا بنى ما بدا لك ، فكلى أذن تسمع !

قال البلقينى والشمنى معاً : ونحن أشد شوقاً لما تقول ، ونزيدك أن أستاذنا ابن إياس يحبنا أكثر الحب ، لأننا نناقش آراءه ، وهو يضيق ذرعاً بمن يقرأ دون أن يعلن رأياً فيما يطالع !

قال (حيدر زاد) : إن الأمة الإسلامية أمة واحدة ، وقد كان السابقون من المؤرخين أمثال الطبرى والمسعودى واليعقوبى وابن الأثير ، يكتبون التاريخ محيطاً بأخبار الدول لا بأخبار دولة واحدة ، ولكن أكثر ما قرأت فى مصر ، يقصر الحديث على سلاطين مصر ، وما امتد إليه حكمهم فى الشام واليمن ، من عهد الخلافة الفاطمية إلى سقوط دولة المماليك ، وقد قرأت مثلا ما كتبه مولاى فى بدائع الزهور ، فلم أجد ذكراً لبلادى ، وقد نشأت بها دولة تيمورية أسسها ملك كبير من أحفاد تيمورلنك عقب حروب طاحنة ، وأهوال شديدة ، ووقائع لا تقل خطورة عن وقائع قلاوون والغورى وسليم ، أفيجوز لأستاذنا ابن إياس أن يهمل تاريخ إخوان له فى الملة والعقيدة ؟ مع أننا فى الهند نحب بلاد العرب ، ونزور مكة كل عام ، ونسعد بالرحلة فى ربوع العراق والشام ومصر ، بل والغرب أيضاً على بعده السحيق !

نظر ابن إياس إلى تلميذيه ، الشمنى والبلقينى ، وسألهما : ماذا تقولان فيما تسمعان ؟

فقال البلقينى : الاعتراض وارد ، وأحسب أستاذنا قد تهيأ للإجابة عنه بفكره السديد !

فقال ابن إياس : هذه سعة تفكير منك يا حيدر ، تقابل لدينا بالثناء ، ولكن الإلمام بأحوال المسلمين فى كل مكان مما يتعذر ، والأولى أن يعكف كل مؤرخ على تسجيل ما يرى فى موطنه ، ثم تتداول الكتب ، فنقرأ ما لديكم ، وتقرءون ما لدينا ؟ إذ لا تمكن الإحاطة والشمول ، وما ذكرت عن الطبرى وأمثاله ، يختلف عما لدينا الآن ، فقد كانت الدولة العباسية ممتدة الأطراف ، والأنباء تتصل بالحواضر فى نطاق الخلافة ، كما كانت الرحلة متصلة بين العلماء ، إذ يرحل أمثال

الطبرى إلى كل بلد إسلامى دون عائق ! أما اليوم فلا رحلة متصلة ، ولا خلافة ممتدة ، على أنى أنتهز فرصة لقائك فأسألك عن الدولة التيمورية التى قامت بالهند ، هذه الأيام ، كيف نهضت ؟ وماذا ينتظر لها ؟

فقال حيدر زاد : لو أذنت يا سيدى فسأذكر بإيجاز أن الذى أسسها هو الملك محمد ظهير الدين بابر : الذى يتصل نسبه إلى تيمورلنك بأربعة آباء ، لأن مملكة تيمور العظيمة قد تقسمت بعده إلى دويلات ، حاز كل وارث من أبنائه وأحفاده ما استطاع أن يحافظ عليه ، فقد يغير عليه أحد أقاربه التيموريين أنفسهم كما تعرضوا جميعاً لخطر الشاه إسماعيل الصفوى ، فزعزع أركاناً كثيرة من دولة تيمور الكبير ، وأعجب ما فى تيمورلنك وأبنائه أنهم كانوا مع قسوة قلوبهم ، وحبهم لإثارة القتال وإراقة الدماء وإزهاق الأرواح لأدنى سبب ، كانوا مع ذلك فنانين يحبون الآداب ، وينظمون الشعر ، ويقيمون الأبنية الجميلة ذات الحدائق والتماثيل والمقاصر المحلاة بالذهب سقوفاً وأبواباً وأثاثاً ! هم أهل فن راق يدفعهم إلى الشعر والأدب والمعمار !

فقاطع ابن إياس ضيفه قائلا : تسمح لى يا حيدر أن أعقب على قولك ببعض ما يكشف الحقيقة المغلفة بالأوهام ، إن حب الفن وقرض الشعر ، والهيام بالحدائق والتماثيل ، لا يتصور من عتاة غلاظ الأكباد يشنون الحرب لتأكل عشرات الألوف فى اليوم الواحد ، دون نبضة شفقة أو دمعة رحمة ! الفن يصدر عن قلب رقيق وشعور حساس ، وإذا كان تيمورلنك وأبناؤه وأحفاده يحبون الفن ، لأنهم يرحبون بالشعراء ، ويقيمون الأبنية الفخمة ، فإنهم فى الواقع يحبون أنفسهم ، لأن الفن يشيد بهم ، الشاعر يمدحهم ، والأبنية العالية تسجل أسماءهم ، والأدباء يؤلفون الكتب المبالغة عن مآثرهم ، فيشجعون هؤلاء جميعاً باسم الفن ، ولكن دع الشعراء يتركونهم دون مديح ، ودع أرباب الهندسة والمعمار لا يسجلون صورهم على البناء ، ودع الأدباء يغفلون الحديث عنهم ، فلن تجد لدى أمثال تيمورلنك أو السلطان سليم أو كل طاغية عطفاً على الأدب أو تقديراً للموهوبين ! هذه وجهة نظرى فأتم حديثك .

قال حيدر : هذه إضافة جديدة يا سيدى ، ولكنى أقول إن الملك ظهير الدين

بابر الذى أسس المملكة التيمورية بالهند يقول الشعر ، ويكلف بالغناء والموسيقى ، ويهتم بتنسيق الحدائق وغرس الأزهار ! وقد نشأ عظامياً عصامياً !

فابتسم ابن إياس ، وقال البلقينى : ما معنى عصامى عظامى فى وقت واحد ؟

فأجاب حيدر : أما إنه عظامى ، فلأنه من أسرة تيمورلنك ، بينه وبين رأس الأسرة أربعة آباء ، وأما إنه عصامى ، فإن أعمامه وأولاد أعمامه قد أغاروا على مملكته المتواضعة فى فرغانة ، وقد ورث ملكها عن أبيه قانعاً بها فى بادئ الأمر ، ولكنه فوجئ بمن حاصروه وطردوه ، وتعقبوه فى كل مكان ، حتى أصبح يأوى إلى الجبال حذراً ، مع ثلة من رجاله لا يستطيعون أن ينصروه أمام جيوش حافلة ذات ذخيرة وعتاد ! ومع هذه الحالة اليائسة المؤسفة ، فقد صبر حتى أعد العدة وجيش الجيوش ، واقتحم الميدان ، فقهر الأعداء بشجاعته وبأسه لا بجيش أبيه وعتاد جده ، فهو من هذه الناحية عصامى !

قال البلقينى : شكراً فقد أزلت ما رابنى من الغموض ، فهلم إلى حديثك .

فانطلق حيدر يقول : لم يقنع ظهير الدين بابر بمملكة فرغانة ، إذ رأى همته أبعد من أن تقف فى حيزها ، ثم جاءه أن أمير سمرقند فى وضع حرج من قومه ، إذ تكتنفه الثورات المتتابعة ، فهيأ جيشاً كبيراً ، وقاده إلى سمرقند ، حيث اعتقل صاحبها ، وأعلن نفسه أميراً عليها ، وسمرقند عاصمة جده الأكبر (تيمورلنك) وقد شعر حين استولى عليها أنه موكل بأن يعيد سيرته ، فيجمع الدول الصغيرة المبعثرة فى قبضته ، وإذ ذاك يعود للأسرة مجدها الضخم ، وصيتها البعيد .

قال ابن إياس : هكذا نعلم من التاريخ دون عظة ! أسرة واحدة يقاتل بعضها بعضاً ، لتعلو رأس على رءوس ، والضحية هم الجنود المساقون ، والأهلون هم الذين يتحملون نفقات القتال ، ويكابدون الثكل واليتم مع الفقر والعرى والجوع أليس الجنود أولادهم ، تسفك دماؤهم فى خدمة فرد ! أليس المحصول الزراعى ، والعروض التجارية ، والمطايا ، من خيل وبغال وإبل ، كل ذلك ينهب نهباً دون أن يجرؤ لسان بسؤال !! ثم يقال إن حفيد تيمور قد بلغ مجد جده تيمور !!

قال حيدر : أنا أسرد ما أعلم من تاريخ الرجل ، أما آراء مولاى فما أجملها لو ذاعت بين الناس ، وآمن بها الجميع .

فقال ابن إياس : أنا أمتحن صبرك يا حيدر فاسترسل !

قال حيدر : لى تعليق يسير على ما قال سيدى ، أنا أعرف أنانية المتسلطين ، ورعونة المتجبرين من بنى تيمور ، ولكن أصابع اليد الواحدة تختلف ، فقد أدركنا عهد والد بابر ، فلم نر أقنع منه ولا أزهد ولا أرحم ، فما يذكر عن عدله ، وتحريه الإنصاف قدر الطاقة ، أن عاصفة ثلجية رهيبة ، هبت على قافلة قاصدة نحو بلده ، وكانت القافلة ذات عدد يبلغ ألف رجل ، ومعهم أموال كثيرة من الذهب والفضة ، ولم ينج منها غير رجلين فحسب ، نشطا إليه باكيين ، فأمر كتيبة تذهب إلى حيث صرع هؤلاء ، وتجمع ماتركوا من الفضة والذهب والأغطية والأكسية ، وتحضره إلى مقره ، وكان شيئاً ثميناً ذا قدر نفيس ، فأمر من يسير إلى أهل القافلة فى بلدهم (أندجان) ليحضروا ، كى يأخذ كل وارث نصيبه ، على أن يحضر معهم شهود يعترفون بالقرابة ، وكان فى مكنة هذا الأب العادل أن يضم المال إلى حوزته ، حيث لايوجد من يعترض ، وبخاصة إذا كان الوارث غافلا لايدرى شيئاً !! ولكنه الضمير .

قال ابن إياس : وهل شن والد السلطان بابر حرباً أو اعتدى على مملكة تيمورية أو غير تيمورية ؟

فقال حيدر : لا . فسأل ابن إياس : وهل له مثيل فى ورعه هذا من بنى تيمور ؟ فقال حيدر : لا . قال : إذن هو استثناء فذ ، والأكثرية أنانيون ناهبون ! أكمل يابنى !

فقال حيدر : لم يستقر الأمر طويلا للسلطان بابر فى سمرقند ، حيث تحالفت الجموع من الأزبك وفرغانة على قتاله ، فلقى من الهزائم ما أرق مضجعه ، وقد بلغ به الأمر أن انفض من حوله عنه ، حين يئسوا من انتصاره ، ولم يبق معه غير ثمانية جنود من أخلص أعوانه ، فانحاز بهم إلى جبل ناء ليرسم خطة جديدة فى أحلك ضروب اليأس ، لأن سمرقند قد خلصت لغيره ، وفرغانة قد انضمت إلى سواه ، وهو مشرد لا يدرى أين يتجه ، وليس معه غير ثمانية جنود بلا عدة ، ولكنه علم أن خلافاً نشب فى أرض الهند ، فأرسل أعوانه الثمانية يجمعون جنده ، ويقولون إن بابر قد استدعى ليكون ملكاً على الهند ، فإذا تهيأ له جيش من أنصاره فسيكونون

ذوى الشأن فى بلاد كثيرة النعيم ، آهله بالزروع والثمار ، ومافتئت فلول الهاربين أن اجتمعت وتدافعت كالموج إلى حيث يعتصم بابر فى غار بالجبل ، ثم تقدم الجيش إلى الهند وبحث الأمر من كافة وجوهه ، فوجد الكفة الراجحة مع جيش لاهور ، فانضم إليه ، واعتقد الأعداء أن مدداً من فرغانة وسمرقند وكابل يزحف خلف بابر ، فانهزموا مدبرين ، وفى أيام قليلة صار بابر سيد الموقف فى الهند ، بعد أن كان أعزل فى جبل صحراوى لايؤنسه غير ثمانية أشخاص .

قال ابن إياس : وهل تم الأمر نهائياً بهذه السهولة ! ؟

فقال حيدر : تجمع الهنود فى جيش لجب تحت قيادة السلطان إبراهيم اللورى أخذاً بالثأر من بابر ، فتقدم اللورى على رأس جيش قوامه مائة ألف مقاتل ومائة فيل ، وسارع بابر بإقامة الحواجز والخنادق ، ورتب قائدى الميمنة والميسرة ، ليحتل القلب ، واندفعت العربات المشحونة بالقذائف النارية تهاجم جيش السلطان إبراهيم ، ولم تكن للفيلة عهد بهذه القذائف الملتهبة ، ففرت من المعركة مذعورة ، وفر خلفها الجنود فى ذعر ، ومن فاته اللهيب صرع تحت أقدام الفيلة ، وانجلت المعركة عن قتل السلطان إبراهيم مع خمسة عشر ألفاً من جنده غير الجرحى وأشباه الموتى من المصابين .

أشار ابن إياس لصاحبه ، كمن يريد أن يسأل عن شىء عاجل ، فانتظر حيدر ليسمع قول المؤرخ الكبير :

قلت إن خمسة عشر ألفاً من جنود السلطان إبراهيم اللورى قد لقوا مصارعهم عدا الآلاف من الجرحى وأشباه الموتى من المصابين !

فقال حيدر : هذا ما قلت حقاً !

فقال ابن إياس : كان السلطان إبراهيم يرأس جيشاً إسلامياً ، وكان بابر يرأس جيشاً إسلامياً ! ودارت الحرب أهلية بين المسلمين ، بأسهم بينهم شديد ، فماذا كسب الإسلام من ذهاب قواته ؟ ولمصلحة من ؟ خربت البيوت ، ويتمت الأطفال ؟

فسكت حيدر قليلا ، وبدا عليه أنه لايهتدى إلى رد سديد ، فقال ابن إياس : كنا نعتز ببابر لو أضاف أرضاً جديدة فى الهند إلى الإسلام ، كما فعل محمد بن

القاسم الثقفى يوم ذهب لنشر الدين أول مرة ، وكما فعل السلطان محمود الغزنوى حين أعاد الكرة ثانية بعد قرون ليثبت أركان الإسلام بعد أن زعزعتها الأعاصير ، فهذان بطلان يتأرج حديثهما عاطراً على شفاه الأجيال ! ولكن ماذا سيقول المؤرخون عن بابر حين حارب جيشاً إسلامياً ، وفتك بخمسة عشر ألفاً من جنوده مع ماذهب من الآلاف أيضاً من رجال غريمه ! أنقول إنه أسس المملكة التيمورية فى الهند ولم يبال بسفك الدماء وإبادة الآلاف ! ما الفرق بينه إذن وبين أعدى عداة الإسلام !

صاح حيدر : سيدى ، سيدى ! لقد حولت فكرى من اتجاه إلى اتجاه ، أحسبنى كنت نائماً واستيقظت !

فأطرق ابن إياس برأسه إلى الأرض ، وقال فى همس : كلنا نائمون يابنى ولست وحدك النائم .

إن خطباء المساجد فى مصر يدعون للسلطان سليم بالنصر ، ويدعونه سلطان البحرين وحامى الحرمين ، لأنه قتل مئات الآلاف من جيوش مصر والشام ، كما زحف إلى فارس فقتل بها مثل ما قتل من جيوش مصر والشام ! وهو بعد ذلك خليفة رسول الله وأمير المؤمنين ! ! لماذا لاتقام الموازين العادلة لأمثال سليم العثمانى وبابر التيمورى ! ألإنهم انتصروا يكونون أبطالا ، وعلى من تم النصر ؟ على إخوانهم المسلمين !

إن كبدى لحرى من العثمانيين ، لقد والت بلاد الأندلس صرخاتها ، لتجد النصير منهم أمام جيوش الصليبيين ، وسقطت المدن الحزينة مدينة خلف مدينة ، فما هب لنجدتها مسلم غيور ! ثم تتوجه الجيوش العثمانية لغزو مصر والشام وفارس ! ويصبح القائمون على هذا الغزو أمراء المؤمنين ، وخلفاء المسلمين !

قال تقى الدين الشمنى لشيخه : مولاى ، أنت مريض ، ونراك قد تأثرت بما كان تأثراً بانت دلائله فى انفعالاتك ، فرفقاً مولاى ! ولنقف عند هذا القول ، فما بنا حاجة إلى مزيد ! وقد حان أن نلتمس الإذن بالانصراف .

فرد ابن إياس : لا انصراف الآن ، أنتم جميعاً ضيوفى هذا اليوم ، وحيدر زاد ضيفى الأول من بينكم ، وسنترك حديث التاريخ إلى حين ..

السلطان محمد الفاتح

— ١ —

كان الأمير محمد بن السلطان مراد يفكر فى احتجازه بغربته النازحة بآسيا ، حيث دفعه والده إلى تأديب من شقوا الطاعة عليه ، دون أن يأذن له بالعودة ، بعد أن قام بمهمته على خير الوجوه ، ثم سقط عليه النبأ فجأة بانتقال والده إلى جوار ربه ، وقد تملكه ساعتئذ عزم المردة ، فاقتعد صهوة جواده ليقطع مائة وعشرين ميلا فى شوط واحد دون أن يتلبث دقيقة واحدة ، فبلغ ضفاف البسفور ليركب البحر فى رحلة أخرى إلى مقر السلطنة ، وهناك وجد الخلصاء من أعوانه يتكتمون ممات السلطان حتى يحضر نجله الأكبر ، فيعلن توليته السلطنة ، فور إعلان نبأ الوفاة ، حيث لا يسمح لجهة أخرى أن تؤيد أميراً آخر ، فيحدث من الشجار ما يسبب الفتنة دون داع ، وقد استجاب الناس إلى مبايعة الأمير ، إذ لم يكن مجهول المكانة فى وطنه ، بل تدرب على شئون الحكم ، وعرف مضايقه وأزماته فيما مضى من عمره القصيرة ، إذ اعتزل والده السلطان الحكم مرتين قبل رحيله ، وجعله صاحب الأمر أثناء اعتزاله ، وكأنى به أراد تدريبه العملى ، ليظل راصداً أعماله عن بعد ، فإذا وجد من أخطائه ما يدعو إلى التصحيح بادر بامتلاك الزمام ، وهذا ما حدث فعلا فى موقفين متعاقبين .

ففى الموقف الأول اعتزل السلطان شئون الحكم بعد أن عقد معاهدة صداقة لمدة عشر سنوات بين تركيا وملكى المجر والصرب ، تقضى بالمسالمة التامة ، والتعاون المثمر ، وبذلك تهدأ تركيا قليلا من حروبها الدائمة ، ويتفرغ محمد بن مراد إلى الإصلاح الداخلى دون أن تستفزه حروب الجيران فى أوربا ، ولكن إمبراطور القسطنطينية ما كاد يعلم باعتزال السلطان وتولية صبى لا يزال يدرج فى أول خطواته ، حتى نهض إلى تحريض ملكى الصرب والمجر على إلغاء المعاهدة بعد عقدها ببضعة أيام وسافر إلى الملكين فى وفد من رجاله ليتم هذا النقض فى أسرع

وقت ، وحين قال ملك المجر أنه أقسم على الإنجيل أن يرعى العهد ، قال له إمبراطور القسطنطينية إنه اتفق مع بابا الكنيسة أن يحله من قسمه ، وذلك جائز لديه ، نظراً للمصلحة العليا التى تعود على المسيحية بنقض هذه المعاهدة فى ظرف يسمح بالانقضاض على العثمانيين وكذلك انخدع ملك المجر ومن ورائه ملك الصرب فأعلنا الحرب على تركيا ، وعبرت جيوش أوربا نهر الدانوب مخترقة بلاد البلغار حتى وصلت إلى البحر الأسود ، ففاجأت أسطولا تركياً صغيراً ، فدمرته برجاله واستولت على (ورنة) ، وجاء النبأ إلى السلطان مراد فى اعتزاله ، فقبض على زمام الملك ، وقاد الجيش العثمانى بما عرف عنه من شدة السطوة ، وقوة العزيمة ، هذا إلى أن روح الغدر التى دفعت الأعداء إلى نقض المعاهدة ، وزحف الجيوش دون إعلان سابق ، قد أذكت حفيظة السلطان فجعل صدره يتأجج غيظاً ، وانتقل غضبه إلى جنوده ، فهبوا من ورائه هبة رجل واحد ، حتى انتصر فى معركة (ورنة) انتصاراً ساحقاً ، وسقط ملوك أوربا صرعى دون أن يفلت أحد ، وضم السلطان إلى دولته بلاد البوسنة والصرب ، ورجع هادئاً إلى مقر السلطنة ليعلن تنازله لولده ويعود إلى عزلته كما كان من قبل .

ولم يمض عام حتى تمردت فرق الانكشارية على محمد بن مراد ، وانتهزت المجر فرصة الاضطراب الداخلى فهيأت جيشاً قوامه أربعة وعشرون ألف جندى وزحفت إلى (قوصوه) ، وسرعان ما علم مراد بما كان ، فرجع إلى الحكم وقاد الجيش وهو مريض يعانى من الآلام ما لا طاقة له به ، ولكنه قاوم حتى انتصر نصراً ساحقاً ، ولم يشأ أن يعتزل ، كيلا تثور الانكشارية من جديد !

ولم يلبث بعد معركة (قوصوه) غير عامين ، ثم فوجئ الناس برحيله ، حين عاد ابنه الأمير محمد من آسيا ليعلن النبأ على القوم ، ويأخذ زمام المبادرة ، وكان السلطان الجديد يعرف خصومه جيداً داخل السلطنة ، فقام بتشتيتهم على وجه سريع ، وقد تأكدوا أن الأمر قد استتب له ، فهربوا إلى أماكن سحيقة ، بحيث هدأ الوضع ، ولكن السلطان أخذ يحسب بينه وبين نفسه ما يمكن أن يقع ، فعرف أن له أخاً صغيراً من أم مسلمة ، على حين أن أمه مسيحية ، وخشى أن تتجمع شراذم من أعدائه فتبايع أخاه ، بحجة أنه أصلح منه ، لأنه مسلم أباً وأماً ، ثم تدور

حرب لا يملك نهايتها ، وكان الأخ الصغير لا يزال فى حضن أمه ، لا يملك من أمره شيئاً ، ولكن السلطان بعث بمن يحضره مع أمه شوقاً لرؤيته ، ثم أمر بقتله غرقاً فى حمام مائى ، والوالدة المسكينة ذاهلة لا تملك حتى الصراخ !

وشاع الخبر بين الناس ، فصادف استنكاراً عاماً ، وإن كان مما ينتظر فى أمثال هذه المناسبات ، إذ أن سوابق مؤلمة قد حدثت من هذا الطراز دون أن يعترض أحد ، وقد شاء محمد بن مراد أن يجعل الأمر قانوناً يلتزم ، لا مؤامرة تدبر بليل ، فأصدر قراراً سلطانياً ينص على أن السلطان الذى يلى الحكم يباح له أن يقتل إخوته الباقين كيلا يحدث نزاع بين أمراء البيت السلطانى تراق فيه الدماء دون موجب ، وقرئ القرار على الملأ ، فسكت الناس على غيظ ، والناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، ترى فيهم الغاضب للحق ، الجانح للإنصاف ، وترى المداهن الانتهازى الذى يجعل الظلام نوراً ، والبغى عدالة ، وقد انبعث هؤلاء يذيعون أن القرار حق لا شبهة فى عدله ، لأن صيانة الدولة لن تكون بغيره ! وكان غضب علماء الدين شديداً ، إذ رأوا الحق يستباح ، والبغى يرتدى ثياب العدل ، فأخذوا يجتمعون فى حنق ليقرروا أن السلطان أباح ما حرم الله ، وكان فيهم من تلقى السلطان على أيديهم شذوراً من المعرفة ، حيث اختارهم والده السلطان مراد لتثقيفه صغيراً ، ومنهم الإمام أحمد بن إسماعيل الكورانى ، والملا خسرو الفقيه الحنفى مفتى الدولة ، وفخر الدين العجمى ، وقد اجتمع الثلاثة ، يتشاورون فيما يجب أن يفعلوه ، وكلهم ثائر حزين .

قال الإمام الكورانى : ماذا ترى يا مفتى الدولة ، فى قرار أصدرته الدولة تبيح به قتل الأبرياء ؟

فقال ملا خسرو : القرار قرار السلطان ، ولم يعرض على ، ولكنى فوجئت به ، وقد أصبح مرسوماً سلطانياً نافذ المفعول !

قال فخر الدين : نحن نعلم أنك برىء منه ، وأنك تشتعل غضباً لصدوره ، ولكن ما موقفك من قرار يحلل ما حرم الله ؟

قال ملا خسرو : موقفى موقفكما ، وأنا معكما فى كل اتجاه ، فلنستمع إلى قول الشيخ الكورانى .

قال أحمد بن إسماعيل الكورانى : نحن جميعاً بمنزلة واحدة من السلطان ، يعرفنا ونعرفه ، ولم يسلف إلينا ما يسىء ، وهو جبار معتسف ، قتل الصدر الأعظم خليل باشا حين عارض إعلان القرار ، وبادر بتعيين خلفه محمود باشا ، فماذا عسى أن يصنع بنا ، بعد أن قتل من استدعاه إلى تولية الحكم من مكانه النازح ، ومهد له الطريق ، وظن أنه أصبح صاحب مشورته وموضع رضاه !

زفر ملا خسرو زفرة حارة وقال : لا تصدق الحكمة القائلة : (اتق شر من أحسنت إليه) كما تصدق على السلاطين ، وأرباب الحكم ، فأكثرهم يحمل الغل لمن أحسن إليه ، إذ يستشعر فى أعماقه امتناناً له ، وكأن بقاءه يذكره بأنه رهين فضله وصنيعة تدبيره ، وهذا ما يضائل من مركزه أمامه ، مهما كان سلطاناً رئيساً ، وقد شاع بين الناس أن الصدر الأعظم خليل باشا هو الذى استدعى السلطان وملكه الزمام ! وهو حق لا مرية فيه ، ولكن الرئيس المتجبر يسوءه أن يعلم هذا الحق ، وقد عارضه الصدر الأعظم عن محبة وإخلاص ، فتكلف الغضب ، واتهمه بالخيانة ليلقى سوء المصير !

ثم سكت ملا خسرو ، وقال : أويبقى السلطان لعلماء ينقدونه ، لأنهم كانوا أساتذته وهو صبى ناشئ !؟

قال الكورانى : علينا أن نحتال يا قوم ، فلا نعارض فى غضب ، ولكن نعلن التأييد ونزجى النصيحة فى رفق .

قال فخر العجمى : هذا رأيى ، ولابد أن نطلب لقاءه نحن الثلاثة ، لنهنئه بتولية السلطنة ، وسيرحب .

قال الكورانى : هنأناه من قبل فى وفد العلماء ! وهو يعرف ذلك ، وسيقابلنا متربصاً !

فقال ملا خسرو : إذا وجدنا ملامح الشر فى وجهه ، عطفنا بالحديث إلى موضوع آخر ، والأعمال بالنيات !

— ٢ —

علم السلطان الجديد باستئذان أساتذته فى الدخول إليه ، وكانت له فراسة تهديه إلى توقع ما يحدث ، فأحس أن اجتماع الثلاثة فى مجلس واحد لابد أن يكون عن أمر دبر بليل ، وهو فى أعماقه يستشعر إخلاصهم له ، ووثوقهم بمواهبه ، كما يعلم أنهم لم يقدموا للقائه إلا وهم يتأكدون مما لديهم من منزلة فى نفسه ! وإذن فلابد من الاحتفاء بهم ، والإنصات إلى ما يقولون ، هذا إلى أن العامة فى الوطن التركى تعرف لهم أقدارهم ، وتنقاد إلى ما يصدرون من رأى ، فهو إذا ضمهم إليه ، ضمن اجتماع الناس حوله ، وولاءهم له ، ولا شك أن قراره الخاص بإعدام من يتوهم منازعته فى العرش من إخوته ، أوجد تذمراً فى نفوسهم ، لم يعلنوه للناس ، وآثروا أن يقابلوه ، ليعلنوا له رأى الدين فيما أصدر من جور صريح !

لقد أحس السلطان ذلك ، فأراد أن يشغلهم بأمر خطير لم يقع لهم فى حساب قبل أن يبدءوه بقول ، فما كادوا يسلمون ويأخذون مجالسهم حتى فاجأهم بقوله : إنه صمم على فتح القسطنطينية ، ولن يهدأ له بال حتى تقام بها المساجد جوار الكنائس ، وهو منذ أسبوع لا يهدأ له جفن فى إحكام الخطط ، وتدبير الوسائل ليلا ، فإذا أشرق الصباح عقد الاجتماعات المتوالية مع الصدر الأعظم والوزراء ، وقادة الجيش ، وصناع السلاح ، وبناة الأساطيل ، وهو يرجو أن يكون العلماء فى طليعة الجيش الغازى ، يمدون الجنود بالعون الروحى ، ويذكرونهم بأمجاد بدر وخيبر واليرموك والقادسية ، ويتلون عليهم آيات القرآن ، وأحاديث الرسول فى الجهاد . ثم تطلع إلى وجوههم متفرساً وكأنه ينتظر ما يقولون .

فبادر ملاخسرو يقول : لو تم ذلك لحقق السلطان ما عجز الخلفاء عن تحقيقه منذ عهد معاوية بن أبى سفيان .

فقال محمد متعجباً : منذ عهد معاوية ، كنت أظن أن فكرة فتح القسطنطينية لم تجل بخاطر أحد من الخلفاء والملوك قبل جدى بايزيد الأول الذى حاصرها مرتين بقيادته ، ومرة ثالثة بقيادة ولده الأمير موسى بن بايزيد ، ثم جاء والدى مراد واندفع لحصارها قبل وفاته بأمد قريب ، ولكن حالته الصحية لم تسعفه بإتمام ما يريد ! وأنتم تقولون إن معاوية قد فكر فى الاستيلاء عليها ؟

فقال ملاخسرو : معذرة ، أنا فقيه لا مؤرخ ، وشيخنا أحمد بن إسماعيل أدرى بتسلسل هذه الفكرة !

فقال السلطان : وما عند شيخنا أحمد بن إسماعيل الكورانى ؟

فأجاب الشيخ : إن ما ذكره ملا خسرو حق لا شك فيه ، فقد زحف معاوية إلى القسطنطينية بجيش كثيف كان فيه نفر من الصحابة ، ولم يأذن الله بالتمام ، وقد مات فى هذه الغزوة أبو أيوب الأنصارى ، صاحب رسول الله ، وقبره معروف هناك ، ثم توجه سفيان بن عوف ، ومسلمة بن عبد الملك ، وسليمان ابن عبد الملك فى جيوش ثلاثة متعاقبة دون أن يدركوا شيئاً مع ما يملكون من رجال وعتاد ، وحين زالت الأموية ، وقامت العباسية جدد هارون الرشيد الكرة فأرسل كبار قادته ، وأقاموا شهوراً دون أن يرجعوا بطائل ، لأن الأسوار المنيعة الناهضة قد وقفت حائلا دون اكتساحها !

فبادر السلطان يقول : وهل أرقى غير هذه الأسوار ، إن كل ما أدبره من خطط يدور حول إحداث فجوة بينها تتيح لنا الهجوم داخل المدينة ، وذلك ميسور بإذن الله ، وسترون وتسمعون !

قال فخر الدين العجمى : وفق الله السلطان إلى ما يرفع شأن الإسلام ، وأرى أن يعجل بالغزو ، ونحن معه ، فيضمن التفاف القلوب حوله ، وقد وعد الله بنصر عباده المخلصين .

فقال الشيخ أحمد : تعجيل الغزو ليس من شأننا نحن ، ولكن السلطان يعرف متى يبدأ ويدرك من أبعاد المعركة ما نجهل ، وهو بإذن الله موفق منصور .

ودار الحديث حول الفتح المرتقب ، فلم يشأ الزائرون أن ينتقلوا من موضوع إلى موضوع ، ولعلهم رأوا من حماسة السلطان ما دفعهم إلى تأييده وتشجيعه دون أن يكدروا صفوه بنقد صريح ! ولكل زمن حصاد .

علم إمبراطور القسطنطينية أن السلطان محمد بن مراد شرع فى إقامة قلعة كبيرة قريبة — من الساحل الأوربى للبسفور ، وجعل يملؤها بالمعدات الحربية الهائلة ! فتوجس شراً مستطيراً من قلعة حربية تجثم قريباً من الأسوار ، وبعث رسله إلى السلطان ، فكان أزكى من أن يفصح لهم عن سر ، غير أن الاستعداد الحربى الضخم

الذى عاينه الرسل فى كل مكان نزلوه كان أقوى من كل حديث معسول ، وإذا كان النزاع قائماً بين الكنيسة فى روما ، والكنيسة فى بيزنطة ، فإن الخطر أجل من أن يقف عند نزاع داخلى يتناقش فيه أبناء الدين الواحد ، مناقشة الخصم الألد ، وعدوهم يهيئ المدية للذبح ، لاسيما وقد عقد السلطان معاهدة سلم بين ملكى المجر والصرب ، وكأنه بذلك أراد أن يترك القسطنطينية دون نصير ، فلم يهدأ الإمبراطور لحظة واحدة ، واتصل ببابا الكنيسة فى روما ليقول له إن القسطنطينية بعد بناء القلعة أصبحت محاصرة فعلا ، وأن مائتى ألف عامل قد عبروا البسفور ليستقروا دائماً قريباً من الأسوار ، وهم من ذوى الخبرة فى الإدارة والحرب معاً ! والقلعة تزدحم بالسلاح المدمر ، ولئن سقطت القسطنطينية فالخطوة التالية لن تتأخر ، وهو إنذار مرعب تلقاه البابا بالفزع ، وبعث وفوده فى أوربا شرقاً وغرباً !

ولكن الأسوار الحصينة التى ثبتت لأعاصير الزمان كانت وحدها العقبة أمام جيش السلطان ، فأعلن أنه لن يبخل بأى مال فى سبيل إنشاء مدافع جديدة تفتت الحجر الصلب ، وبعث من يجول فى شتى الممالك باحثاً عن كبار المهندسين الذين يستطيعون تطوير المدافع إلى الحد الذى يسيطر على كل سد قائم ، ولو كان من حديد ، وانتقل الإغراء المادى إلى مهندس بحرى يدعى (أورباس) فنشط إلى الحضور لدى السلطان ، لكى يعلمه أنه قادر على تطوير المدافع التقليدية ، لتضاعف جهدها الصاعق ، وهو يريد مصنعاً كبيراً يزدحم بالمهرة الفنيين ليكونوا طوع يده ، وسرعان ما هيئ المصنع ، وزحف له الحديد من كل مكان ، ووراءه من يصهر ويحمى ويسبك ويجفف ، حتى استقام الأمر على وجهه بعد عناء يتصل ليله بنهاره قرابة ثلاثة أشهر ، لأن (أورباس) قد قسم العمال فرقتين : فرقة الطرق نهاراً ، وفرقة الصهر والسبك ليلا ، وهو لايكاد ينى لحظة واحدة بها ، بعد أن امتلأت يده بما لم يحلم به من الذهب الخالص ، وكانت المدافع ثقيلة مرعبة ، ولاتوجد عربات تستطيع أن تقلها إلى الأسوار ، ثم إن الطرق المتصلة بالموقع الحربى لاتتحمل هى الأخرى وقع العربات الحديدية بما تقل من مدافع ، ولكن همة محمد الغازى لا تقف عند حد ، فقد أمر مئات الصناع بإعداد نوع من العربات الحديدية الهائلة التى تستطيع أن تنقل المدافع الثقيلة فى حيزها الكبير ، كما أمر مئات آخرين أن يرصفوا الطرق رصفاً يمهد لمسير البلاء الزاحف .

وقد تم العمل المجهد فى ثلاثة أشهر أخرى ، ورأى الناس موكب المدافع فى زحفه المرعب ، حيث تتقدم العربة الحربية الثقيلة ، يجرها مائة ثور ، ويسندها مائة رجل ! فإذا بلغت العربات مائة فقط ، فماذا يقول الراءون حين ينظرون هذا الحشد الجهنمى من الإنسان والحيوان والجماد يملأ الطريق ، بل ماذا سيفعل إمبراطور القسطنطينية وقد حطت هذه الأهوال جميعها أمام الأسوار ، وبدأت فوهات المدافع تطلق النار ، فنسمع لها فرقعة تزلزل الأرض .

ثم شاء محمد الغازى أن يتواصل الضرب المرعد ، ولكن المهندس أورباس رأى أن يكون الضرب على فترات كيلا تنصهر فوهات المدافع من اللهب المتدفق ، وكانت أوقات الراحة هذه فرصة للمحاصرين داخل الأسوار ، كى يسدوا الثغرات التى تحدثها الطلقات بقطع كبيرة من الأحجار ، هيئوا أنفسهم لإعدادها وتركيبها فى استبسال منقطع النظير ، ولكن المسألة مسألة وقت ، لأن المقاومة مهما أظهرت من روائع الفدائية لن تغنى شيئاً أمام البلاء الراصد خلف الأسوار .

وقد جعل المحاصرون يتطلعون إلى الأفق الغربى ينتظرون المدد الذى وعد به بابا الكنيسة فى روما والجيوش الأوربية التى تجمعت لتأخذ مكانهما فى دفع الاعتداء ولكن الجيش العثمانى يرصد الموقف فى البحر كما يرصده فى البر ، وقد أعد أسطوله لمهاجمة من يخف لنجدة المدينة المسكينة ، ولا ننكر بطولة من قادوا السفن إلى النجدة ، حيث دارت معارك رهيبة بينهم وبين أمراء البحر من قادة الجيش التركى ، وكان هبوب الريح وسكونها من عوامل النصر والخذلان ، لأن سكون الريح يعوق السفن عن الانطلاق ، ويتيح للأتراك أن يلتحموا مع أعدائهم فى معارك رهيبة هانت فيها الأرواح من الجانبين ، ثم شاء حظ السفن القادمة أن تشتد الريح بعد سكون ، فعرف قادتها كيف يسرعون بها إلى المدينة المحاصرة بعد أن سجلوا أروع البطولات ! ولكن بعد مذبحة آدمية مفزعة صبغت ماء البحر بالدم الأحمر ، وتركت الأشلاء تتناثر على سطح الماء ! وكم تجنى الحروب على البشر ، جناية تبعثها الأهواء المستعلية ، والرغبات المتغطرسة ، وما أحرى الإنسان بعد هذه النكبات الفادحة أن يسلك طريق الخير ، ويلبى نداء السلام .

رأى السلطان أن العراك سيطول ، وجنوده خلف الأسوار يظهرون الحماسة ،

ولكن مرور الزمن يبعث فيهم دواعى اليأس ، لاسيما إذا كانوا يعلمون أن والد السلطان قد وقف هذه الوقفة من قبل ، وقذفت مدافعه الأسوار أياماً ذات عدد ، ثم ما قدر على أن يتخطى الحدود الفاصلة ، وأبناء القسطنطينية يجدون المؤونة والذخيرة فيما يتسلل إليهم من عدة جهات ، فهم فى مأمن من الجوع ، وأوربا من ورائهم تعتقد أنهم حصنها الأول ، ولابد أن تثبت القسطنطينية ليثبت ما خلفها من الممالك والشعوب ، فالسفن إليها رائحة غادية لا ينقطع لها مد مهما تعرضت لويلات الهجوم .

ماذا يفعل السلطان فى هذا الليل المدلهم ؟ لقد طرأت على فكره خاطرة غريبة ، لو تدبرها حق التدبر لأحجم عن تنفيذها لصعوبة ما ستكبده من نفقات ، وماقد يخسره من أرواح ، هذه الفكرة هى أن ينقل أسطوله البحرى من فوق اليابسة على ظهور العربات ، لينزله خلف الأسطول المسيحى فى الطرف الثانى من القرن الذهبى ، وهى فكرة جهنمية لم تطرأ على بال قائد من قبل ، وتنفيذها يتطلب أن يجىء بكتل ضخمة من الخشب يبسطها لتكون صناديق متسعة فسيحة يتحمل كل صندوق سفينة من سفن الأسطول ، حيث تفك أجزاء السفينة فى حذر ثم توضع بترتيب فى صندوقها المعد ، ليكون تركيبها سهلا فيما بعد ، ثم على الآلاف من العمال أن يعبدوا الطريق الطويل الموغل فى الجبل ، لتستطيع العربات أن تجتازه حاملة صناديقها الموصدة ذات السفن المحمولة ، تجرها آلاف الثيران ، وإذا اقتضى هذا العمل الجبار وقتاً طويلا ، فلابد أن تظل مدافع السلطان تضرب الأسوار بقذائفها ، لأن سكوت الجنود عن الضرب ، ينبه الأعداء إلى ما عسى أن يقوم به الجيش المحاصر من خطط لا تنجح إلا فى ظلال الكتمان .

وعلى حين كان أهل القسطنطينية يحلمون بانقشاع الغمة ، حين ييأس الترك فيرحلون كان الأسطول العثمانى يعبر التلال على الأرض الوعرة وراء قطعان الثيران ، وقد بدأ العبور أول الليل ، وجرى فى هدوء كيلا يثير انتباه عدو راصد ، حتى إذا أسفر الصبح كانت المعجزة الكبرى قد تمت على أكمل وجوهها ، معجزة الأساطيل التى مخرت وعور الجبال كما تمخر عباب البحار ، ومضت إلى هدفها بسلام ، واستيقظ أهل المدينة وكأنهم أمام حلم مزعج فاجأهم بما لم يكونوا يتصورون

حين وجدوا العلم التركى يرفرف على أسطوله الضخم داخل مياه القرن الذهبى ! وأمامه الأسطول البيزنطى مضطرب حائر لا يستطع المواجهة ، إذ يمثل فأراً أمام قط جسور !

لقد حلم البيزنطيون بالنجدات السريعة تصل من أوربا ، ووالوا المقاومة فى أحلك ظروفها ، إذ ماعسى أن يفعل جيش قوامه ثمانية آلاف جندى أمام عدو زاحف فى جيش يبلغ تعداده مائة وخمسين ألفاً ! ! على أن الأبطال المحصورين قد قاوموا لمدة ستة أسابيع ، وتضايق السلطان لبطء ما يرى ، إذ ظن أنه بعد عبور الأساطيل سيغنم المدينة ما بين يوم وليلة ، ولكن الشهر مضى ، وانتصف الشهر الآخر دون جدوى ، فلم ير بداً من المغامرة فى ليلة بدأها باحتفال لاه ، تدوى فيه طبول الطرب وتنطلق الأغانى ليطمئن الأعداء حين يعلمون أن الليلة أنس لا ليلة قتال ، حتى إذا تمت الخدعة أمر القائد فأطفئت الأنوار ، وتدافعت أمواج الجيش الزاخر ، فاقتحمت السور الأول ، ودخلت إلى ما خلفه ، فوجدت لحسن حظها وسوء حظ البيزنطيين باباً ثانوياً لم يغلق ، إذ غفل عنه الحراس فتركوه معبراً سهلا للعدو الزاحف .

ولم يكن محمد الغازى يتوقع أن يلج السور الثانى بهذه السهولة ، إذ أحضر معه عشرات المدافع المرعبة التى صنعها مهندسه المجرى لتقوم بدورها فى هذه الهجمة الفاتكة ، وفتح أهل المدينة عيونهم ، ليجدوها فى أيدى الأتراك وليس أمامهم غير التسليم ، وطبيعى أن يسكر الجيش الغازى بخمرة النصر فيستبيح مالا يستباح فى مدى ثلاثة أيام كانت مأتماً لقوم وعرساً لآخرين ، وقطف محمد الفاتح زهور النصر فخوراً معجباً ، فدخل المدينة يتهادى فوق جواده ماراً بشوارع القسطنطينية ، حتى إذا وصل إلى أيا صوفيا ترجل خاشعاً ليؤدى صلاة المغرب شاكراً ربه ، ثم أقام احتفال النصر فى مساء غمرته أضواء المصابيح متألقة حتى سطوع الشمس ، وهكذا خضعت المدينة المنيعة جاثية تحت أقدام الفاتح الجرىء !

عاد السلطان إلى مقر عرشه ليستقبل استقبال الظافرين من جبابرة التاريخ ، وقد حفت به الجموع التى أخذ مدها يتلاطم ويجيش ويهدر ، هاتفة ببطولته ، وفيهم الوزراء والولاة والقضاة والشعراء ، إذ كان البطل شاعراً بلغة قومه ، يتقدمهم

العلماء، وقد كانت لهم الصدارة فى جميع عهود الدولة العثمانية ، على رغم ما أصيب به كثير منهم من نكبات قاصمة ، إذ فاه بالحق فى أذنى متكبر لايؤمن بالشورى ، ولا يستجيب لغير ما يملى عليه استعلاؤه ، بجانب فريق آخر يؤثر السلامة فيسكت على غيظ ، وهكذا تختلف الطبائع ، وتتنوع الثمار فى أرض واضحة ، تخرج النبات متشابهاً وغير متشابه .

ولم يغب عن موكب العلماء أساتذة الفاتح الغازى حيث حضر من أشرنا إليهم من قبل وهم للشيوخ أحمد بن إسماعيل الكورانى ، وملا خسرو ، وفخر الدين العجمى ، وقد قرأ الفاتح على وجوههم كلاماً ، فأراد أن يخطب الناس بما يرضيهم كيلا يعودوا إلى تساؤل لايريد أن يسمعه ، فنهض الفاتح يقول :

لقد تركت للنصارى حرياتهم فى اتباع كنائسهم الخاصة ، لتنظم شرائعهم فيما يتعلق بمسائلهم الشخصية من زواج وطلاق وميراث ، كما فرضت المساواة فى الحقوق والواجبات بينهم وبين المسلمين ، حيث لا امتياز لأحد عن أحد ، وقد أبقيت الكنيسة الكبرى لتؤدى دورها ، إذ لا إكراه فى الدين ، وأمرت أن يعقد القسس اجتماعاً سريعاً لينتخبوا من يرتضونه بطريركاً له حقوق الرياسة والتوجيه ، على أن يكلل فى اجتماع رائع كما جرت به العادة دون انتقاص ، وله أن يرأس احتفالات القوم ، ويقيم شعائر الدين على أكمل وجه يرتضيه! ولغير أتباع الكنيسة الأرثوذكسية أن يتمسكوا بشعائر الكنيسة الكاثوليكية من رعايا الدولة ، وفيهم الإغريقى والمجرى والصربى وغيرهم من الطوائف ،وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت !

ثم غادر السلطان محفله الزاخر البهيج وتبعه طوائف المحتفلين فريقاً خلف فريق ، ودنا الكورانى من صاحبيه فقال : لقد تحدث الفاتح للناس جميعاً ، وأشعر أنه كان يخصنا بالحديث !

قال ملا خسرو : ولكن اعتراضنا على قانونه الجائر لايزال باقياً ، ينتظر المواجهة الحاسمة !

فأطرق الكورانى ، وقال : قريباً قريباً ، فى غير يوم الاحتفال .

هزيمة قازان

كان الملك قازان يجلس فى قصره بتبريز عاصمة التتار ، مفكراً فى طموحه الذى يسلبه قراره ، إذ عزم على اكتساح بلاد الشام ليعيد الكرة بعد موقعة عين جالوت التى هزم فيها جيش التتار هزيمة نكراء ، إنه ليشعر أن أرواح آبائه وأجداده تحوم حوله طالبة الانتقام من هؤلاء الذين حطموا كرامتهم وردوهم على أعقابهم ، بعد أن سقطت بغداد مستكينة . وقتل خليفتها المستعصم شر قتلة ، وانحدرت الجيوش فابتلعت بلاد الشام فى طريقها غير متوقفة عند حد حتى كانت معركة عين جالوت ، حين وثب الجيش المصرى بقيادة قطز وبيبرس ، فأراهم الموت الداهم ، وحطم كبرياءهم قبل أن يحطم جسومهم ، أفيجوز لقازان الطامح المتطلع أن يسكت عن الثأر ، وقد جمع فى تبريز أسلحة الدمار ، وهيأ مئات الآلاف من الجنود ، لابد إذن من الحرب ، ليعيد مجد التتار الغابر ، وليشغل الجنود بشىء كيلا يستطيعوا الراحة ، ويستعذبوا النعيم .

وكأن القدر كان معه على موعد ، فقد وفد إليه ثلاثة من أمراء المماليك هم : قبجق ، وبكتمر ، والألبكى ، يزينون له اقتحام الشام إلى مصر ، وكانت بينهم وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون عداوة مفرطة ، لأن من حوله من أمراء المماليك قد سلبوهم ما كانوا يودون الاستمتاع به من الرياسة والولاية ، فالأمير ان (سلار) أصبح نائب السلطة ، وبيبرس الجاشنكير صار أتابك العسكر ، ولكل أمير أعوان ومماليك ، وهم لايجدون فى مصر ما يأملون ، فخلفوا بلادهم حين توجهوا لقازان يعلنون له أن الصراع على السلطة فى مصر قد جاوز الحد ، وأن الجيش منقسم لايجتمع تحت لواء واحد ، فلكل أمير أنصار يقفون معه أمام أنصار معارضيه ، والسلطان الناصر عاجز عن أن يحسم الأمر .

وهكذا نزلت البشارة السارة على قلب قازان ، فاعتقد أن الثمرة دانية القطوف ، واستدعى (بولاى) قائد جيوش التتار ليحشد جنده ، ويطير إلى الشام آخذاً

بالثأر ، مؤكداً له أن المعركة فاصلة ، وأنه سيكون معه فى الصف الأول ليبعث الحمية فى جنوده من التتار ، وماذا ينقصه الآن ، والكتائب كثيرة لا تقف عند حد ، والسلاح مكدس تمتلئ به المخازن ، والحمية ملتهبة تتحفز للانتقام .

ولم تكن غير أيام حتى زحف التتار نحو الشرق ، ووصلت الأنباء إلى ديار الشام ، ففزع القوم أكبر فزع ، لأنهم يتذكرون مأساتهم مع التتار قبل موقعة عين جالوت ، حين حرقوا الزروع ، وهدموا المنازل ، واستباحوا الحرم ، وسلبوا الأموال ، وذبحوا من وقف فى طريقهم من الشباب ! ثم لم يرحموا طفلا ولا شيخاً ولا امرأة ؛ لأن الجميع لديهم ذباب حائر يملأ الأفق ويجب أن يباد ، تذكر الشاميون ذلك ففزعوا ، وطارت الأنباء إلى مصر فتدفقت الجيوش من القاهرة معجلة حين بلغت (حمص) . ولم يكن الجيش الذى أسرع ملبياً نداء الغوث فى كامل عدته ، إذ الفرق بعيد بين جيش مهاجم أخذ الأهبة ورسم الخطة وأعد الذخيرة وجمع الكتائب ، ثم تقدم مع ثلاثة من الخونة يعرفون الأمكنة ، ويفشون الأسرار ، ويدبرون المكائد ، وبين جيش طار على عجل ، وأسرع فى المسير إسراعاً أفقده الاتئاد والتريث ، فلما التقى الجمعان فى حمص حمل المصريون على التتار حملة صادقة ، فحصدوا منهم خمسة آلاف فى الجولة الأولى ، ولكن الخونة الثلاثة من أمراء المماليك أوصوا بأن يعلن التتار أنهم مسلمون ، وليسوا كالغزاة السابقين ، وأن قائدهم هو السلطان محمود قازان ، وأنهم يصلون صلاة الخوف أثناء الحرب ، ومعهم المؤذن والإمام والخطيب والمفتى وأن القتال لا معنى له أمام مسلمين يريدون إنقاذ البلاد !

كان هذا الإعلان المفاجئ مبعث خطر داهم ، إذ فعل فى نفوس المرتزقة فى الجيش مالا تفعله الرماح والسيوف ، فتراجع من تراجع ، ووقع الخلل فى الصفوف وانهزم الجيش وطار النبأ من حمص إلى دمشق ، فلاتسل عما حصل من الرعب ، إذ خرجت النساء حاسرات لايدرين أين يذهبن ، وأطفالهن معهن يصيحون ، ولجأ العجزة من الشيوخ والمرضى إلى المساجد فزعين ، وانتهز الغوغاء من الرعاع ما جد من رعب ، فاقتحموا المنازل المهجورة لينهبوا ما بها من مال وأثاث ! ولكن زعامة القوم قد انتقلت فى ساعة العسرة من أيدى المماليك إلى أيدى العلماء ، فاجتمع

فى ساحة المسجد الأموى قاضى القضاة ابن جماعة وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وعشرات من الزملاء والتلاميذ ليناقشوا الموقف عن بصيرة ، ثم فوجئوا بحضور خمسة من كبار التتار إلى المسجد ، ومعهم منشور بالأمان ، فاطمأن الحاضرون بعض الشىء ، وانتظروا زوال الغاشية ، ولكن الجنود الغازية زحفت إلى المدينة لتنهب المال وتقتل الضعاف وتهتك الأعراض ، ولتجعل المساجد مأوى الخيل ، وموضعاً لشرب الخمور واستباحة المحرمات !!

أى أمان يدعى ، وأى إسلام يزعم ؟

اجتمع العلماء للمرة الثانية ، وقرروا أن يؤلفوا وفداً منهم بقيادة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ليروا ماذا يقول قازان فى إسلامه ، وقد شب جنوده الحرائق ، وهدموا المنازل ، واستباحوا المحرمات ! وكان فى ابن تيمية بطولة باسلة ، إذ واجه قازان بقوله : أنت تزعم أنك مسلم ، فلماذا أتيت غازياً ديار الإسلام ، وحولك أعداء المسلمين فى كل مكان !

فاصطنع قازان الدهاء ، وقال : أنتم ضيوفى ، ولابد من الراحة الجسمية بدءاً مع تناول ما يلزم من الطعام والشراب ، ثم أمر قائده (بولاى) أن تجهز المائدة الحافلة ليأكل الفقهاء ، ثم نادى من يسيرون فى ركبه من فقهاء الحاشية ليجالسوا إخوانهم على الخوان .

وأراد الوفد أن يجامل ، فلبى الدعوة غير ابن تيمية ، فإنه امتنع غاضباً ، فسأله قازان ، وهو يأخذ مكانه متنمراً بين قائديه الباطشين (بولاى) و (قطلوشاه) سأله قازان : مالك لا تأكل أيها الشيخ !

فأجاب ابن تيمية فى وثوق : كيف آكل من طعامكم وكله نهب مغتصب من أموال الناس ؟

قال قازان : هو مما جاء معنا من تبريز ؟

فأسرع ابن تيمية يقول : رأيناكم جميعاً تقتحمون المنازل ، وتأخذون مابها ، وتذبحون البقر والغنم ، وتقطعون الشجر ، وتنهبون غلة الأرض ، فأين ذهب ذلك ، إن لم تكن منه هذه المائدة ؟

فسكت قازان على غيظ ، وكأنه أراد أن يستميل قلوب العلماء بما يتكلفه من حلم ، ثم قال فى تؤدة : أنت مبارك ، فادع لنا ياشيخ ، لأن دعاء الأئمة مقبول .

قال ابن تيمية : تريد أن أدعو الله لك ، فاسمع ؟ ثم رفع يده إلى السماء قائلا : « اللهم إن كنت تعلم أن عبدك محموداً هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هى العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن كنت تعلم أنه يحارب رياء وطالباً للدنيا ، ولتكون كلمته العليا ، وليذل الإسلام وأهله ، فاخذله ، وزلزله واقطع دابره » .

ثم استأذن ليخرج مع وفد العلماء فحين جاز العتبة ، قال له رفاقه : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لن نصاحبك بعد !

لم تسلم دمشق سلاحها بعد ، إذ تحصن الجنود المصرية مع من عاونهم من الجنود الشامية بقلعة دمشق ، وكانت على سعتها مليئة بالذخيرة من قذائف ملتهبة ، وصواعق نارية ، وبها من المؤن والميرة والماء ما يسعف الجند فى قلعتهم الحصينة ، وقائدهم هو البطل المصرى (أرجواش المنصورى) ومعه عزيمة تزعزع الجبال ولا تتزعزع ! وقد حاول (بولاى) اقتحامها مرات ، فأحرقت جنده الصواعق النارية يقذف بها الجنود من فوق الأسوار ، فتشتعل وتحمل الرياح شعلها إلى ملابس التتار وجسومهم فيفرون على ذعر .

ثم رأى (بولاى) أن يفت فى عضد المحاصرين ، فأمر الخونة الثلاثة (قبجق ، وبكتمر ، والأليكى) وهم زملاء أرجواش من قبل فى جيش الناصر ، أن يذهبوا إلى القلعة فينادوا القائد كى يستسلم وله الأمان مع من معه ، ثم قالوا فى غضب : دم المسلمين فى عنقك إن قاومت ، وستكتب خائناً لدينك وللمسلمين . فسمعوا صوت أرجواش الجهورى يصيح بهم : اسكتوا أيها الخونة الأنذال ، فأنتم الذين أحضرتم التتار ، وما هلكت ديار الشام إلا بمسعاكم الخائن ، ثم تجيئون لتصفوا من يحارب فى ميدان الشرف بالعصيان والخيانة ، هل انقلبت الأوضاع !

وكان ابن تيمية وجماعته يسيرون بين الدمشقيين ، داعين إلى الصبر والثبات حتى تزول الغمة ، وقد هيئوا فريقاً من الشباب ، ليحمل الميرة والماء إلى المحاصرين فى ظلمات الليل ، حين تنام العيون ، فيتسلقون السور من مكان آمن ، ويقذفون

بغرائر الطعام ، وأوعية الفاكهة وأوانى الماء ، ثم طال أمد الحصار حتى يئس التتار وصمموا على اقتحام القلعة فى مدى قريب . وعرف ابن تيمية هذه النية ، فأمر من يتسلقون الأسوار أن يخبروا القوم فلا تأخذهم المفاجأة ، وأن يشهروا أسلحتهم الفاتكة متحصنين وراء الأبواب ، حتى إذا اقتحمت عليهم رأوا جيشاً متأهباً بصواعقه ونيرانه على غير ما يتوقعون ، وتقدم العدو حاسباً أن الأبواب إذا فتحت فيستسلم من وراءها ، وما رأى هول ماخلف الأسوار من قذائف وحمم ، إذ اندفعت المجانيق لترمى الحشود الأمامية بالأحجار ، ثم تطايرت القذائف من خلفها مشتعلة لاهبة ، أما الخيول فقد أخذت عدتها لمباغتة الهاجمين ، وأسرع المشاة بحشود العجلات والدبابات ، حين فتحت الأبواب ، بصدمات الحديد ذى الدوى المرن ، فكأنما ثار بركان فجأة من داخل القلعة ، وجعل يمتد حتى يحرق ما أمامه ! وانجلت المعركة عن أشلاء تتطاير ، ورءوس تهوى ، ودماء تسيل ، ولم يجد قازان بداً من الانسحاب الفاجع مع بقايا من فروا من المعركة ومعه الخونة الثلاثة فزعين ، وقد طار الحمام الزاجل بأنباء الانتصار إلى القاهرة ، فرنت فرحة تشمل وادى النيل من أدناه إلى أقصاه ، وطار ذكر (أرجواش) بين الناس ، وسجل التاريخ بطولته الخارقة فى صحائفه الخالدات !

ولكن هل آن لقازان أن يسكت مطامعه بعد أن ذاق وبال الهزيمة ، إن اندحاره الشائن قد زاده حقداً وحفيظة ، ومن حوله المنافقون والخونة ، يهونون عليه الخطب ، ويذكرون أن الحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك ، وأنه إذا أعاد الكرة وحشد الذخيرة ، وهيأ الأبطال فسيحقق فى الغارة الثانية مالم يحققه فى سابقتها ، وقد أوحى له فريق الخونة من المصريين أن تكون الخديعة مفتاح النصر ، إذ بها يستنيم الملك الناصر ، فلا يعبئ جيشاً ، ولا يهيئ عتاداً ، حتى إذا اطمأن للسلام ، سبقت كتائب قازان فاحتلت الشام دون مقاومة ، وتقدمت لمصر على وجه السرعة ، وفى جنود الناصر من يضيقون به ، ويرحبون بملك التتار ، هكذا زعم الخونة الموتورن ، فمال قازان إلى تصديقهم ، وجعل يسألهم : لقد قلتم إن الخديعة مفتاح النصر ، فعلى أى وجه تكون ؟

قال الخونة : ترسل إلى مصر وفداً من كبار العلماء الموثوق فيهم لديك ، يعلنون رغبتك القوية فى بسط السلام والمصافاة ، لأن الإسلام يدعو إلى الأخوة وينكر

البغى ، كما تعتذرون عما سلف من هجومكم على الشام ، إذ بلغتكم الأنباء الكاذبة بانتهاك الحرمات ، وتعطيل الحدود ، فسعيتم لنصرة الحق ، ثم تبين لكم كذب ما ادعاه المفترون فعدتم إلى السلام ، ورغبتم فى إقامة علاقة طيبة بين شعبين مسلمين كلاهما يحب أن يكون عوناً للآخر !

فرد قازان يقول : ومن من العلماء الموثوق بهم يقبل أن يقول عنا غير ما يرى من بغض هؤلاء والعزم على إعادة الكرة !

فصاح قبجق يقول : العلماء سيسمعون كلامك فيصدقونك ، ولن يعرفوا ما تبيت من الانتقام ، وهم أهل خير ، ودعاة معروف ، وسيفرحون باجتماع الكلمة ويسارعون بالسفارة دون شك يختلج فى نفوسهم ، ما دمت تظهر لهم أحسن النيات .

فقال قازان : وكيف تأتى الخديعة على هذا الوجه ؟

فعجل قبجق يقول : سينصرف الناصر عن الاستعداد الحربى ، وسيتفرق جنوده فى شتى الإمارات ، وسينعمون بالعيش الهنىء فيكسلون ، فإذا شئت الانتقام فاجأتهم بما لا يحسبون ، فلا يستطيعون جمع الجند ، وإعداد الذخيرة ، وسرعة السير من مصر إلى الشام ، وإذ ذاك تضرب الضربة الساحقة ، وسنكون معك لنتقدم إلى مصر ، فنسقط القائمين بسيوفنا ، ونخضع لك البلاد .

فالتفت قازان إلى قائد الجيش (بولاى) سائلا : ومن تراه يصلح للسفارة من العلماء ، فأجاب : إنه قاضى الموصل الشيخ كمال الدين الشافعى ومن يختاره من زملائه ، فالقاضى مسموع الكلمة ، طائر الصيت فى مصر والشام ، ومثله لايشك لحظة فى صدقه ومسعاه فى حقن الدماء .

فابتسم قازان ، وقال لقطلوشاه : يتم ذلك من الآن .

وفى أوائل ذى الحجة من عام ٧٠٠هـ وصلت رسل قازان يتقدمهم قاضى الموصل كمال الدين الشافعى مع نفر من العلماء ، فقدم للسلطان كتاباً من قازان يعترف فيه بخطئه حين هاجم الشام ، وبأنه تذكر موقفه أمام الله فكاد يجن ، وماعليه إلا أن يعلن خلوص نيته ، وعزمه على التئام الشمل ، وجمع المسلمين تحت راية

السلام ، فاجتمع السلطان برجاله ، وأخذ يقلب الأمر على شتى وجوهه ، واستمع إلى ما يبدوا من الرأى فكانت الأكثرية تتجه إلى أن رسالة قازان وسفارته هما مكيدة مدبرة ، إذ لا يعقل أن يرجع فجأة إلى السلام بعد انكساره الفاضح ، ولابد أنه أحسّ بخزيه فى دولته ، فدبر المكيدة لينتقم .

قال قائل : إن قاضى الموصل رجل صالح ، فهل نسأله عن نيات قازان ، ومنه نقف على الخبر اليقين ، أو نستشف من طريق التلميح ما يرينا وجه الصواب ، فقال السلطان فى هدوء : لنجرب ، فاستدعوه بمفرده ! وكأنه اختار أن يكون منفرداً عن زملائه كيلا يكون بينهم من هو عين لقازان ، فيخافه كمال الدين إذا نطق بما يعتقد ! وهو نظر صائب لاجرم .

قال قائل : وأفضل أن يلقاه السلطان وحيداً ، ليأمن القاضى ، فيتحدث فى غير خوف من واش ينم !

فرد السلطان محبذاً : هذا عين الصواب ، على بالقاضى الآن .

وجاء القاضى ، فقابله السلطان بالتجلة والتبجيل ، وقال له : أنت رجل الشريعة وإمام المسلمين ، والنصيحة منك لله وحده ، لا للناصر ولا لقازان ، وقد بعثت لأسألك بيمين الله ، وبحق وجهه الكريم ، أأنت تعتقد صدق قازان فيما كتب ؟

قال القاضى : لم أر منه إلا خيراً ، وهو الذى اختارنى مؤكداً إخلاصه ، وسلامة سريرته أبلغ تأكيد .

فقال الناصر : ولكننا نخشى أن تكون نيته مدخولة ، حيث يبيت الشر ، ليصرفنا عن متابعته .

فقال القاضى : عليكم أن تأخذوا حذركم ، فتكونوا فى لباس الحرب وعدتها فإذا صدق قازان وعده فلن تخسروا شيئاً ، وإذا نكص عن عهده كنتم على أتم استعداد لمواجهته ، والويل لمن يعلن الحرب بغياً دون حق .

فقال السلطان : أكرمك الله أيها القاضى ، وهذا سر بينى وبينك ، فسيروا على بركة الله إليه ، وبلغوه موافقتنا على الصلح ، وإنا لمنتظرون .

لم يمض شهر واحد حتى جاء الحمام الزاجل برسالة إلى مصر تنبئ بتحرك التتار إلى بلاد الشام ، وباستعانتهم بالفرنج بجزيرة أرواد ، وقد حالفوا نصارى آسيا الصغرى ، فجاءت كتائبهم معهم لغزو الشام ، فسارع السلطان بإرسال أسطوله البحرى إلى جزيرة أرواد بقيادة الأمير سيف الدين المنصورى ، وبإرسال كتائبه الحربية إلى آسيا الصغرى بقيادة الأمير بكتاش ، وقد حالفهما الحظ فانتصرا على فرنج أرواد والأرمن بآسيا انتصاراً كاسحاً ، ثم تحركت القوة الكبرى إلى الشام بقيادة الأمير بيبرس الجاشنكير ، فوجدت كتائب كثيرة من التتار على أبواب حلب بقيادة (قطلوشاه) ، فدارت المعركة الرهيبة حتى انهزم التتار وفروا إلى دمشق ؛ وكان قطلوشاه فى حالة من الضيق الكارب دفعته إلى أن يجمع كل جيش التتار فى معركة واحدة ، ولكن الحظ ساعد الأمير بيبرس الجاشنكير إذ قدمت عليه بقية الكتائب المصرية بقيادة السلطان نفسه ، ومعه من القادة الأميران مادر ، وبكتاش ، وفريق من العلماء والمحدثين يتقدمون الصفوف الأولى ، ثم زلزلت الأرض زلزالها حين هجم قطلوشاه على الميمنة المصرية فأثخن فيها دون رحمة ، وأوقع الرعب والفزع ، ولكن الأمير سلار ترك الميسرة واندفع للميمنة مواجهاً قطلوشاه ، فانحصر بين بيبرس وسلار ، وتطلع إلى زميله(بولاى) ليدركه فى مأساته ، فلم يغن عنه شيئاً ، والتجأ التتار إلى الجبل ليكون درعهم الخلفى ، وما دروا أنه سد عليهم طريق الفرار ، فتخطفتهم السيوف ، وتم النصر للمؤمنين !

قال الراوى : وقد دب الهلع فى قلوب التتار ، فألقوا أسلحتهم ، واستسلموا للقتل والأسر ، حتى كان الغلمان يقودون الشاب والكهل والرجل إلى مصارعهم فلا يقاومون ، ولم يعش قازان إلا أياماً معدودة ، إذ أهلكه الغم فقضى نحبه ذليلا ورجع الأبطال إلى ديارهم فرحين .

نورجهان

توافد الحجاج على بئر زمزم ، يحاول كل حاج أن ينهل جرعة تروى ظمأه ، وتشفى جسمه ، ولكن رجلا أسمر الوجه ، واسع العينين ، أسود اللحية ، كان يحمل معه ثوباً من القماش الحريرى الأبيض ، وهو لا ينى يأخذ من ماء زمزم ، وينضح عليه ، فعجب الناس من أمره ، ومضت مدة طويلة ، والرجل ينتهز فرصة انقضاء الزحام ليواصل رش الثوب الحريرى الأبيض بالماء ، حتى غسله غسلا ، جعل الماء يتساقط منه فى كل ناحية ، والثوب جديد قشيب لا يستدعى التنظيف ولو كان فى حاجة إلى الماء لكان فى غير زمزم ما يغنى ، فهى للشرب لا للغسل فتقدم إليه حاج يستخبره عن صنيعه ، فقال له : ما اسمك ومن أى البلاد ؟

فأجاب الرجل : أنا منصور الهندى ،

— إذن أنت من الهند .

— نعم .. فقال الحاج : وماذا تصنع بهذا الثوب ؟

فتفرس فيه منصور متطلعاً ، وقال له : إذا أردت أن تعرف ما أصنع ، فدعنى أسألك : أتعرف الإمبراطورة نورجهان ؟

فقال الحاج : إمبراطورة الهند السابقة ، أى الناس لا يعرفها ، وقد سار ذكرها فى كل مكان !

قال منصور : هذا الثوب الحريرى ثوبها ، وقد اعتزمت أن تغسله من ماء زمزم ليكون كفنها يوم تموت ! وأرسلتنى لأغسل الثوب أولا ، ثم أحج ثانياً ، ولولا أنها تكفلت بنفقات الحج ما استطعت زيارة البيت الحرام !

قال الحاج : وماذا يصنع ماء زمزم إذا غسل به الكفن ، لن ينفع الميت غير عمله .

فعجل منصور يقول : هى تعرف ذلك ، فقد جالست العلماء ، وحفظت

القرآن ، وروت الحديث الشريف ، ونظمت الشعر ، وناقشت الفقهاء فى أدق مسائل التشريع ، ولكن عاطفتها أوحت لها بهذا الصنيع ؟

قال الحاج : تقول إنها نظمت الشعر ؟ إن فكرتها هذه التى بعثت بك لتغسل الثوب بماء زمزم فكرة شاعرة ذات إحساس ! وليست فكرة عالمة فقيهة تحفظ القرآن وتروى الحديث .

قال منصور : وقد فعلت فعلا آخر مشابهاً .

فقال الحاج : أخبرنى عن الطرفة الأخرى ، إذ لابد أن تكون من هذا الطراز !

فرد منصور : بعثت هندياً آخر إلى العراق ليأتى بكمية من تراب كربلاء .

فصاح الحاج : ويلى وويلها ! وماذا ستصنع بالتراب ؟

قال منصور : أوصت أن يفرش به لحدها ، ليكون التراب شفيعاً ، مع الكفن !

فضرب الحاج كفاً بكف ، وقال : فكرة شاعرة أيضاً ، أكل حياتها شعر !

وهنا قال منصور : لقد ذكرت أن حديثها قد سار فى كل مكان ، وإذن فالناس يعرفون أنها كانت إمبراطورة تملك الأمر والنهى ، وتدير شئون البلاد ، وتناقش الولاة والوزراء ، وتضع قوانين الدولة ، وفق الظروف والملابسات ، ومثل هذه السيدة الحازمة المتيقظة لن تكون كل حياتها شعراً .

قال الحاج : شوقتنى لحديثها ، فهل أدعوك لتناول الغداء فى خيمتى لأسمع عن أخبارها ما يمتع ويروق ! هيا هيا .

وانطلق الرجلان إلى مكان الخيمة القريب ، ولم يمهل منصور صاحبه ، إذ بدأ يقول فى اهتمام : إن الإمبراطورة لم تخترنى دون تجربة ، فقد خدمت فى قصرها عشر سنوات ، وعرفت لدى أمانة القول والفعل ، وكان آخر حديث لها معى أن قالت : لن أئتمن سواك على غسل الثوب من ماء زمزم ، فقد عرفت أمانتك ، وأخشى أن أبعث غيرك فيغسل الثوب بماء آخر .

فقال الحاج ، وإذا كنت قد خدمت فى القصر عشر سنوات ، فأنت تعرف من تاريخ نورجهان ، ووقائعها المعلومة والمجهولة ، ما لا يعرف الناس ، وسنتناول

الطعام الآن مع من يرافقنى فى الرحلة ، إذ جئنا من سمرقند ، لنسعد بزيارة بيت الله ، ثم ما لبث أن دخل الخيمة حاجان يلبسان ملابس الإحرام ، فصاح صاحب الخيمة : ها هما ذان رفيقاى ، والتفت إلى منصور وقال : وهذا ضيفى من الهند فأعدا الطعام لنأكل ثم نسعد بحديثه ، وإنه لطريف !

وفى لحظات قدمت المائدة حافلة بالطعام ، ورأى منصور من حفاوة القوم به ما آنس نفسه ، وأمتع وجدانه ، إذ حرص كل من الثلاثة أن يختار له أحسن ما أمامه ، حتى تراكم الطعام دونه ، فصاح بهم : رفقاً رفقاً ، فأنا واحد وما أمامى من الطعام كاف لعشرة من المنهومين !

فقال الحاج : كل يا أخى كى لا تتعب من حديث نورجهان ! إذ تسرى العافية فى جسمك فينطلق اللسان !

قال منصور : نحن ضيوف الله فى هذا المكان ، وقد أنست بكم أنساً كاد ينسينى أهلى ، وليست المائدة هى التى سببت فرحتى بكم ، ولكن سماحة الوجوه وبشاشة الثغور ، وصدق المروءة ، وكريم النخوة ، مما جعلنى أتأكد أن الزمن لا يزال عامراً بالكرام !

قال الحاج : نريد أن تتحدث عن نورجهان لا أن تتحدث عنا !

فبادر منصور يقول : وهل أجيد غير الحديث عن مليكتى نورجهان ! ثم التفت إلى الرفيقين القادمين سائلا : هل تعلمان عنها ما يعلم أخوكما ؟ فقال الحاج : دعك منهما وتحدث !

فقال منصور : لا أدرى بماذا أبدأ ، فقد حفلت سيرتها بغرائب الأحداث ، وأول ما أعرف من أمرها ، أن والدها كان من وزراء فارس الكبار ، ثم غضب عليه مولاه ، فهاجر إلى الهند معدماً لا يحمل معه غير ملابسه ، مع أسرة تتكون من زوجة وولدين ، وفى الطريق ولدت له طفلة رائعة الطلعة ، وبعض الناس يقولون إنه تركها فى الطريق ليأخذها من يستطيع أن يقوم بتربيتها ، لأنه معدم لا يملك قوت يومه ، ثم جاء من حملها ، وتقدم سائراً إلى خيمة كبيرة يجلس بها بعض المسافرين ، فصاح بهم : هل فيكم من ترضع هذه الطفلة بأجر معلوم ؟ فهاجت عاطفة الأمومة فى نفس والدتها ، فصاحت : هى ابنتى ، فقال الرجل

— وكان تاجراً كبيراً — : ولم تركتها فى الصحراء هكذا ؟ فبكت الأم ، وتدخل الوالد فقال فى رنة أسف : إنه خرج من بلده مهاجراً لا يملك درهماً واحداً ، ومعه امرأته وابناه ، فولدت هذه فى الطريق ، فقلنا : لعل الله يبعث إليها من يستطيع الإنفاق عليها من القادرين !

فتعجب السمرقنديون الثلاثة ، وكان أحدهم ذا مظهر يدل على ثقافة واطلاع واسمه يونس ، أما الآخران فهما عثمان ومحمود .

قال يونس : يخيل إلى أن هذه الرواية مكذوبة حاكها خصوم الإمبراطورة تحقيراً لشأنها ، إذ لا يعقل أن رجلا كان يتولى الوزارة يخرج من فارس إلى الهند مع أسرته دون أن يكون معه درهم واحد ، ثم لا يعقل أن يقدم أبوان على ترك وليدتهما فى العراء ، انتظاراً لمن يتقدم لرعايتها ! إن الحيوان المفترس يقاتل دون ما يلد ، فهل يحدث هذا الشذوذ الأحمق من ذى مستوى رفيع .

تطلع منصور إلى يونس ، وقال : كلامك معقول يا سيدى ، ولكنى سمعت ما رويت ، كما سمعت من يقول إن الوزير قدم إلى الهند بتوصية من أحد الكبراء فى فارس قدمها للإمبراطور (أكبر) ، فعينه كاتباً فى قصره ، واختبره عن كثب فرأى لديه من دلائل الحنكة وعلائم الإخلاص ما أعجبه ، فارتفع به إلى درجة ضابط بالقصر الإمبراطورى فى دلهى ، وعين زوجته مدرسة تختص بتعليم إحدى الأميرات فى القصر !

قال يونس : تلك هى الرواية المعقولة ، فماذا جد بعد ذلك للطفلة الصغيرة ؟

قال منصور : لقد سماها أبوها (مهر النساء) وباشر تثقيفها بنفسه ، فحفظت القرآن ، ودرست العربية والفارسية والأوردية ، ونبغت فى الآداب الفارسية حيث درست دواوين المشهورين من شعراء فارس العظام ، وأعجب ما فى اتجاهها أنها حذقت أساليب الفروسية ، فأتقنت ركوب الخيل ، وطعن الرماح ، وامتشاق السيوف ، ورمى النبال ، أما جمال صورتها فكان أول أسباب ارتقائها السريع حيث ملكت كل لب ! وكان منصب والدها يتيح لوالدتها أن تحضر حفلات القصر مع ابنتها ذات الصبا الفينان ، والروعة الخالبة !

وكانت نفسها الشاعرة تدفع بها إلى الانفراد فى حديقة القصر الإمبراطورى تاركة من يسمرن من السيدات فى المقاصر والردهات ، لتتأمل جمال الزهر ، ونضرة الشجر ، وترقرق الماء فى الغدران ، وتصغى إلى الطيور المغردة ، وتستنشق الأريج العاطر ، وبيدها كتابها ، حتى إذا رأت ما يدل على انتهاء الحفل سارعت إلى والدتها لتصحبها عائدة ، كما رافقتها قادمة !

وفى أصيل يوم ما ، نزل الأمير سليم أكبر أولاد الإمبراطور إلى الحديقة يرتادها منفرداً ، فرأى (مهر النساء) تقرأ فى كتابها ، وقد خلع الجمال عليها من الفتنة ما لا مثيل له فيمن شاهده ، فتسمرت قدماه مأخوذاً بما يرى ، ثم تقدم يسألها عن اسمها ؟ ومن جاء بها إلى حديقة القصر ، وأطال السؤال ، فوجد من دقة الإجابة ، وحلاوة التعبير ، وأدب الخطاب ما ملك لبه ، فرق صوته ، وقال وكأنه يتوسل : لى رجاء واحد لديك يا أميرتى !

فاستدركت تقول : لست أميرة يا مولاى ، ولكننى بعض رعيتك المخلصة .

قال الأمير : لى رجاء واحد هو أن تحضرى كل احتفال يقام فى القصر ، ويكون مجلسك تحت هذه الشجرة !

وأدرك حرج موقفها ، فتركها فى شوق ، وانطلق إلى والدته مهموماً يكتم من أمره ما يخاف أن يظهر ، فيلحق الفتاة وأباها ما يسوء ، لأنه يعرف حزم والده الإمبراطور ، ولن يسمح له بالزواج إلا من ابنة ملك فى الخارج ، أو كريمة أحد أعمامه من أمراء البيت الإمبراطورى ، فأين من هاتين ابنة غريب وافد من فارس ليعمل ضابطاً بالقصر !

ثم لم يستطع مغالبة وجده ، فكان ينتظر حفلات القصر فى لهف زائد ، وقد أدرك من حرص الفتاة على لقائه ، وعدم تخلفها عن موعده ، أنها تضمر له من الحب ما يعلن لها ، دون أن تفصح بلفظها عن مكنون قلبها ، لأنها مع سنها الصغيرة عاقلة أريبة ، تدرك أنها أمام ولى العهد ، وتعرف وضعها من مثله ! ولكن جمالها الصارخ كان يأخذ عليه سبيله ، وليس جمال الصورة فحسب ، ولكن جمال المحادثة ، ورقة الحوار وشفافية النظرة ، مع كمال السمت ، ورزانة السلوك .

ولابد للعطر أن يفوح ، فقد أدركت والدة الأمير اشتغال فكره ، وأعدت من يراقب حركاته عن بعد ، حتى جاءها النبأ ، فعرفت خطورة مسلكه ، وبادرت

بإعلان الأمر لوالده الإمبراطور (أكبر) ، مؤكدة أن الفتاة المسكينة لا ذنب لها ، فالأمير يلاحقها دون أن تستطيع الخلاص ، وأمها وأبوها لا يدريان من أمر الأمير شيئاً ، ولو دريا ما استطاعا أن يتفوها أمامه بلفظ !

قالت الأم ذلك ، لأنها تعرف بطش زوجها وعنفه ، فقد يهم بعقاب الأسرة جميعها ، أو بما هو أقسى من العقاب ، وهو الاستئصال كما يفعل بأعدائه !

ولم يهدأ (أكبر) ، إذ كان فى نيته أن يعقد للأمير على أميرة من بيته ، وكان يعجب بضابط فارسى من ضباط القصر بشجاعته النادرة ، فمنحه لقب (شير أفكن) أى (مصارع الأسد) وعينه والياً على محافظة (بردوان) على أن يتزوج (مهر النساء) لفوره ويرحل بها إلى ولايته البعيدة عن دلهى من الغد ، وأسرع فنادى (غياث الدين) والد الفتاة لينفذ الأمر لساعته ، فقد اختار لابنته أقرب ضباط القصر إلى نفسه وجعله حاكماً على محافظة كبيرة ! وهل لمثل (مهر النساء) أن تطمع فى أكثر من حاكم إقليم !!

وتم الأمر الفورى ، وتحطم قلبان !

قال عثمان : الحق أنى أقدر مسلك الإمبراطورة الأم ، لأنها حين أرادت أن تحول بين الأمير ومن تعتقد أنها دونه فى مرتبته ، أكدت للزوج الباطش أن الفتاة لا ذنب لها ، وأن ولدها هو الذى يتعقبها ، ولو كانت الإمبراطورة ذات رعونة حمقاء ! لبرأت ابنها ، وألقت بالتبعة على الفتاة زاعمة أنها أغرته بما تملك من جمال ! ولا عليها أن تمتحن الفتاة وأسرتها أشق امتحان على يد متسلط جبار !

فرد يونس يقول : هذا صحيح لا شك فيه ، ولكن لا يغيب عنا أيضاً شرف المسلك الذى انتهجه الإمبراطور ، فقد كان فى وسعه بعد أن عرف أن الفتاة لا ذنب لها أن يأمر بطردها مع أسرتها فى أقل من طرفة عين دون أن يستشعر أدنى خطأ ، وحسب الأسرة أن نجت من عقابه ، ولكنه اختار للفتاة زوجاً كفئاً ، هو أشجع فرسانه ، وجعله حاكم ولاية كبيرة ، ولم يكن والدا الفتاة يحلمان لها بمثل هذا الزوج ، إنى أضيف الإعجاب بالإمبراطور إلى الإعجاب بالإمبراطورة فكلاهما فى موقفه الحاسم عاقل رزين !

قال محمود لمنصور : ثم ماذا ؟ أتمم حديثك فنحن مشوقون !

قال منصور : تعاقبت الأحداث ، ومات الإمبراطور (أكبر) وخلفه (سليم) متسمياً باسم (جهانجير) فلم يفتر عنه شوقه إلى (مهر النساء) وأخذ يعمل الحيلة فى الاقتران بها بعد أن زالت عقبة أبيه ، وأمثال هذه الحيل الخفية لا تعلم كما وقعت ، لذلك يتكهن الناس حولها ، فتختلف الروايات ، وتتناقض المسائل ولا يستطيع أحد أن يجزم بشىء على وجه قاطع .

فرد يونس : اذكر لنا بعض ما قيل ، وربما يمكننا أن نرجح .

فقال منصور : قيل إن (جهانجير) حاول أن يسترضى الزوج (شيرأفكن) فناه بمنصب كبير إذا بادر بطلاقها ، وأرسل إليه حاكم البنغال قطب الدين كى يلين قناته دون ثورة منه يتعالمها الناس ، ولكن الزوج فوجئ بما لم يتوقع ، وأراد قطب الدين ملاينته ، فتطور الحديث إلى مناقشة غاضبة صارخة من الزوج ، ثم رفع سيفه وهوى به على رأس قطب الدين ، وكان معه حراسه وحاشيته ، فسارعوا بالانتقام العاجل ، فهوت رقبة الزوج أيضاً ، وخلا المكان .

قال يونس : هذه رواية ، فما الرواية الأخرى ؟

فقال منصور : لما مات (أكبر) لم يخلص العرش لسليم بسهولة ، حيث عارضه إخوته ، كل يطمع أن يكون إمبراطوراً ، ودارت معارك أهلية بين الإخوة المتصارعين ، وقد انضم (شيرأفكن) إلى غير سليم ، وبعث بجنود ولايته لتقف مع خصومه ، فلما انجلت المعارك عن انتصار سليم ، نكل بخصومه جميعاً ، ومنهم (شيرأفكن) وبذلك خلا المكان .

فهز يونس رأسه قائلا : أرى هذه الرواية أقرب إلى الصواب ، إذ لو صحت الرواية الأولى لغضبت (مهر النساء) كرامة لولديها من (شير أفكن) ،وما قبلت أن يعرف الناس أن زوجها راح ضحيتها هى ، لأن الإشاعات ستشركها فى المؤامرة ، وتجعلها غادرة بمن صانها ، وتمسك بها حباً وإخلاصاً .

وهنا سأل محمود : وهل زفت (مهر النساء) إلى الإمبراطور سريعاً بعد انقضاء العدة !

فقال منصور : كلا ، مكثت أربع سنوات دون اقتران ، وجهانجير يراسلها متوسلا ضارعاً دون يأس ، حتى أجابت بعد إباء .

فرد يونس : فى هذا ما يبرئ ذمتها من المشاركة فى دم قرينها ، إذ لو كان الأمر عن اتفاق ما طالت مدة ترملها هكذا ، ثم هى معذورة حين استجابت للإمبراطور بعد أربع سنوات ، إذ لم تكن تستطيع أن تنجو من شره إذا عاندت ، وفى مكنة الإمبراطور أن يعلن موافقتها دون أن ترضى ، ويعقد القران ، ويقيم حفلات الزواج ، فتصبح أمام الأمر الواقع ، ولا تجد بداً من الاستسلام ، لا سيما إذا كان بينهما هوى لم ينقطع ، همدت تاره فوق السطح عندها ، ولم يزل الجمر تحت الرماد ، أما هواه فلم يهمد فوق السطح وتحت الرماد .

وانتقل الحديث إلى منصور فقال : لقد بهرت (مهر النساء) الدولة بذكائها المفرط ، لأنها حين أصبحت الإمبراطورة لم تركن إلى الانزواء فى حجرات القصر ، كمن سلفها من الزوجات ، ولكنها شاركت مشاركة حقيقية فى أعباء الحكم ، فكانت المستشار الأول لولى الأمر ، ودرست شئون الدولة جنداً ومالا وإدارة ، وعرفت كل ذوى المناصب العليا ، وعقدت معهم الاجتماعات ، وضربت النقود باسمها على إحدى الوجهتين ، والوجهة الثانية باسم (جهانجير) ، وما تم ذلك لإمبراطورة فى الهند ، وقد أراد الإمبراطور أن يمنحها لقب (نورجهان) تقديراً لمنزلتها ، ومعناه (نور العالم) بأجمعه ، وكانت الزوجات السابقات للأباطرة يمنحن لقب (نور محل بيجوم) أى نور القصر ، وأين القصر المحدود من الدنيا جميعها .

وقد وقع الإمبراطور فى محن سياسية دامية ، فكانت (نورجهان) صاحبة الموقف الأول فى إنقاذه ، تعرض مرة للأسر على يد عدوه (محبط خان) ، إذ قبض عليه وهو فى حاشية صغيرة لم تستطيع حمايته ، وعلمت (نورجهان) فقادت الجيش لإنقاذ الإمبراطور ، وأرادت عبور النهر ، فوجدت (محبط خان) قد أزال الجسور ليقف النهر الواسع حائلا دون الصدام ، حتى تنضم إليه جيوش المعارضين من أعداء (جهانجير) وفوجئت (نورجهان) بالواقع الصعب ، فأصرت على أن يركب الجنود الفيلة لتعبر بهم إلى الجانب الثانى ، وتقدمتهم جميعاً ، فركبت فيلها المدرب ، وشقت عباب النهر وجعلت السهام تسلط عليها من جيش (محبط خان) حتى أصيب حشد كبير من جيشها ، ونفرت الفيلة ، وغرق من غرق ، وأصيبت (نورجهان) بسهم فى ذراعها ، فلم تكترث بالدم المنزوف ،

وصممت على الوصول ، وتشجع من حولها بإقدامها ، فزحفت الفيلة وراءها إلى الشاطئ ، فلما بلغته كان الإنهاك قد بلغ منها أعظم مبلغ ، كما كان الجند فى اضطراب وبلبلة ، فلم يستطيعوا المقاومة ، ورأت أن تستسلم لمحبط خان الذى كان قائد الجيش الإمبراطورى من قبل ، فرأى أن يضمها إلى زوجها ، ولكن تحت ملاحظته ، فأظهرت الاقتناع ، ثم دبرت أمراً خطيراً ، حين أظهرت شقاقها لزوجها ، وجعلت تنتقده علانية ، حتى ظن (محبط خان) أنها ستفارقه مطلقة ، فأخذ يتودد إليها فى لباقة ، وهى تزداد فى نفورها الظاهرى من (جهانجير) ، فبسط لها من النفوذ ، وجعل الضباط والقادة تحت إشارتها ، تترأسهم كما كانت فى قصر دلهى ، وبدهائها استطاعت أن تؤلبهم على القائد المغتصب ، فثاروا به فجاءة لم يتوقعها ، ونجا الإمبراطور الأسير ، وعاد إلى مقر حكمه ظافراً منتصراً بمكيدة (نورجهان) .

عادت (نورجهان) إلى دلهى أكثر ما تكون بأساً ، وأعز سلطاناً ، ففضلت أن تصرف بعض وقتها فى المسائل الخيرية ذات المغزى الإنسانى ، فأنشأت جماعة لرعاية الأيتام ، وجماعة ثانية للإشراف على تجهيز الفتيات الفقيرات عند الزواج ، وجماعة ثالثة لتعليم بنات جنسها مسائل الاقتصاد ، والدربة على الحياكة والتطريز ، وما يخص المنزل من مهام .

وقد ذهبت مع زوجها وجنوده فى رحلة صيد بالغابة ، راكبة فرسها النشيط ، ففوجئ القوم بأربعة آساد يبرزن أمامهم فجأة ، فدعروا ذعراً شديداً ، ولم يتماسك بعض جنود الحرس فولوا الفرار ، ولكن (نورجهان) أعدت سهامها لتصوبها فى براعة إلى عيون الآساد ، وسددت السهام فى جأش رابط ، حتى أصابت مرماها ، وصرعت الآساد الأربعة أسداً بعد أسد ، فاجتمع حولها الحرس مندهشين بروعة ما أبدت ، إذ فاقت بجهدها الخارق أشجع الرجال .

وكان ما لابد أن يكون ، فقد مات زوجها (جهانجير) وورث العرش نجله الأكبر من غير أولادها ، فآثرت الاعتزال راضية ، وتفرغت للأعمال الخيرية والقراءة الثقافية ، ثم بنت لنفسها مقبرة تقرأ أمامها القرآن كل يوم ، وأرسلتنى لأغسل الكفن المنتظر بماء زمزم ، فيالها من امرأة !

ودوى صوت المؤذن ، فهرع الحجاج إلى بيت الله ملبين مهللين .

ابن بطوطة يتحدث !

كان السلطان أبو عنان المرينى أمير المؤمنين بمراكش ، يجنح إلى التنكر فى جولات كثيرة ، يمضيها بمملكته ، وقد اختار رفيقاً لا تعرف العامة أنه ذو صلة به ، ليكون دليله فى جولاته ، حيث كان خبيراً بخبايا المجتمع ، وأسواقه ودروبه ، وقد آثر أبو عنان هذه الجولات المتكررة ، وحرص عليها حرصاً شديداً ، لأنها تريه الناس على طبيعتهم الفطرية دون نقاب ، لأن لقاءاته الرسمية تستر من الواقع ما يغلفه الزيف ، وتجشمه المجاملة ، وكم عانى من ضروب الرياء والملق ما ضاق به ، بحيث اعتقد أن الناس لايصدقون فى شىء ، وهو اعتقاد أكدته تجارب مريرة عانى منها أشد المعاناة ، وكان رفيقه حسين بن جعفر اللواتى ، يعرف من دخائله ما جعله يرضى رغبته فى الوقوف على الحقائق عارية مجردة ، فكان يجتهد فى تفسير ما يريانه تفسيراً يتفق مع الحقيقة قدر ما يسعهما التفكير ، حتى أنس به السلطان وارتضاه .

وفى ليلة مقمرة ، خرج الرفيقان المتنكران يجوبان ضواحى مدينة فاس ، فسمعا صراخاً مرتفعاً يطبق الآفاق ، ورأيا جموع الناس يتقاطرون صوب الصراخ ، فتبعاهما ، حيث علما أن الصراخ على ميت حان حينه ، ولكنهما فوجئا بموجة من الزغاريد تتخلل النواح المزعج ، وليس بمعقول أن يجتمع الصراخ والزغاريد معاً فى مناسبة واحدة ، وبحيال شخص واحد ، فاندسا بين الجموع يتساءلان عن هذا التناقض الصارخ ، فعلما أن للميت زوجتين إحداهما رفيقة سنه ووالدة بناته وبنيه ، والثانية شابة جميلة تزوجها من ثلاثة أعوام ، وأخفى نبأ الزواج عن أم أولاده وعنهم ، كيلا يثير من المشكلات ما هو فى غنى عن إثارته ، فلما مات وعلا صراخ الأولاد وأمهم عليه ، جاءت الزوجة الشابة تصرخ وتنوح ، ثم تعلن أنها زوجه ، ومعها الوثيقة والشهود ، فذهلت أم الأولاد أمام ما رأت ، ثم أخذت تلعنه وتسبه ، دوفعها الغيظ إلى أن تزغرد ابتهاجاً بموته ، فزغرد معها من جئن لمواساتها ، وقامت

الزوجة الثانية صارخة نادية ، فبكى معها من جئن لتعزيتها ، وهكذا اجتمع البكاء والغناء فى مناسبة واحدة ، فتعجب السلطان مما رأى ، وقال لصاحبه : حسبنا الليلة ما رأينا من المفارقة النادرة التى لا أظن أنها كررت فيما قبل .

وكان للسلطان مجلس يعقده فى قصره بفاس كل عصر ، فإذا فرغ من شئون الدولة استبقى لسمره كاتبه الأديب محمد بن جزى ، وصديقه الرحالة الشهير ابن بطوطة ورفيقه فى التجوال الحسين بن جعفر اللواتى ، ليسمع الثلاثة إلى بعض الغرائب العجيبة التى يرويها ابن بطوطة متحدثاً عما شاهده فى رحلاته التى شارفت ثلاثين عاماً قطع أثناءها بلاد الله ما بين غرب وشرق ، وعاد حاملا قصاصات تجمع مشاهده دون ترتيب يسمها بطابع اليوميات المتتابعة ، وقد شاق السلطان أن يسمع فى مجالس سمره ما يروى ابن بطوطة من عجائبه ، ثم دفعه الحرص على تسجيل ما يسمع إلى أن يطلب من كاتبه الأديب محمد بن جزى أن يجلس كل يوم مقداراً من الزمن يسجل فيه ما يرويه ابن بطوطة تسجيلا تبقى فوائده التاريخية والجغرافية للأجيال على مد الأحقاب ، وقد نهض ابن جزى بما كلف به أكمل نهوض ولكن نفراً من حاشية السلطان ساءهم أن يستأثر ابن بطوطة بود السلطان واحتفائه ، فأخذوا يكذبونه ويتهمونه بالوضع والتلفيق ، ومنهم رفيق السلطان الحسين بن جعفر اللواتى ، وكانت رغبة أبى عنان المرينى أقوى من أن تعارض باتهامات لا تجد الدليل المقنع ، فوالى ابن جزى تدوين ما يرويه الرحالة فى همة ونشاط .

استبقى السلطان كاتبه ، ورفيقه الحسين ، والرحالة الجوال ، ليبدءوا السمر ، وكان أبو عنان لايزال مندهشاً لما رأى بالأمس من الصراخ والغناء فى جنازة ميت ، فترك للحسين أن يروى ما رأياه ، ثم اتجه إلى ابن بطوطة يسأله : هل رأيت فى مشاهداتك جنازة تحفل بالغناء والشدو كما رأينا بالأمس .

فعجل الحسين يقول : خياله يامولاى متسع ، وسيروى من مخيلته نظائر مماثلة ، ومن الذى سيقول له كذبت وليس معنا الدليل .

قال السلطان : رفقك يا هذا ، إننا لسنا من البلاهة بحيث لا نفرق بين الواقع والخيال ، وأنت لم تبرح مدينة فاس ! فكيف تنفى شيئاً فى بلاد قاصية لم تقع لك بحسبان ، دع الشيخ يجيب ! ولا تعد لما يسىء .

ابتسم ابن بطوطة وقال : حيا الله مولاى وباركه ، فإن ثقته بى كانت مثار عزم قوى على أن أستذكر كل ما رأيت مما لم تحوه القصاصات ، وأنا أدعو أخى الحسين إلى أن يرحل . ولو إلى حج بيت الله بمكة فقط ، فسيرى شيئاً كثيراً مما لا يعهد ، وسأكون أول من يصدقه متى عاد وقص !

ثم قال ابن بطوطة : أما مشاهد الزغاريد فى الجنائز فإنها تعهد فى تشييع كبار الأولياء من الصالحين ، حيث يعتقد أتباعهم أن الملائكة ترفرف بأجنحتها على المشيعين ، وأن الجنان قد هيئت لاستقبال الراحل الصالح ، وقد رأيت جنازات مختلفة لهؤلاء ، فكانت الزغاريد تختلط بالتكبير والتهليل ، ولم أسمع صراخاً أو عويلا بل رأيت استبشاراً ، وسمعت من يتمنون أن يلحقوا بالراحل فى جنات النعيم .

قال السلطان : أنا متأثر بما رأيت بالأمس ، وأحب أن تحدثنى اليوم عن أغرب ما رأيت من العادات المتبعة فى تشييع الجنائز وما يعقبه من احتفال وإطعام ومواساة ، وكلنا راجع إلى الله .

فبادر الرحالة يقول : سأبدأ بحادثة تتعلق بى شخصياً ، فقد توفيت لى ابنة صغيرة ، وأنا فى بلاد الهند بعد أن توثقت صلتى بسلطانها ووزرائها ، فدفنتها فى زاوية صغيرة بالقرب من مدفن رجل صالح ، وظننت الأمر ينتهى عند ذلك ، ولكن الوزير قد علم ، فأبلغ السلطان ، فأمر حاشيته بتهيئة ما يلزم ، إذ يقيمون احتفالا كبيراً على القبر فى اليوم الثالث ، فحرت فى أمرى ، وأخذت أنتظر لأرى ما سيحدث .

بزغ صبح اليوم الثالث ، فرأيت الخدم يسارعون فيفرشون جوانب القبر بالبسط والحرير ، ويجمعون الأزاهير المختلفة التى ملأت ساحة المكان ، وجاءوا بثمار من الفواكه المختلفة ، فعلقت فى خيوط كثيرة وامتدت على مدى واسع ، وقد غمروا القبر بالفواكه اليابسة والناضجة وجوز النارجيل مما لم أعهد على قبر .

ثم جاء كبار القضاة والأعيان فأخذوا مجالسهم فى السرادق ، وأخذ القراء يتلون آيات الكتاب بأصوات عذاب ، ثم نهض القاضى نظام الدين الكردانى ، فألقى كلمة رثاء حافلة ختمها بالثناء على السلطان ، وعند ذكر اسمه وقف الناس جميعاً فأحنوا رءوسهم خاشعين ، وجاءت براميل مياه الورد ، والورد بالهند منتشر

فى كل مكان ، فجعلوا يصبونها على القبر ، ويرشونها على الناس ، فتحدث من العبير طرباً وخفة ، ودارت أقداح (التانبول) وهو شراب حلو يعشقه الهنود ، ثم ركب السلطان وحاشيته ، وانصرفت إلى منزلى فوجدت موائد الطعام والحلوى قد ملأته ، وحضر الناس فأكلوا وبقى الشىء الكثير ، وعلمت أن السلطان أمر بذلك كله ، ولم يمض يومان حتى بعثت (الخاتون الشريفة) لى محفة كبيرة شبه السرير ، يحملها ثمانية من الرجال ، وهى مغشاة بالحرير والديباج ، فحملوا بها زوجتى أم الفقيدة لتبيت عند (الخاتون) ليلة تكريماً وتعزية ، وحين رجعت أعطوها ألف دينار ، وأساور من ذهب مرصع ، وقلادة ذهبية جميلة ، وخلعاً حريرية ، فسددت ما كان على من دين !

قال ابن بطوطة : وهذا التقليد لا يخصنى ، بل هو متعارف عندهم فيما عدا الهدايا التى أتحفنى بها بيت السلطان ، لأنى فى نظرهم غريب لاعشيرة لى ، وأهل المرزوء من الهند يقدمون له بالهدايا ، وهى مبادلات تراعى ، وأشبه بعاريات تسترد.

قال أبو عنان المرينى : واضح أن مكانتك عند السلطان كانت رائعة ، إذ اختارك قاضياً ، ثم أمر بالاحتفال بتوديع فتاتك على هذا النحو الحميد .

فرد الحسين بن جعفر كالساخر : ومكانته أيضاً لدى (الخاتون الشريفة) زوجة السلطان ، إذ أرسلت المحفة الجميلة ، واستضافت الزوجة . وبعثت الهدايا من ذهب وحرير .

فرد أبو عنان : لم تكن تفعل ذلك بغير مشورة السلطان ، فدع الهند الآن ، واذكر ما رأيت من غرائب التشييع فى غيرها .

قال ابن بطوطة : حين زرت بلاد فارس ، ودخلت مدينة (وايذج) مقر السلطان أفراسياب ، اشتقت إلى رؤيته ، فوصلت إلى الجناب ، وجاء أحد خدامه وسألنى عن حالتى ، وذهب عنى بعد أن عرف محل إقامتى ، وفى المساء جاءنى طيفوران (وعاءان) كبيران ، أحدهما ملىء بالطعام ، والثانى ملىء بالفاكهة ، وخريطة بها بعض الدراهم ، وقال : ادعُ لابن السلطان بالشفاء فهو مريض . فأخذت الدراهم ، وفرقت الطعام والفاكهة على الفقراء .

ولما انتصف الليل سمعنا صراخاً مدوياً، وانتشر الخبر بوفاة المريض، وجاءنى شيخ كبير من علماء المدينة فقال : إن الكبراء من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء سيذهبون للعزاء فعليك أن تكون فى جملتهم ، فتهيأت وذهبت فى الموعد المحدد ، فوجدت الساحة ملئت بمن لا حصرلهم من الوجهاء ، وقد لبسوا (التلاليس) وهى أردية ممتهنة (كالزكايب) كما جعلوا فوق رءوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جز ناصيته ، ثم انقسموا فرقتين ، كل فرقة فى جانب ، فتزحف كل فرقة نحو الأخرى ، وهم يضربون بأيديهم على صدورهم فى فزع ، ويصرخون قائلين : (خوندكارما) ومعناه (يامولانا) .

قال ابن جزى: نعرف أن الصراخ واللطم للنساء ، لا لكبار الفقهاء ، وأئمة العلماء ، وقادة الأمراء .

فرد السلطان أبو عنان : هذا تقليدهم ، ولابد أن يفعل النساء ذلك ، ولكن داخل البيوت ، وليس فى مجتمع عام !

قال ابن بطوطة : ولباسهم الحزين هذا يستمر أربعين يوماً حتى تنتهى أيام الحداد ، وقد جللوا رءوسهم بقماش أسود ، ولن يفعل ذلك إلا إذا كان الميت من أهل السلطان .

قال الحسين بن جعفر : وقد فعلت أنت ، واسودت عمامتك أربعين يوماً !

فابتسم ابن بطوطة وقال : ماكان لى أن أتخلف . ثم حكى أنه وقع فى خطأ فى أمر منكر مع السلطان ما كان لمثله أن يفعله . فقال أبو عنان : وكيف .

قال ابن بطوطة : لما رأيت ساحة المكان غاصة بالناس وهم يتزاحفون ويتلاطمون ، نظرت ألتمس موضعاً أجلس فيه فلم أجد ، ثم رأيت سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر ، وهى متسقة ، يجلس بها رجل منفرد ، عليه ثوب من الصوف الممتهن يلبسه ضعفاء المدينة وفقراؤها أيام الشتاء والثلج ، فتقدمت إلى الرجل وجلست جواره ، وسلمت عليه ، فرد السلام ، ونظرت فإذا الناس يرمقوننى بأبصارهم ، وكأنى جئت بأمر عظيم ، ووجدت من يشير إلى بأن أتنحى ، فلم أفهم ، لأنى أجلس مع رجل فقير من العامة لا تدل هيئته على غير ذلك ، وما زالت الأصابع تشير إلى ، وأنا أستغرب وأعجب ، ثم جاء شيخ المشايخ بعد

أمد طال نسبياً ، فابتدأ السلام على السلطان واقفاً فعلمت أنى تجرأت على ما ليس لى، وبدأ الخوف فى وجهى ، ولاحظ السلطان ذلك ، فقال لى بصوت حزين : أنت غريب ، ولا تعرفنى ! فهدأ من روعى ، ثم قال شيخ المشايخ : لقد هيئت الجنازة يامولاى !

فنهض السلطان كالمتخاذل ، لأن الحزن قد ضعضعه ، وتقدم الموكب ، ثم جىء بغصون النارنج والأترج والليمون مليئة بأثمارها ، فحملها المشيعون ، ورفعوها بأيديهم فوق رءوسهم فكأننا نسير فى بستان مزهر ، أما الجنود فقد حملوا المشاعل فوق الرماح ، فانتشر الضوء ليزاحم ضوء النهار ، ثم صلى على الفقيد بالمسجد وتابعت الجنازة سيرها إلى مدافن الملوك ، على بعد أربعة أميال من المدينة وطال المسير فضعفت عن المتابعة ، وجلست لأستريح فى منتصف الطريق ، ثم دعانى السلطان بعد أيام ، فطيب خاطرى وأخجلنى ببره .

قال الحسين بن جعفر : ألم يقع فى روعك ، حين رأيت الرجل منفرداً فى السقيفة ، أنه ذو شأن خطير .

فرد الرحالة : كانت ملابسه وهيئته لا توحى بذلك ، ولم أعرف أنه يرتدى ثياب الحزن ، وقد عذرنى ورضى عنى !

قال ابن جزى موجهاً الحديث لابن بطوطة : لقد أمليت على حادثاً رهيباً شاهدته ، وكاد يغمى عليك ، حين أحرقت الزوجة نفسها فى تشييع جنازة زوجها ، فهل لك أن تذكره لمولاى !

قال أبو عنان : تحرق الزوجة نفسها إثر وفاة زوجها ؟ وكيف ؟

قال ابن بطوطة : هذا متعالم مشهور فى الهند .

فقال السلطان : إذن نعود للهند ثانية ، فتحدث عما رأيت ، فإن الخبر لعجيب !

قال الرحالة :سأختصر ما استطعت ، لأن وصف الحادث بشتى تفصيلاته يجعلنى أكر للماضى فأراه ، رأى العين فيحصل لى من التضايق والألم ما لا طاقة لى باحتماله !

قال الحسين : تشوقنا كثيراً يا رجل ، فهيا .

فقال ابن بطوطة : جلست ذات يوم مع عسكر السلطان فرأيت جموعاً من

المسلمين تهرع نحونا فى اضطراب ، فسألت عما كان ! فقالوا : إن هندياً مات وأججت النار لاحتراقه بعد تشييع جنازته ، وقد أصرت زوجته على أن تحترق معه ، فالتهبا معاً .

فقلت : لقد فاتنى أن أرى هذا المشهد .

فقالوا إنه يتكرر دائماً ، وإذا فاتك اليوم فستراه فى الغد .

وما مضت بعض أيام حتى سمعت طبولا تدق ، وأبواقاً ترتفع بالصوت ، فقال لى أحد من فى العسكر : جاء ما تريد فهيا ، قلت : ماذا ، قال : تشيع جنازة ثلاثة رجال من الهنود ، وستحرق الجثث الثلاث ، ومعها جثث الزوجات !

قلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ! أو يجب ذلك العمل الفظيع على كل زوجة ! فقالوا إنه أمر مستحب لا واجب ، ومن تحرق نفسها تصبح فخراً ومجداً لأهلها ، يتباهون بوفائها ويشرفون بانتمائها إليهم ، ومن تتقاعس عن التضحية تلبس الثياب الخشنة وتقعد فى قومها مقعد الزرى المهمل !

قلت : ولماذا لا يحرق الرجل نفسه إذا سبقته زوجته إذن ؟

فقال محدثى : هل ستشرع لهم نظاماً جديداً ، دعنا من سؤالك وهيا يارجل لترى ما تريد أن تراه ، فعجلت بالمسيرة لا لأرى زوجة فحسب ، بل لأى ثلاث زوجات تعاهدن على أن يحرقن كما تحرق جثث الأزواج ، فإذا أعلن هذه الرغبة أقيم احتفال كبير لهن ، يظل ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع تتم المأساة !

ذهبت إلى المكان فسمعت أصوات الطرب والغناء تعلو ، وكأننا فى عرس لا مأتم ، ورأيت الناس يرقصون رجالا ونساء ، فقلت : ما هذا ، قال : هذه حفلات التوديع تقام للراحلات ، وقد جاء أقاربهن وقريباتهن من كل صوب يشاركن فى الرقص والطرب ، تنويهاً بمن سيحرقن ، وإعجاباً ببطولاتهن ، وتقديراً لوفائهن الكبير !

وفى صبيحة اليوم الرابع أتت كل واحدة منهن تركب فرساً جميلا ، وقد لبست أجمل حلة ، وتزينت وتعطرت كأنها تستعد لساعة الزفاف ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى اليسرى مرآة لا تزال تتطلع إليها ناظرة وجهها ، والبراهمة من حولها يرتلون ويزمزمون ، وكل واحد من المحتفلين يصيح بها : بلغى

السلام إلى أبى أو إلى أخى أو إلى أمى ، والضحية تضحك وترد بالقول ، وقد سار الموكب نحو ثلاثة أميال ، وسرت به لأرى كيفية هذا الانتحار الشنيع ، فانتهينا إلى موضع مظلم ، متكاثف الظلال ، كثير المياه والأشجار ، وبين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة تمثال ، وبين القباب صهريج ماء تكاثفت عليه الأشجار فلا تتخلل أغصانه الشمس ، وما إن وصل الركب إلى هذا المكان حتى نزل الزوجات فاستحممن ، وجردن أنفسهن مما يلبسن من ثياب وحلى فتصدقن بها ، وأتى لكل واحدة منهن بثوب قطنى خشن ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكتفيها ، وصب على النيران المضرمة من حولها الزيت لتزداد لهيباً ، وقد قام خمسة عشر رجلا بدفع كتل الحطب الرقيق إلى النار ، لتستمر فى التوهج ، وخمسة عشر آخرون يرمون بكتل الخشب وقد غمرت بالزيت ، وأهل الطبول والأبواق وقوف ينتظرون مجىء زوجة من التعسات ، وقد حجبت عنها النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا تدهش المسكينة حين ترى اللهب المتأجج ، وأدهشنى أن أسمع إحداهن تصيح : أأخاف من رؤية النار ؟ ارموا الملحفة ؟ فأنا أعرف ما وراءها ، ثم ألقت بنفسها تلقائياً دون أن يقذف بها أحد !

قال ابن بطوطة : وهنا ضربت الأبواق ، ودوت الطبول ، وجعل الناس يرمون قطع الخشب المغموسة بالزيت فوق المسكينات ، وما رأيت ذلك حتى سقطت من فرسى لهول ما شاهدت ، وأدركنى أصحابى ، فرشوا الماء على وجهى ، وحملونى إلى مكان آمن حتى أفقت !

قال السلطان : حق لك أن يغمى عليك وأنت تشاهد هذا الهول الهائل ، فإنى أشعر والله أن رأسى تدور .

قال ابن جزى والحسين معاً ، فى صوت واحد : وكذلك نحن ! فكيف يفكر هؤلاء المساكين .

ثم نهض أبو عنان ، وفى وجهه من أمارات الضيق ما دل على كآبته ، ونهض خلفه مسامروه . فقال الحسين لابن بطوطة : لقد أزعجت السلطان كما أزعجتنا يا رجل !

فقال ابن بطوطة : لم أرد أن ألم بهذه الكارثة ، ولها مثيلات ، ولكن ابن جزى قد اقترح . فطلب السلطان ، على أنى أوجزت كثيراً . فهل من ملام ؟

الستر الجميل

انقلب القاضى الشاعر عمر بن الموردى إلى مضجعه بعد صلاة العشاء ، وحاول أن يستعطف النوم بأقصى ما وسعه من الحيل فلم يجد إلى الرقاد سبيلا ، إذ أن شجونه المتضاربة كانت تحتل فكره ، فيسبح فيها ضجراً متململا على الفراش ، ثم رأى أن يبارح مضجعه لينعم بجولة هادئة فى حلب ، حيث السكون الهادئ ، والأمن المستتب ، فلعله بعد أن يتعب من السير يستطيع أن ينعم بلذة الرقاد ، على أنه ما كاد يبرح منزله حتى رأى شيخين يسيران متمهلين ، فوقع فى روعه أنهما صديقاه وزميلاه : القاضى بدر الدين بن الخشاب ، والقاضى كمال الدين بن الزملكانى ، فخف سريعاً إليهما ، وأقسم بالله أن يتفضلا بالسهر لديه فى منزله ، حيث تعاصى عليه النوم ، وما خرج من المنزل إلا ليتعب كى يستريح ، وما زال بالقاضيين حتى استسلما لمشيئته ، وتوجها معه إلى منزله القريب !

قال قاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى « وكان ذا دالة على ابن الوردى ، فهو الذى عينه على قضاء حلب ، وقد مدحه ابن الوردى بقصيدة من أجود شعره » :

قال القاضى : وما الذى شرد نومك يا عمر ؟ أقصيدة تعاصت قوافيها عليك ، أو مقامة أدبية تحاول أن تبز بها الحريرى والبديع ؟

فأجاب ابن الوردى : ليت الأمر انحصر معى فى نطاق النثر والشعر ، فأنا صاحب أمرى معهما يأتينى الإلهام فأنظم وأنثر ، وإذا استعصى وأجدبت القريحة لم آسف على الجدب ، لأنى أعلم أنها ستخصب بعد حين !

فنظر قاضى القضاة متحيراً وسأل : وفيم إذن هذا القلق يا عمر !

فأطرق ابن الوردى قليلا ثم رفع رأسه ، وقال : أنتما حفظكما الله ، موضع سرى ، ومكان نجواى ، ولابد للحزين من أن ينفث ، وسأقصى عليكما بعض ما عاق النوم عن عينى هذه الليلة ! لقد كنت فى مجلس القضاء صباح اليوم ، فجاءنى الأديب

الشاعر علاء الدين الصفدى متهماً بأنه زور توقيع الوزير ابن فضل الله العمرى ، فى ورقة كتبها على لسان الوزير مستشفعاً به لنائب الحرس فى حماة ، كى يسهل له ما يعتزم من شراء دار بحماة ، حتى يستطع أن يقيم مستريحاً دون نكد ، وتطلعت إلى علاء الدين فوجدت دموعه تتقاطر فى ألم ، وكنت أجلس إليه قبل توليتى القضاء وأسمع ما يجود به من الشعر فأعجب بمقدرته ، فابتأست كثيراً لموقفه ، ثم سألته : لماذا تقدم على توقيع الوزير مزوراً إمضاءه ! فأخذ يحلف لى بأغلظ الأيمان أن التوقيع توقيع الوزير ، وأنه تسلم الخطاب منه سريعاً ، وخرج عاجلا دون أن يؤدى له واجب الشكر ، فتغير حال ابن فضل الله ، وأرسل من يدعوه عجلا للقائه ليأخذ منه الخطاب ، ويتهمه بالتزوير !

ثم قال ابن الوردى : وأنا أعرف توقيع ابن فضل الله العمرى ، ولا أشك فى أنه توقيعه ، دون أن يجترئ علاء الدين على زيفه وتزويره ، فأرجأت الحكم إلى الغد ، وأودعت علاء الدين سجن حلب موصياً به ألا يقابل بسوء ! وسيشرق الصباح ، وأتصدر للحكم ، وما أملك أن أحكم بصحة التوقيع ، بعد اعتراف الوزير أنه مموه مكذوب ! فماذا أصنع ؟

فكر قاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى مهتماً ، ثم ابتسم كمن بدا له أن الحل يسير ، فصاح بصاحبيه : هيا نذهب للوزير !

فدهش ابن الوردى ، وابن الخشاب ، وسألا : وفى مثل هذا الوقت ، بعد أن صليت العشاء بأمد بعيد ؟

فقال قاضى القضاة : الوزير متعود على السهر ، وهو يرحب بلقائى فى كل وقت ، وبينى وبينه من الأواصر ما يجعل المقابلة طريفة حبيبة فهيا .

قال ابن الخشاب : وكيف تخرج من مأزق الخطاب والتوقيع ! أتستطيع أن تقول له : إن علاء الدين مظلوم ، وأن التوقيع صحيح ؟

فابتسم قاضى القضاة وقال : أتشك فى أنى أستطيع أن أحتال ، حتى يظهر الله الحق ! هيا هيا !

توجه القضاة الثلاثة إلى بيت الوزير ، فوجدوا المصابيح موقدة ، وأتباعه

يدخلون ويخرجون ! فاستبشروا خيراً ، وطلب ابن الزملكانى الإذن مع صاحبيه فما لبث أن هرع الوزير نفسه لاستقبال ضيوفه ، وصاح بقاضى القضاة : مرحباً يا رجل ! غبت عنا كثيراً كثيراً .. أنا لا أذوق النوم إلا غراراً ، وفى حاجة إلى من يسمر معى ! فكيف إذا كان السمار قاضى القضاة ، وقاضيى حلب ! .

اجتمع القوم مع الوزير ، والمنزل ملىء بالناس ، فماذا عسى أن يقول ابن الزملكانى ! لقد أحس الوزير حين شاهد ابن الوردى أن فى الزيارة سراً ، وأن القضاة ما جاءوا جميعاً فى مثل هذا الوقت إلا بشأن المتهم علاء الدين الصفدى فصمم على أن يعاقب الرجل بتهمة التزوير مهما عظم الشفعاء ! وبدأ الحديث متوجهاً إلى ابن الوردى فقال : لم يجئنى شىء عما تم فى قضية الصفدى أيها القاضى .

فابتسم ابن الزملكانى وقال : حيا الله الوزير ، فهو صاحب الفراسة اللماحة ، وقد قرأ ما يجول بخواطرنا نحن الثلاثة فآثر أن يعفينا من التمهيد !

فتطلع الوزير متسائلا : وهل فى المسألة قولان حتى نلتمس وجوه التمهيد ؟

قال ابن الزملكانى : لقد عودتنى حفظك الله ألا نقطع على وجه الحديث ، وقد جئت الليلة لأطرفك بقصة لطيفة قرأتها عن الوزير ابن الفرات ، وأنت وزير مؤرخ طلعة ترتاح لأبناء الأسلاف ، كما سيدون تاريخك المجيد بعد عمر مديد ، وسيسمر به الناس كما نسمر الليلة بحديث ابن الفرات .

قال الوزير : أعرف عن ابن الفرات أنه كان من أكفأ وزراء الدولة العباسية ، ولى الوزارة عدة مرات ، فقوم المعوج ، وأصلح شئون الإدارة فى عهد المقتدر ، وحفر الأنهار ، ونظم البريد ، وقضى على الفساد ، وأبطل مظاهر الملق والنفاق ، ولم يبلغ وزير فى عصره مبلغه من السداد والتوفيق !

قال ابن الزملكانى : حرسك الله ورعاك يا سيدى الوزير ، فأنت سجل حافل بأصدق الأنباء ، ولى رغبة فى أن أضيف إلى ما قلت قصة طريفة كان بطلها الوزير ابن الفرات ، إذا أذنت !

فصاح الوزير : هيا تفضل ! أنت تشرفنا بالطرف النادرة دائماً ، وسنسر ونفيد

فاعتدل قاضى القضاة فى مجلسه ثم قال :

كنت أقرأ فى معجم الأدباء الذى خطه ياقوت الحموى ، فجاءنى حادث طريف عن ابن الفرات ذكره ياقوت عرضاً فى ترجمة هلال بن المحسن الصابى ، وخلاصته أن رجلا من المستورين اتصلت عطلته ، وانقطعت أسباب رزقه ، فرأى أن يزوّر كتاباً على لسان الوزير الجليل أبى الحسن بن الفرات إلى عامل بغداد على مصر أبى زينور المادرائى ، يتضمن الوصاية بالرجل ، والإحسان إليه غاية الإحسان ، فارتاب أبو زينور فى الكتاب ، إذ خط بلغة لا تعهد فى رسائل ابن الفرات ، فحبس الرجل عنده ، وبعث بالكتاب إلى بغداد ، فلما قرأه الوزير سكن ملياً ، ثم نادى من حضره من كتاب الديوان ، وسألهم : ماذا عسى أن أصنع فى هذا الذى زوّر الكتاب ، وقلد الإمضاء ، وادعى علىّ بما لم أقل ؟

فقال أحدهم : لابد من إحضاره وحبسه وجلده ليكون عبرة لسواه ، وقال الثانى : بل تقطع يده على رءوس الأشهاد ليظل قطعها شاهداً عليه بالجرم ، وقال الثالث : يحضر مخفوراً ليوبخ ويطرد ويصادر ماله من منزل أو محل .

فقال ابن الفرات : ما أبعدكم عن المعروف والفضل ، وأنفر طباعكم من الخير ، رجل فقير توسل بنا ، وتحمل المشقة إلى مصر مؤملا الخير بجاهنا ، ومستمداً عون الله من الانتساب إلينا ، ويكون جزاؤه لديكم الحبس والتشهير وقطع اليد ! والله لا كان هذا أبداً .

ثم أمر بالدواة والقلم والورق ، وكتب إلى ابن زينور يقول له : هذا كتابى ولا أعلم لماذا أنكرت من أمره ، وهل تعرف أنت كل من يلوذ بى من الناس حتى تشك فى توقيعى ؟ هذا رجل قد خدمنى أيام نكبتى فأردت أن أكافئه على يد له ، فكان من أمرك معه ما لا يليق ! عليك أن تقوم بواجبه ، وأن تحسن تفقده ، وتكثر معروفه حتى يعود إلى فى أحسن حال ، وأنا منتظر مقدمه الكريم من الآن !

وما مضت أيام حتى نظر ابن الفرات فرأى رجلا مهيباً فى أجمل حلة وأبهى طلعة يقف أمامه فيقبل الأرض بين يديه ، ويبكى مستعبراً ، فيسأله ابن الفرات : من أنت ؟ فيقول : أنا صنيعة معروفك ، أنا صاحب الكتاب المزوّر إلى أبى زينور

عامل مصر ، وقد شاء سيدى الوزير ألا يفضحنى بين الناس ، ثم خر على الأرض مقبلا .

فابتسم الوزير قائلا : وكم أعطاك أبو زينور ؟ فقال : كذا وكذا ، وذكر شيئاً عظيماً ، فقال الوزير : ولك مثلها منى ، وستكون فى حاشيتى ، إذ استعنت بجاهى ورأيت اسمى مصدر خير وطارد شر ، فأنت مثاب مأجور !

كان ابن فضل الله يصغى فى تربص ، فلما وجد المسألة لا تعدو طلب العفو دون أن يلمح قاضى القضاة بشىء آخر ، قال فى ابتسام : حيا الله قاضى القضاة ، وقد سبقنا ابن الفرات إلى العفو ، وعلى القاضى ابن الوردى أن يرسل الصفدى إلىّ ، لأشكر له تأميله الخير على يدى ، ولأجزل عطاءه ، مهما ارتكب من الزور ، وان أعدم من قاضى القضاء حفظه الله ، نصيحة مخلصة ، وتوجيهاً كريماً ، فذلك هو الفضل العظيم ...

قال القاضى بدر الدين بن الخشاب : لقد استجاب الوزير أيده الله إلى رجائنا دون أن ننطق ببنت شفة .

فقال الوزير : لقد نطقتم يا بدر الدين أبلغ نطق ، فأنت قاض أديب ، وتعلم أن الكناية فى كثير من مواضعها أبلغ من التصريح ، وقصة ابن الفرات رحمه الله من أبلغ الكنايات فيما جئتم بصدده الليلة !!

فقال بدر الدين : ولدى طرفة أخرى تدخل فى باب الستر الجميل ، أفيأذن الوزير أيده الله أن أوجزها .

قال الوزير : عجباً ! وماذا أسكتك إلى الآن ، ولم تسرع بها بعد أن فرغ قاضى القضاة من قوله السديد !

قال قاضى القضاة : جاء دورك فقل يا بدر الدين !

فتطلع الحاضرون إلى ابن الخشاب ، وتوقعوا أن يظفروا بطرفة ثانية ، وأدرك بدر الدين لهفتهم المترقبة فقال : أتعرفون أمين الدولة ابن التلميذ أكبر أطباء بغداد فى القرن الماضى ؟

قال الوزير : تمتحننا يا بدر ؟ فاعلم أننا نعرفه ونقدره !

فابتسم بدر الدين وقال : كان ابن التلميذ رئيس المستشفى العضدى ببغداد وصاحب الأمر فى تعيين أطبائها ، وتقدير مراتبهم ومرتباتهم بعد أن يعقد امتحاناً سنوياً يقرر فيه مقدار تحصيلهم الطبى .

وفى بعض مراسم الامتحان حضر إليه شيخ كبير ذو هيأة ووقار ، ليأخذ منه إجازة فى مزاولة الطب ، ولم تكن لديه دراية بدقائق الفن ، فجعل ابن التلميذ يعرض بعض الأمراض والجروح ، ويناقش طلابه فى وسائل علاجها ، وكل يقول بما لديه ، غير هذا الشيخ ، إذ لم ينطق بشىء ، فقال ابن التلميذ موجهاً الحديث إليه : ما سكوتك يا شيخ ؟ وقد جئت لتجاز ، وما أعلم عنك شيئاً ، فقال الشيخ : وهل تكلمتم فى غير ما أعلم من قديم ؟

قال ابن التلميذ : على من قرأت هذه الصناعة ؟

فرد الشيخ غاضباً : يا سيدنا إذا بلغ إنسان من العمر مبلغى المتقدم ، لا يليق أن يسأل عن أساتذته ، بل يسأل عن تلاميذه ، وتلاميذ تلاميذه ، وهم كثير !

قال ابن التلميذ : جرت العادة أن نسأل المتطبب عن أساتذته لندرك مبلغ ما وعاه عنهم ، فإذا لم تشأ أن تجيب عن هؤلاء فاذكر لنا ما قرأت من كتب الطب لأناقشك فى مجالك !

فقال الشيخ : يا سبحان الله ، صرت إلى أن أسأل عما قرأت فى عمرى الطويل ، وأنا فى كل يوم أقرأ كتاباً ، وأنقده ، وأعقب على ماحواه وأكتب عنه .

فانقطع ابن التلميذ ، ورحم شيخوخة الرجل ، ثم قال له : أتسمح لى أن أسألك عما كتبته من المؤلفات ، فقد أكون وقفت منها على شىء !

قال الشيخ : بعد أن يصرف تلاميذك .

فقال ابن التلميذ : قوموا جميعاً لأخلو إلى شيخكم .

وهرع الطلبة منصرفين ، فقال الشيخ : أنا منذ فطرت وأنا أداوى العامة بما أعرف من الأعشاب المشتهرة بين الناس ، وليس لى دراية بأى كتاب طبى ، ولا صلة بأى طبيب عالم ، ويجيئنى رزق أولادى من هذا الباب ، فاستر على !

فتحير ابن التلميذ ، وهم أن يصدر أمراً ، ولكن حلمه أدركه ، فتراجع يقول : أيها الشيخ ، لقد سترك الله فيما مضى ، وسأسكت عنك ، ولكن بشرط واحد !

فقال الشيخ : أى شرط هذا ؟

فرد ابن التلميذ : ألا تهجم على مريض بما لا تعلم ، ولا تتطرق إلى جراحة أو فصد ، بل تشير بالمنع من الطعام الدسم ، وما يجرى هذا المجرى .

فقال الشيخ : هذا والله مذهبى منذ ستين عاماً قضيتها فى معالجة مرضاى !

فصفق ابن التلميذ بيديه وقال : ليحضر الطلاب !

فلما اكتمل الجمع قال ابن التلميذ : هذا شيخى وشيخكم ، زاول الطب من ستين عاماً ، وتعدد تلاميذه ، ونشروا علمه فى الآفاق ، فاعذرونى إذا كنت أجهله قبل أن أعرف فضله ، وسامحنى يا رجل .

ومضى ابن التلميذ يسأل بقية الطلاب ، فتقدم إليه شاب فسأله : على من أخذت هذه الصنعة ؟

فقال الشاب : قرأت كتب هذا الشيخ ، وتابعت طريقة علاجه ، فأفدت كثيراً .

فقال الشيخ : أتأذن لى يا سيدى ، قبل أن أكون أستاذ الجميع .

فضحك ابن التلميذ ، وقال له : انصرف مشكوراً .

قال ابن الزملكانى : أحسب الفرق بعيداً بين ابن الفرات وابن التلميذ .

فرد الوزير : أى فرق يا سيدى القاضى ، وكلاهما قد ستر مؤمناً كى يستره الله !

فقال ابن الزملكانى : إن العفو عن صاحب ابن الفرات لا يتوقف عليه ضرر ما ، ولكن أخشى أن يغتر الشيخ بعفو ابن التلميذ ، فيندفع إلى علاج المرضى وهو أمى جهول !

قال بدر الدين : لقد احتاط كبير الأطباء فى المستشفى العضدى ، فأوصى صاحبه ألا يهجم على مرض بما لا يعلم ، وألا يتطرق إلى جراحة أو فصد ، وإذ ذاك يكون قد حصره فى أضيق نطاق .

فقال الوزير : بل أسبل عليه ثوب الستر ، ويخيل إلى أنه رحم شيخوخته الفانية ، إذ لو كان حدثاً ناشئاً ، لأشهر أمره ، ليقرأ ويتعلم ويستفيد .

قال ابن الزملكانى : الستر دائماً إغاثة ملهوف ، وإطفاء حريق .

وهنا قال ابن الوردى : لعلنا قد شغلنا الوزير عن نومه ، إذ تقدم الليل ، وله أن يستريح .

فعجل الوزير يقول : كأنك تود ألا تروى طرفة ثالثة ، كما تحدث أخواك فتريد أن تعجل بالرحيل ، لقد جاء دورك فقل !

قال ابن الوردى : قد جاء دورى ! وهل بقى لى دور بعد أن كاد الديك يصيح ؟

فقال الوزير : وإذا صاح الديك فسأسكته لنسمع ما تقول .

فتوجه قاضى القضاة إلى عمر بن الوردى ، وقال : أنت شاعر فقيه مؤرخ ، ولدى المؤرخ الشاعر أكثر ما لدى الفقيه .

فأجاب ابن الوردى : إن شيخنا قاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى ، جمع فأوعى ، وقد أرادنى على أن أروى بعض ما أعلم ، كما سبق الوزير الأكبر فاقترح ، وما على سوى أن أطيع .

ثم ارتفع صوت ابن الوردى ليسمع الجالسين جميعاً حين قال :

قرأت فى تاريخ الخليفة المأمون أنه كان مغرماً بتشجيع علماء الطب والهندسة والفلك مع مناظرتهم فيما يقولون ، فكان من يأنس من نفسه كفاءة فى أحد هذه العلوم يبادر بالتماس مقابلته ، فيحضر المأمون من يناقشه على مسمع منه ومرأى ، وقد درس إبراهيم بن الأعجمى بعض المسائل الهندسية ، وبرع فيها ، وتوجه إلى سند بن على المنجم المأمونى ليمهد الطريق إلى لقاء أمير المؤمنين ، وكانت به وعكة ، فأحاله على محمد وأحمد ابنى موسى بن شاكر ، وكانا صاحبى الأمر فى مسائل الهندسة ، وبهما حسد لكل من يتطلع إلى التفوق الهندسى ، فما كادا يناقشانه حتى غلبهما الطبع الحاسد ، فانتقصاه ، وأخبرا المأمون أنهما لم يجدا لديه علماً وفهماً ، وكان السندى بن شاهك متقدماً لدى المأمون ، فعز عليه أن يرجع

ابن الأعجمى خائباً حزيناً ، فتقدم للخليفة ، وقال له فى أمره وأمر ابنى شاكر ، فسارع المأمون بإحضار إبراهيم بن الأعجمى وناقشه ، فانقطع الأعجمى مبهوراً فقال الخليفة للسندى بن شاهك : هو ذا صاحبك ليس بشىء ، فقال السندى : يا أمير المؤمنين ، نحن جلساؤك قد تعودنا نقاشك ومحاورتك ، ومع ذلك تأخذنا رهبة منك فى النقاش فننقطع دون إتمام ، وهذا غريب طارئ وفد إلى ساحة أمير المؤمنين ويداه ترتجفان ، وقلبه يدق ، فلابد أن ينقطع مهما كان مهندساً حصيفاً ، وأشهد أمام أمير المؤمنين أنى بعض تلاميذه ، وقد أخذت عنه ما به أتكلم فى مجلس أمير المؤمنين ! فليسبغ الخليفة الرحيم واسع فضله عليه إذا شاء .

قال المأمون متعجباً : أأخذت عن ابن الأعجمى ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : إذن هو من مهندسى الدولة من الآن ! وله حجرته ومعمله وراتبه الكريم .

فنهض ابن الأعجمى يقبل يد الخليفة ، ثم تراجع قليلا قليلا بظهره إلى الوراء حتى بلغ باب الخروج ، فأشار المأمون على السندى أن يخرج معه ملاطفاً فلما انفردا ، قال ابن الأعجمى ، وصوته يتقطع خجلا : متى أخذت عنى يا سيدى ؟

فقال السندى : لا عليك ، ستكون معى فى عمل واحد ، وسأعلمك كل شىء يخص اتجاهك ، إذ عز علىّ أن ترجع يائساً حزيناً ! إن حجرتك جوار حجرتى ، وعملنا مشترك ، فإلى الغد !

قال الوزير : لديكم هذه الطرائف ، ولا أعلم عنها إلا لمناسبة الصفدى ، لابد أن نتزاور كثيراً كثيراً منذ الليلة !

ونهض الوزير ، فنهض سماره من خلفه ، وخرج القضاة الثلاثة صامتين ، كل إلى وجهته ، حتى إذا حان التفرق قال ابن الزملكانى لابن الوردى : أترانا خدعنا الرجل يا عمر حين أفهمناه أننا لا نعرف أن التوقيع صحيح !

فقال ابن الوردى : إنه خدع دون جدل ، ولكنك أنقذت مظلوماً ، وواسيت مكلوماً ، فرضى الله عنك .

من قصص البادية

(قصة واقعية رواها الأديب العربى الأستاذ عبد العزيز الربيعى فى مجلس سمر ، فراقنى أن أنقلها)

— ١ —

شحت السماء ذات عام على واحات بنى ذؤيب ، وكلب الجوع بالسابلة ممن يترددون على شيخ القبيلة فيجدون بشاشة الوجه ، وكرم اليد ، ولطف المأوى ، والشيخ الكبير أريحى مسماح ، يهتز للجود ، ويثلج صدره أن يرى ابتسام الآكل لديه ، وراحة المتعب عنده ، ومجىء الوافدين صباح مساء لايكاد يخلو منهم مكان ، ولكنه يجيل التفكير ، فيجد أن المال مع هذا الجدب الموحش إلى نفاد ، فالزرع ذاو ، والحيوان هزيل طاو ، والآبار ناضبة ذات شح ، فلا يدرى ماذا عسى أن يصنع ؟ أيوصد بابه دون الطارقين ؟ أم يرتحل إلى حيث لا يعلم ؟ أم يقتصد اقتصاد الممسك فلا يقدم غير الفتات .

وذهب إلى مضجعه حائراً متكسراً ، وكل أمله أن تدركه السحب بطوفانها العميم ، فتهتز الأرض ويورق الثمر وتفيض الينابيع ، فيحيا الإنسان ويسمن الحيوان وإذ ذاك يلبى داعى المروءة فى نفسه ، فيقدم خير الله للناس ، وهل هو إلا خازن دراهم إذا وجد أنفق ، وإذا لم يجد كتم غيظه كيلا يخلف داعى الفتوة ، فتلك التى تدمى فؤاده ! ثم ما فائدته فى الحياة ، وما جدوى مشيخته إذا لم يكن نبعاً يفيض ، وشجراً يمد الظلال .

ورأت زوجته تباء ما يرين عليه من هم ، وقد نفذت بفراستها إلى سويدائه ، فقرأت ما يصطخب فى خاطره من أمواج ، وعرفت أن الرجل الصابر فريسة صراع مرير ، وهى — فيما بينها وبين نفسها — كانت تفكر فى مثل ما يفكر ، وقد اعتادت ألا تقف فى طريق كرمه ، ولاتدرى الآن كيف تفاتحه فيما ينوء به !

وها هو ذا يتأزم صامتاً ، ويتأوه كاظماً — والداء أقتله دفينه — أفيجوز لها أن تسكت ! وقد أعملت ذكاءها فرأت أن تقتحم عليه سره دون أن تلقى عليه التبعة ؟ فهناك ولدها « حجرف » وزوجته « هند » ، وتشهد أنها كانت تهيم حباً بحجرف ، وتعتده أملها الباسم فى الحوالك ، ولكنه منذ تزوج بهند وملأت عليه حياته ، لم يعد صاحب المكان الأول فى قلب والدته ، وأنى ، ! والوافدة الغريبة تملك عليه قلبه ، ولا يكاد ينظر إلا بعينها أو يسمع إلا بأذنها ! أفتؤثره بعد الآن بالمكان الأول من قلبها وليس فى قلبه غير فتاة وافدة صارت شغله الشاغل وأنسه المقيم ! لم لا تحاول أن تخفف عن زوجها ، بالكيد لهند وصاحبها ! وفى واقع أمرهما ما يمهد للتصديق ، ويوحى بالجد والاهتمام !

تقدمت « تيماء » من الشيخ ، وقالت فى غضب : لو لم تمنع ولدك « حجرف » من ذبح النياق ، وتبذير العطاء ، استجابة لرغبة زوجته الهوجاء ، لوجدت الآن من مالك ما يسعف ! ولما ضاقت الدنيا بعينك إذا أمسكت السماء !

نظر الزوج فى تؤدة وقال : وماذا صنع حجرف ! إنه يسلك طريقاً سلكه أبوه ، كما سلكه جده وعمه ، لقد رآنى أذبح فذبح ، وشاهدنى أمنح فمنح ! أأنكر عليه ما آتيه !

فانتفضت الزوجة صارخة تقول : أفسدته الهوجاء التى تدفعه إلى التبذير والإتلاف ! لا تكاد تبقى على شىء ، إنها — وأنتما غائبان — تطعم الوافد ، وتوقد النار ، وكأنها رجل كسوب !

قال الشيخ : على ذلك نشأت فى بيت والدها الكبير !

فهاجت الزوجة تصيح : ألم أنشأ فى بيت أفضل من بيتها ؟ أكنا فى حاجة إلى أن تعلمنا هذه الرعناء ؟ والله لن تقيم معنا ، وإذا شاء هذا الخائب المتلاف أن يرحل معها ، فليذهب إلى غير بقاء .

قال الشيخ فى لطف : حزمك يا أم حجرف ورفقاً بهند !

فقفزت الزوجة تقول : سأنغص عليها العيش ، سأهينها أمام الوافدين ، ولو تعرض لى حجرف لذبحته ، لم يعد ابنى ، وسيرى !

— ٢ —

شاهد الليل فرساً يركبه حجرف وناقتين تركب إحداهما هند ، وقد توجها جهة المشرق ، لايدريان أين يذهبان ؟ وكان الزمن صيفاً ، والظلام ميدان السرى ، فإذا متع الضحى نصبا الخيمة وأراحا الحيوان ، وتبلغا بما يحملان من الزاد ، وكان من رأى هند أن يستقر بهما السير فى خيام أبيها ، والزوج لايرى أن يجىء إلى صهره طريداً ، ويفضل أن يزوره سيداً ذا حول وأتباع ! وطال الحوار دون اتفاق ، وكأن ما بنفسيهما من شجون قد ناء بقواهما فآثرا أن ينتظرا ليلة دون مسير ، وجلسا يسامران النجوم ، إذ وقفت الكلمات دون انطلاق ! ولكن ركباً يقدم من بعيد ! فيخترط حجرف سيفه ويتهيأ للموقعة متربصاً الشر من قاطعى الطريق ، وما أكثرهم فى متعرجات الرمال ومخارم الوديان .

انتصب الزوج ، فارع القامة ، حديد البصر ، وجعل يتأمل القادمين فى حذر ، فما راعه إلا أن يهتف أحدهم .

وافرحتاه ! حجرف بن شيخ بنى ذؤيب ! ستطعمون يا قوم ! لجأنا إلى سيد العرب وابن سيدهم ! بعثتك الأقدار لنا يا حجرف !

فرقت ابتسامة على وجه الأريحى المتطلع وسأل : وكيف عرفتم من أنا ؟

فصاح أحدهم : نعرفك ونعرف والدك ، ونعرف زوجتك هند ، لا يمر بنا عام دون أن ننزل فى خيامكم أسبوعاً أو أسبوعين ، فنجد مالا نجد إلا عند الكرام الأجواد ، نحن ضيوفك الليلة ياحجرف !

وكانت هند تسمع ، فاقتادت ناقة إلى زوجها وصاحت : هيا يا رجل ، سأحضر لك الثانية ، فالجمع كثير !

فتقدم حجرف فى فتوة ، وقبل هند فى إعجاب ، وقال فى نفسه : لم تبخل فى أحرج المواقف : أأكون دونها ؛ يستحيل .

ثم حمل المدية ، ونحر الناقتين وقال للأضياف : جهزوا الطعام فليس معنا خدم ، فشمر كل عن ساعده ، وارتفعت الأغانى بشعر البادية ، وضربت

الدفوف لتقطع صمت الصحراء ، حتى إذا نضج الشواء أقبل الساغبون نهمين ، فما تركوا شيئاً يدخر للصباح ! ثم أرسلوا دعوة الرحيل ، وانطلقوا قبل أن تبدو تباشير الصباح .

ونظر حجرف إلى هند فرآها تبتسم ، فقال فى أسف : لو طرقنا طارق ما وجد عندنا شيئاً !!

فصاحت به : معك سيفك ، والظباء حولك تعدو ، وربك من فوقنا كريم يسعف الكرماء ! ثم دنت منه فأسرت فى أذنه : سأريحك اليوم من الكفاح ، كنت أصطاد الظباء عند أبى ، وسأبعد قليلا لأحمل إليك زاد الليلة ، أتشك فى مقدرتى ؟

فقال فى هدوء : لقد تعود حصانى علىّ ، ولابد أن أطارد به القنيصة ، وقد تمدنا الأيام بحصان جديد ، يكون طوع بنانك ، فتنشطين لما تريدين ، انتظرى يا هند ! فلك بعد ميدان حفيل ، ثم ركب حصانه وانطلق غير موغل ليكون من صاحبته على قرب ، فاقتنص فريسته وعاد .

طلعت النجوم فى سماء الصحراء ، وبسطت هند فراشها أمام الخيمة لتجاذب صاحبها الحديث ، ثم رأت أن تهون الأمر فقالت فى ابتسام : ما أيسر العيش ! جولة واحدة تحضر الطعام ، ونفخة واحدة تنضجه ، ثم الراحة الهادئة ، والرفيق الحبيب !

فقال حجرف فى جد : ليس الأمر أمرنا وحدنا يا هند ! ماذا أصنع إذا قدم الوافدون كما فعلوا بالأمس ، ربما تلحق بنا قافلة تعرفنا ، فتطلب الزاد والمأوى ! لابد لنا من عدة ومال .

قالت هند : والله لقد فكرت فى ذلك ، وعلمت أن الله الذى جعلنا نعطى ونمنح لن يبخل علينا بما يعطى ويمنح ! ومن يدرى فلعل الغد يقدم بما لا نتوقع ، قد يمر بنا شيخ موسر يقرضك أو يشاطرك أو يضمن لك عند سواه ، وإذ ذاك تمد البساط ، وتملأ الجفان ، وتستقبل الضيفان .

قال حجرف : أسمع هتافاً فى أعماقى ينبئنى أن الله لن يضيعنى ، ولن يحرمنى لذة الأريحة ، وبهجة المروءة ، وبشاشة العطاء .

وحمحمت الفرس ، ومدت بصرها تخترق الظلام ، ونصبت آذانها كمن تتسمع ، فهتف حجرف : لابد أن هذا الحيوان العجيب قد سمع مالا أسمع ، ولابد أن أبادر الشىء قبل هجومه ، ثم امتشق سيفه ، وسار بضع خطوات ، فسمع همهمة أصوات تتقدم من الشمال ، وتوقع قافلة تنهب الليل متجهة نحوه ، فقال فى نفسه : أقافلة شر أم خير ، ثم توجه صوب الهمهمة حتى إذا كان منها على بعد ، صاح فى عزم : أنا بطل بنى ذؤيب ! أقود قومى .

فرد عليه الصوت فى غبش الظلام : إذن أنت حجرف نجل الشيخ عياد !

فقال حجرف : نعم ، فمن تكون ؟

قال صاحب الصوت : أنا بطل بنى فهد ، أقود قومى !

فقال حجرف : إذن أنت مسعود بن غالب ! لنتعانق .

وتقدم مسعود فاتحاً ذراعيه ، فاحتضن حجرف ، ونظر فلم يجد من أحد خلفه :

فقال فى عجب : وأين ضربتم خيامكم يا حجرف ؟ إنى لاأجد سواك !

فقال حجرف دون تلكؤ : خلتكم أعداء ، فأردت أن أخيفكم .

فأطرق مسعود لحظة ، ثم سأل : ومن قذف بك وحدك فى هذه المتاهة البهماء ؟

فقال حجرف : لست وحدى ! معى زوجتى !

فقال مسعود : معك هند ، صاحبة الأريحية ، وبنت السيد الهمام !

ظلمتها يا رجل إذ تتركها فى هذا البلقع الموحش دون أنيس ! !

فقال حجرف : لقد خالفت أبى فى أمر ، ولج الخلاف ، فتركته دون رفيق غير هند !

فقلب مسعود كفيه ، وقال : مالنا ، مناصفة يا حجرف ! أنت سيد ابن سيد ولن تضيع !

ثم صاح فى القافلة : اشطروا العبيد والإبل والخيل والبقر والغنم شطرين يارفاق !

قال حجرف فى عجب : ذلك كثير !

فرد مسعود فى حماسة : لا يا رجل ! هذا يومى ، وقد يكون لك يومك بعد حين ، هيا يا حجرف إلى خيامك ، وسيتبعك ما يعين !

وكانت لحظات قصار ، تطلع عندها حجرف وهند ، فإذا الأرض قد ملئت عبيداً وخيلا وإبلا وغنماً وبقراً ، وإذا الكل رهن إشارة حجرف ، وإذا الدنيا دول وحظوظ .

استعرض حجرف ماملك ، فحمد الله أن حقق ظنه ، ورأى بريق السعادة فى وجه هند ، فخيل إليه أنه ملك الأرض ، ومكث أسبوعاً يستقبل الوافد ، ويهب المحتاج ، ويطعم الجائع ، ويؤمن الخائف ! ولكنه وجد زوجته تفكر ساهمة ، فتقدم يسألها عما شغلها ، وصاح بها : لقد عاد الأنس سريعاً ففيم الاكتئاب ؟

فقالت : لا أرى المنزل هنا بدار إقامة ، لترجع إلى ديار أبيك ، ولتضرب خيامك بإزائه ، ولترجه من عناء الاستقبال والاحتفاء ؟ فالرجل شيخ طاعن ، ويريد أن يستريح .

برق ضوء السرور فى وجه حجرف ، وقال فى ملاطفة وإذا تحامقت العجوز ؟

فردت هند فى ابتسام : سأتحمل كل شىء من أجلك أنت يا سيد الرجال .

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

جبهة عالية

أذن المغرب ، وانتظم طلبة الأزهر فى صفوف خاشعين بين يدى الله وراء شيخ مهيب الطلعة ، حسن التلاوة ، تصعد كلماته من فمه نوراً يضىء ، وينسج وقاره من حوله هيبة تروع ، وماكاد يتم صلاته حتى تقدم إليه ضابط تركى يسأله أن يخلو به فى رواق جيد .. والطلبة يتهامسون متسائلين عما عسى أن يكون .

قال قائل منهم : لقد كان السلطان عبد العزيز يستعرض بالأمس وفد العلماء بالقاهرة ، وقد حرص الخديو إسماعيل أن يقوم رجال الأزهر بين يدى أمير المؤمنين بالركوع وتقبيل الأرض كما يفعل علماء تركيا فى حضرة الخليفة ! وما نظن أستاذنا العيوف « حسن العدوى » يركع لغير الله !

وقال طالب ثان : لقد امتلأت المدينة بما صنع الرجل على رءوس الأشهاد ، فقد تقدم غير هباب ، منتصب القامة ، مرتفع الهامة ، فبدأ بتحية الإسلام فى ثبات وتؤدة : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ! وكاد إسماعيل يجن ، فأخذ يضرب كفاً بكف ، ويصك بأسنانه فى غيظ أليم ! فسكت الطلاب قليلا ، وهمس أحدهم يقول : ولعل الضابط التركى قد حضر الآن ليحاسب الشيخ على ما ارتكب من خطأ ! إنه لموقف رهيب !

وكان الشيخ السقا أحد كبار علماء الأزهر يصغى للطلاب ، فاتجه إليهم يقول فى هدوء : أى موقف رهيب تظنون ؟ ! إن شيخنا العدوى كما أعرفه لايخاف غير الله ، ويرى الدنيا فى عينيه لا تزن جناح بعوضة ، ولئن جابهه السلطان بشىء ليجابهنه بأشياء ! أنسيتم يا قوم حادثة البخارى ؟!

فنظر الطلبة بعضهم إلى بعض متسائلين عن هذه الحادثة .

فابتسم الشيخ فى هدوء وقال : أتجهلون كل شىء فما تعرفون ؟!

فتضرع إليه الطلبة أن يفصل الحادثة كما رآها بعينيه .

فسكت ملياً ثم استأنف يقول : حين نشبت الحرب بين مصر والحبشة كانت جيوشنا تنهزم فى مرارة أليمة ، لأن إسماعيل قد طوح بأبنائنا فى مهواة سحيقة لامنجاة منها ، وقد أسند القيادة إلى بعض الأغرار ممن يحسنون الكلام أمامه ، ويفرون من الميدان ساعة الروع ، وأخذت النذر تتوالى على المصريين صارخة بالهزيمة والدمار ! وليس لدى إسماعيل من الذخيرة والرجال ما ينقذ به أناساً سيقوا إلى الإعدام فى غير مفخرة تتاح ! فلجأ إلينا — نحن علماء الأزهر — لنقرأ البخارى فننقذ مئات الأرواح !

فصاح طالب فطن : تفكير سقيم ، وقيادة بلهاء !

وقال آخر : هل جمع البخارى أحاديث رسول الله لتتلى حين تتأكد الهزائم ويحيق العذاب ؟

وقال ثالث يخاطب الشيخ السقا : وماذا صنعتم بهذا الطلب الغريب؟

فقال الشيخ : لقد قرأنا البخارى كما أراد ، لا ليعقبنا النصر ، بل لنفهم أسراره ، ونتدبر أحكامه ، وتلاوة الحديث النبوى إحدى العبادات !

فصاح أحد المستمعين ضجراً : وكيف كانت النتيجة ؟

فقال الشيخ فى نبرة متهكمة : بدأت القراءة ، وتوالت الهزائم ! وكاد إسماعيل يجن ، فتقدم إلينا يصيح فى جنون : ما فائدة البخارى ؟ وما فائدة العلماء ؟ ولكن الشيخ حسن العدوى أفحمه شر إفحام !

فأشرقت وجوه القوم ، وراحوا يتساءلون فى دهشة : كيف تم ذلك ؟ فقال الرجل : لقد ارتفع صوت العدوى بقول رسول الله : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » ! فقال إسماعيل : ومن الخيار ؟ فقال العدوى فى جرأة : من يقرأون البخارى فى جماعة لايتناهون عن منكر فعلوه ؟ فانسحب إسماعيل وقد كساه قتام كئيب !

فقال الطلاب : مرحى : مرحى ! .. هكذا ورثة النبيين .

ولم تمض لحظات حتى أقبل الشيخ العدوى فى سمت خاشع ووقار مهيب ، فنهض الشيخ السقا لمعانقته ، وتزاحم الطلاب يقبلون يديه ويمسحون رداءه ، ثم قال السقا لصديقه : ماذا صنع معك هذا الضيف العجيب !

فابتسم الشيخ وقال : جاء يعلن أنه رسول أمير المؤمنين ! وقد بعث به لينقل إلىّ إعجابه بموقفى حين قابلته بالأمس ! ثم زاد فذكر أنى من الآن محفوف برعايته وعونه ، فهو — كما يزعم — يحب الصرحاء المخلصين !

فقال أحد الطلاب : هنيئاً لك ياسيدى رعاية أمير المؤمنين ! فأنت من الآن فى حصن مكين ؟

فتجهم وجه الشيخ وصاح : ما هذا الذى تقولون ؟ ! وهل أنا أوافق على سيرته فى الناس حتى أهنأ برعايته ! إن إمارة المؤمنين فى هذا العهد بلاء على الإسلام فقد أسندت إلى أناس يحاربون الدين بالآثام ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ! أين شريعة الكتاب ؟ وأين حدوده الحنيفية البيضاء ؟ وماذا نصنع بإمارة المؤمنين وقد تخطفنا الناس !

قال الشيخ السقا فى همس : رفقك يامولاى ، فنحن معك فى الرأى والحيطان آذان ... فصاح العدوى : نكبة هائلة أن نحذر الآذان والألسنة ! لوددت أن يحضر هنـا عبد العزيز فأقرأ عليه سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو تاريخ الإمام على بن أبى طالب .

فقال أحد الطلاب : وإذا حضر إسماعيل فماذا عسى أن تقول ؟

فأجاب الشيخ : ومن إسماعيل بجوار عبد العزيز ؟ لقد فسد الرأس فنتنت الأعضاء ! ثم أذن مؤذن العشاء ! فتقدم القوم للصلاة .

وراحت أيام وجاءت أيام !

ففى عصر يوم عاصف سرى همس يتردد فى جنبات الأزهر بأن الإسكندرية قد ضربت بمدافع الإنجليز ، وأن الخائن توفيق قد انضم للأعداء فأباح لهم أن يضربوا المنارة بالقنابل وأن يقتلوا المصريين دون مبالاة . وقد انضمت إليه شرذمة من عبدة المال والجاه فباعوا ضمائرهم وخذلوا إسلامهم ... ثم استحال الهمس المتردد إلى دوى مزعج ، فتصدعت القلوب حسرة ، وتطلع الأزهريون إلى علمائهم وفى مقدمتهم العلامة العدوى ، فزمجر الرجل زمجرة غاضبة ، ونادى بعزل الخائن الأثيم من العرش ، واستدعى إلى مجلس بالقصر الخديوى برأسه توفيق ! فجاهر بالحق ،

ووقف موقفاً خالداً أجج الحمية وأشعل الإباء ! وفى ساحة الأزهر خطب الناس داعياً إلى نصرة البطل الخالد أحمد عرابى زعيم الثورة وفارس مصر وبطل الإسلام !

لم يكن رجال الدين فى حاجة إلى من يعلن إليهم رأى الإسلام ، فهم يعرفون حكم الله فى مقاتلة الأعداء من المحتلين ، والخونة من المارقين ، ولكن كلمات الشيخ العدوى ضاعفت العزيمة وأوقدت الحفيظة ، فاجتمعوا حوله يهتفون ويكبرون قائلين : تقدم يا قاهر الطغاة ! وصاح صائح منهم يقول للشيخ : سلكت سبيل الأئمة الهداة !

وهنا يسمع صوت العدوى مدوياً : أين أنا من الأئمة الهداة ؟ أين أنا من سعيد ابن المسيب وقد أذل الوليد ! أين أنا من سعيد بن جبير وقد جابه الحجاج ؟ أين أنا من أبى حنيفة ومالك وقد جالدا المنصور ؟ أين أنا من ابن حنبل وقد تحدى المأمون والمعتصم والواثق بالله ! بل أين أنا من العز بن عبد السلام وقد باع الأمراء ! ثم تلا قول الله : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون »(١) !

وكانت ثورة صاخبة ... ثم حرب مستبسلة وبطولة خارقة .. ووراء ذلك خيانة مستنكرة ، ورشوة آثمة ونهاية سوداء .

وخيم على مصر ظلام ظالم حين دخل توفيق القاهرة مدججاً بالحراب الإنجليزية ومن فوقه العلم البريطانى يرمز إلى احتلال بغيض يزهق الأنفس ويحرج الصدور ! وقد انقلب المسرح فجأة ، فأصبحت الإدارة والرياسة فى أيدى خونة مرتشين تفيض أردانهم بالنتن الموبق ، وتسيل أكفهم بالذهب الحرام ، وقد شاءت السخرية المريرة أن تقيم للأبطال من أحرار الوطن محاكمة إرهابية تقتص من الحرية والكرامة والعزة ، فتسوق سامى البارودى وأحمد عرابى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت ومحمود فهمى ومحمد عبده إلى أقفاص الاتهام مكبلين مصفدين ! وتقدم للأنذال من خونة الأمة كسلطان وخنفس والطحاوى أوسمة المجد ونياشين النباهة ! فأى حق رفع ؟ وأى باطل يقام .

(١) سورة الأحقاف ، الآية ١٦

وجاء دور حسن العدوى فى المحاكمة ، وقد خيم الإرهاب فى كل زاوية ، وأخذ الطغيان بكل خناق ، وتعاقد الخونة على أن يذلوا كبرياء هؤلاء الأباة ، متوهمين أن الشجاعة ستذوب فى ساحة البطش ، فتنتكس رءوس كانت مرفوعة ! وتخفض أصوات طالما جلجلت بالزئير ، وينظر القاضى متشامخاً إلى الشيخ الوقور وقد وقف أمامه فى ثبات وإقدام فيصيح به : أأنت وقعت على المنشور ؟!

فيقول الشيخ : أى منشور تريد ؟ فيتضاحك القاضى متشفياً ويقول : المنشور الذى قضى بعزل الخديوى عن أمر البلاد ؟!

فيرتفع صوت الشيخ : لوجئتم بمنشور جديد يقضى بعزله لوقعته فوراً دون تأجيل ! لقد خان توفيق وطنه وإسلامه ! ولن يرضى به إنسان !

وترتج المحكمة ارتجاج الباطل أمام زلازل الحق ! ويصيح القاضى مشيراً إلى زملائه : أسمعتم ما يقول ؟ فيزأر الشيخ ثانية : إن الخديو خائن خائن ولن يعترف به مسلم يخاف الله ! ماذا قلب الأوضاع أمام هؤلاء ! لقد كانوا يتعاظمون ويتشامخون ، فما زال العدوى يسمو ويرتفع حتى حلق فى الأوج ، وتركهم فى خزيهم الشائن فى أرض دنسة تلتصق رءوسهم بالتراب !

وينظر القوم بعضهم إلى بعض — وأكثرهم مصريون — فيجدون قطرات الخجل تملأ وجوههم المأخوذة ، وتمتمات الحيرة تعقد ألسنتهم فما يكادون ينطقون ، وقد وقف المحامى الإنجليزى « برودلى » موقف العجب والإعجاب بما رأى وسمع ! ورمق الشيخ فى إكبار ! ثم رنا طويلا إلى هيئة المحكمة كالساخر المستهزئ ! وكأنه يقول : هل تجرءون ؟

ثم خرج الرجل مرتفع الجبهة ، وقد كتب للأجيال المقبلة قصة الحفاظ الحر ، والإباء العنيد ، غير عابئ بما سيكون .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
عاشقة السلام	٤
أذان فى غير موعد	١٢
الجاسوس المتسول	١٩
أبو المسك كافور	٢٧
من حديث أبى حيان	٣٤
فراسة ابن سينا	٥٦
سباح فدائى	٦١
القاضى الفاضل	٦٧
حديث الخطباء	٧٧
مروءة الصعاليك	٨٥
عزلة مثمرة	٩٣
خلافة جديدة	١٠١
جبار عنيد	١٠٩
بابر التيمورى	١٢٠
السلطان محمد الفاتح	١٢٨
هزيمة قازان	١٣٩
نور جهان...	١٤٧
ابن بطوطة يتحدث	١٥٦
الستر الجميل	١٦٤
من قصص البادية	١٧٣
جبهة عالية	١٧٩

منتديات قلعة طرابلس
www.tripolicastle.com

رقم الإيداع : ٤٧٥٤

الترقيم الدولى : ٦—١٩٢—١٦٣—٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة